

من أهم أعمال تشارلز ديكنز

قصة مدينتين

الجزء الأول

تأليف : تشارلز ديكنز

تعريب: أ/اسامة عبد الرحمن

الكتاب الأول : عودة الميت

- ١ -

العصر

كان أحسن الأزمان، وكان أسوأ الأزمان كان عصر الحكمة وكان عصر الحماسة كان عهد الإيمان، وكان عهد الجحود كان زمن النور، وكان زمن الظلمة كان ربيع الأمل، وكان شتاء القنوط كان أمامنا كل شيء، ولم يكن أمامنا شيء كنا جميعا ماضين إلى الجنة مباشرة، وكنا جميعا ماضين إلى جهنم مباشرة وعلى الجملة، فقد كانت تلك الفترة أشبه ما تكون بعصرنا هذا، حتى لقد أصر بعض المؤرخين الأكثر صخباً على وصفها، سواء في الصلاح أو الطلاح، بصيغ التفضي المانعة ليس غير

كان ثمة ملك ذو فك عريض، وملكة ذات وجه قبيح على عرش إنجلترا وكان ثمة ملك ذو فك عريض، وملكة ذات وجه جميل على عرش فرنسا وفي كلا البلدين كان السادة المهيمنون على مخازن الدوق الخاصة بالخبز والسّمك يرون في مثل وضوح البلور، أو أوضح، أن الأشياء سوف تظل على حالها الراهن أبد الدهر

كان ذلك العام هو العام الخامس والسبعين بعد السبعمئة والألف لميلاد سيدنا يسوع المسيح وكانت إنجلترا تنعم بالوحي الروحي، في تلك الفترة المحظوظة، شأنها اليوم ذلك بأن المسز ساوثكوت.

كانت قد احتفلت منذ قريب بذكرى ميلادها المبارك الخامسة والعشرين، وهى التي بشر بظهورها الشني جندي من الحرس معلنا أن ترتيبات قد اتخذت لابتلاع لندن ووستمنستر وحتى عفريت زقاق الديكة كان و انقضى على عهده اثنتا عشرة سنة ليس غير، بعد أن أدى رسالته، نقرأ كما تؤدي الأرواح في هذه السنة نفسها التي انتهت مؤخراً والتي تعوزه الأصالة على نحو خارق رسالاتها وكانت رسائل دنيوية خالصة وشرعت تتوارد إلى التاج والشعب الإنجليزي من مؤتمر عقده الرعايا البريطانيون في أمريكا ومن عجب أن الدليل قد نهض على أن هذه الرسائل الدنيوية كانت أعود على النوع البشري وأشد خطراً في تاريخه من أي من تلك التي تلقاها الناس من أي من دجاجات زقا الديكة.

أما فرنسا - وكانت أقل حظاً على الجملة في حقل شؤون الروح من شقيقتها في السجن والصولجان - فقد انحدرت انحداراً متسارعاً وطفقت تضر النقد الورقي ونفقه وإلى جانب ذلك فقد كانت ثمة نفسها، بارشاد قسستها النصارى، ببعض الفعال الإنسانية، من مثل الحكم على أحد الشبان بقطع اليدين، ونزع اللسان بالكلاية، وإحراق جسده حياً، لاحتجائه عن الركوع تحت وابل المطر إعظاماً لموكب من الرهبان مر تحت بصره على مسافة خمسين أو ستين باردة وجائز أن تكون في غابات فرنسا والنرويج لحظة تنفذ حكم الموت بهذا الشاب البائس - شجرات ناميات أفردها ذلك الخطاب الذي يدعونه القدر (وتفصيل ذلك أن رجلا اسمه الممتر بارسون زعم أن النقر الذي كان يسمع وهى تقطع وتنتشر ألواح تصطنع منها آلة متحركة ذات عدل وسكين.

وذاء فطائع دونها التاريخ وجائز أيضاً أن يكون في البيوت الخشنة الة يقطنها بعض الفلاحين العاملين على الأراضي الثقيلة المجاورة لبارى- عربات خرقاء تبت أذى المطر في ذلك اليوم نفسه، بعد أن لونها وحى الريف، واستروحتها الخنازير، وجثمت فيها الطيور عربات الفلاح، الذي يدعونه الموت، أن افردها لتكون هي عرباته التي يساق بها الناس إلى المقصلة يوم تنشب الثورة ولكن ذلك الحطاب وذلك الفلاح كانا ، برغم عملهما الدائب الموصول، يعملان في صمت، فلا يسمع أحد وقع أقدامهما المكبوت وليس ذلك بمستغرب، لأن مجر الإشارة إلى أنهما ناشطان للعمل كان يعتبر من الكفر والخيانة

وفي إنجلترا كان النظام والأمن نادرين إلى حد لا يبرر فقد كانت عصابات جريئة من الرجال المسلحين وقطاع الطرق تسطو على العاصمة نفسها كل يوم وكانت الأسر تهر تهر تحدي علنية من مغادرة البلدة إلا بعد نقل ريش منازلها إلى حوانيت بيع الأثاث صيانة لها من عبث اللصوص وكان قاطع الطريق في الليل تاجر المدينة في النهار؛ حتى إذا تبينه وتحده زميل له كان صاحبنا واعترض سبيله ليلا بوصفه القائد بادر إلى إطلاق النار على رأسه ، فقة في بسالة وولى هاربا وكان يكمن لمركبة البريد سبعة من اللصوص فيقتل حارسها ثلاثة منهم، ثم يقتل هو برصاص الأربعة الآخرين بسبب ن نفاذ ذخيرته، لسلب المركبة بعد ذلك في طمأنينة وكثيرا ما كا أحد قطاع الطرق يصد ذلك الحاكم الجليل الذي يسمونه محافظ لندن عن سبيله، عند تورنهام جرين، ثم يسلبه، وهو الشخصية الكبيرة اللامعة، كل ما معه ؛ على مشهد من حاشيته

وكان نزلاء السجون في لندن يخوضون المعارك ضد سجانهم، فيصوب القانون، ذو الجلال بنادقه إليهم مشحونة بالرصاص ويطلق النار عليهم جميعاً وكان اللصوص ينتزعون الصليبان الماسية من أعناق النبلاء في احتفالات البلاط الملكي وكان الجند يدخلون حي سانت جايل بحثاً ع نالبضائع المهربة، فيطلق أفراد الشعب النار على الجند ويطلق الجند النار على أفراد الشعب؛ وما كان أحد ليجد في أي من هذه الحوادث شي خارج على نسق العادة ووسط هؤلاء جميعاً كان الجلاد الموكّل بالمشنقة مشغولاً أبداً كانت الدولة تعهد إليه بعمل موصول، فهو حيناً يشنق أرتالاً من صنوف المجرمين، وحينما يشنق يوم السبت لصاً من لصوص المنازل أُلقي عليه القبض يوم الثلاثاء وهو حيناً يحرق الناس المحكوم عليهم بالموت جماعات جماعات في نيوجايت، وحين يحرق الكتب والكراريس عند باب قاعة وستمنستر كان ينتزع، يوماً ، الحياة من صدر فاتك وحشي، لينتزع الحياة في اليوم الذي يليه من صدر مختلس مسكين سلب غلام أحد الفلاحين ستة بنسات ليس غير.

هذه الأشياء كلها، والأخرى مثلها، أاجتمعت لتطبق على تلك السنة العريقة الغالية سنة خمس وسبعين وسبعمئة بعد الألف وفي غمرة من ذلك كله، وفيما الحطاب والفلاح يعملان في الخفاء كان ذانك الملكان العريضا الفكين وتانك الملكتان، ذات الوجه القبيح وذات الوجه الجميل، يروحون ويغدون في جلبة بالغة، حاملين حقه الإلهي في الحكم بيد قوية متجبرة وهكذا أستاق العام الخامس والسبعون والسبعمئة بعد الألف جلالاتهم»كما استاق الملايين م صغار الناس - وفيهم أشخاص هذه القصة في الطرق المنبسط مال أمامهم.

مركبة البريد

كانت طريق دوفر هي التي امتدت ، ذات ليلة من ليالي الجمعة في أواخر نوفمبر، أمام أول شخص من أشخاص هذه القصة وكان طريق دوفر هذه تقوم، بالنسبة إليه، وراء مركبة البريد المصممة بتثاقل وضوضاء، في هضبة شوتر لقد ارتقى الهضبة على قدميه ، مخوض في الوحل إلى جانب المركبة، كما فعل سائر المسافرين وما كان ذلك رغبة منهم في الاستمتاع برياضة المشي في تلك الظروف، ولكن بسبب الهضبة، وجهاز الأفراس، والوحل، والبريد كانت كلها بالغة الثقل إلى حد يجعل الخيل تقف ثلاث مرات متواليات، وتحرن مرة فلوحي بالعر عن سبيلها محاولة أن ترجع بها إلى بلاكهيث ولكن الأعنة، والسوط وسائق العربية، والحرس كانوا كلهم قد قرأوا تلك المقالة الحربية التي تشجب ذلك الرأي القائل بأن لبعض البهائم عقلا، فإذا بالأفراد تستسلم وتستأنف أداء واجبها.

برؤوس مطأطئة وأذيال مرتجفة شقت الخيل طريقها خلال الوحل الكثيف، متخبطة متعثرة بين الفينة والفينة، وكأنما توشك مفاصلها أن تنخلع وكان الفرس الأمامي يهز رأسه وكل ما عليه هزاً عنيفاً كلما أراد سائق الخيل أن يوقفها بكلمة وو - هو، سود هو يقظة حذرتني، لكأن ذلك الفرس البالغ القوة ينكر إمكان جذب المركبة حتى قمة الهضبة.

فقرر إن يسمع المسافر المصعد إلى جانب المركبة جلجلة الفرس وطنينه حتى
بجفل ، شأن المسافر العصبي، و يستبد به الهم والقلق
وكان ضباب منير يملا الأودية كلها، وكان قد طوف في وحدته الموحشة حول
الهضبة، وكأنه روح شريرة، ملتصق الراحة من غير أن يجدها ضباب دبق بارد
إلى أبعد الحدود اتخذ سبيله الوئيد خلال الهواء في تموجات يتبع بعضها بعضاً
ويغطي بعضها بعضاً، كما تفعل الأمواج في بحر مريض وكان كثيفاً جداً
حتى لقد حجب كل شيء عن ضوء مصابيح المركبة، ما خلا هذه المصابيح،
وحركتها البطيئة، وبعض يارادات من الطريق كان لهاث الأفراس المجهددة يندفع
في ذلك الضباب اندفاع البخار، وكأنما هو الذي أنشأه كله.

وبالإضافة إلى ذلك المسافر ، كان ثمة مسافران آخران يصعدان في الهضبة إلى
جانب المركبة وكان الثلاثة جميعاً متلعين بالأثمة تغطي آذانهم ووجوههم حتى
عظم الخد، وينتعلون أحذية جلدية ضخمة تنته إلى ركبهم ولم يكن في ميسور أحد
منهم أن يتمثل، من أيما شيء رآه صورة الشخصين الآخرين وكان كل منهم
محبوباً عن عيني رفيق العقلية بعدد من الأثمة يكاد يبلغ عدد تلك التي تحجبه
عن أعياء جسديهما في تلك الأيام كان المسافرون يحجمون كل الاحجام عن
الأنس إلى رفاقهم والثقة بهم بعد تعارف قصير، لأن أيما رجل في الطريق قد
يكون لصاً أو متواطئاً مع اللصوص، وكان أولئك المتواطئون لا حصر لهم ما
دام في ميسور كل مركز من مراكز البريد وكل حانة ما حانات الجعة أن طلع
شخص ما، يعمل في خدمة القائد ويتقاضى الأجر منه، ابتداء من رجل الاقطاع
إلى أخط العاملين في الأصطبلات

ذلك ما دار في خلد حارس مركبة بريد دوفر ليلة السبت تلك من نوفمبر، عام خمسة وسبعين وسبعمئة بعد الألف، فيما هو واقف في موضعه الخاص به خلف المركبة المعدة في هضبة شوتر، موقع بقدميه، مسمرة عينه ويده على صندوق سلاح موضوع أمامه حيله.

وكانت مركبة بريد دوفر في وضعها الطبيعي المألوف فالحارس ينظر بريب إلى الركاب، وكل من الركاب ينظر بريب إلى زملائه وإلى الحارس، وهم جميعاً ينظرون بريب إلى كل أمر آخر ولم يكن سائق العربة واثقاً من شيء ما خلا أفراسه، هذه البهائم التي كان في ميسوره أن يقسم بالكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، وفي ضمير مطمئن، مؤكداً أنها ليست أهلاً لهذه الرحلة

وقال السائق: وو هو شو هو وثبة أخرى وتنتهين إلى القمة ولعنة الله علي، فأنا لم أوفق إلى أن أبلغ بك هذا المكان إلا بشق النفس جوفأجابه الحارس: هالو كم الساعة معك، يا جو؟ الحادية عشرة وعشر دقائق فصرخ السائق المغيظ: يا للمصيبة ولم نبلغ قمة شوتر بعد، إلي عين من خيل مينة.

وألهب السائق جلد الفرس البالغ القوة بالسوط، فاندفع في الطري الوعرة بأقصى ما يستطيع من قوة، فجرت الأفراس الثلاثة على أثره ومرة أخرى اتخذت مركبة بريد دوفر سبيلها الشاقة، وأحذية ركابي العالية البالغة حتى الركب تخوض، إلى جانبها، في الوحل كانوا يتوقفوا حين وقفت المركبة، وظلوا على مقربة منها لا يريمون ولو قد كان لأحد من الثلاثة الجرأة على أن يقترح على أحد رفيقيه أن يتقدم العربة بعض الشيء، وسط الضباب والظلام، إذن لأثار بذلك ظنون القوم فأطلقوا النار عليه في الحال بوصفه قاطع طريق

وانتهت الوثبة الأخيرة بمركبة دوفر البريدية إلى قمة الهضبة وصاح السائق في جرس محذر خافض بصره من مقعد القيادة يشتم جو

-ماذا تقول يا توم؟ وأصغيا أقول إن جرادة يعدو نحونا يا جو

وأنا أقول إنه يخت خبيثاً يا توم كذلك أجابه الحارس، رافعاً يده عن الباب، وارتقى مكانه الخاص به في خفة ورشاقة، صائحا : أيها السادة باسم الملك، خذوا حذرکم جميعا ولم يكذب ينطق بهذه المناشدة العاجلة حتى رد زناد بندقيته إلى الورا واستعد للهجوم.

وكان المسافر الذي تتحدث عنه هذه القصة واقفا على موطن العربى وقد هم بأن يدخلها، وكان الراكبان الآخران خلفه مباشرة فهما يوشكا أن يتبعاه فلم يكذب يسمع إلى كلام الحارس حتى أقام على الموطئ نصفه في العربى ونصفه خارجها، على حين ظل المسافرين الآخران على الطريق من تحته ونقل الركاب كلهم أنظارهم من السائق إلى الحارس، ومن الحارس إلى السائق، وأصاخوا والتفت السائق إلى وراء، والتفت الحارس إلى وراء، وحتى الفرس البالغ القوة وترأذن والتفت إلى وراء مجاراة لهما.

وكان في السكون الذي عقب وقوف المركبة وانقطاع دمدمتها مضافة إلى سكونة الليل، ما جعل كل شيء هادئاً حقاً وأوقع لهات الخيل حركة مرتعشة في أوصال العربى فكأنها في حال من الاضطراب والاهتياج وخفقت قلوب الركاب خفقاناً عالياً يكاد يسمع وعلى أبسط حال، فقد آذن ذلك التوقف الساكن إيذاناً صارخاً بأن في المركبة قوة وصاح الحارس بأعلى صوته:

سو - هو؟ أنت، يا هذا قفا سوف أطلق النار وكفت الجياد فجأة عن العدو وفي غمرة من التخبط في الوحل تطاير الرشاش ههنا وهناك انطلق من قلب الضباب صوت رجل : هذه مركبة بريد دوفر؟ فأجابه الحارس: وما يعنيك من ذلك؟ من أنت؟ هل هذه مركبة بريد دوفر؟ لماذا تريد أن تعرف؟ أريد أحد المسافرين إن كانت هذه مركبة بريد دوفر أي مسافر تريد؟ مستر جارفيس لوري وأعلن الراكب الذي تتحدث هذه القصة عنه أن ذلك الاسم اسمه وألقى عليه الحارس ، والسائق، والمسافران الآخرين نظر ارتياب.

صاح الحارس مخاطباً الصوت المنطلق من الضباب: إبق حيث أنت، لأنني إذا ارتكب خطأ فلن يكون في ميسوري أن أصلحه طوال عمرك على السيد الذي يحمل اسم لوري أن يجيب في الحال فتساءل المسافر في صوت مرتعش بعض الشيء: ما المسألة؟ من يريدني؟ أهو جيري؟ فغمغم الحارس في ذات نفسه : أنا لا أحب صوت جيري، إذا كان هذا الرجل هو جيري إن صوته أخشن من أن يلائمني نعم، با مستر لوري ما القصة؟ وترجل من المركبة يساعده المسافران الآخران، يحدوهما الجزع بأكبر مما يحدوهما اللطف، ليسارعا بعد إلى دخول المركبة وايقاد الباب وإغلاق النافذة ثم أردف: في استطاعته أن يدنو ليس ثمة أي بأسفقال الحارس مخاطباً نفسه في شكاسة: أرجو أن لا يكون ولكنني لست واثقة جدا من ذلك ثم صاح: هاللو، أيها الرجل.

فقال جيري في صوت أكثر بجه من ذي قبل حسناً، هالو تقدم نحونا على مهل
أسمع أنت؟ وإذا كنت قد سددت مسدس إلى سرجك فلا تدعني أرى يدك تتقدم
نحوه إني ليس أسرع منى إلى الخطأ وإذا ما وقع في أحد الأخطاء اتخذ شكل
الرصاص وهكذا دعنا نرى وجهك فتقدمت في تودة، خلال الضباب المطوف
على نحو دائري، صور فرس وفارس، واقتربنا من جانب المركبة حيث وقف
المسافر ووقف الفارس والقي نظرة خاطفة على الحارس، ثم قدم إلى المسافر
ورة صغيرة مطوية وكان جواد الفارس متعباً مبهوراً، وكان كل من الفرس
والفارس معفراً بالطين من حوافر الجواد حتى قبعة الرجل.

قال المسافر بصوت رجل الأعمال الهادئ الواصل من نفسه : أياه الحارس فأجاب
الحارس اليقظ في جفاف ويمناه على عقب البندقية الخشبي، ويسراه على
أسطوانتها، وعينه على الفارس: سيدي ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف أنا من
موظفي مصرف تلسون ولا ريب أنك تعرف مصرف تلسون في لندن إني ذاهب
إلى باريس في عمل ما خذ هذا الريال واشرب به خمرة هل أستطيع أن أقرأ هذه؟
لا بأس، شرط أن تسرع في ذلك، يا سيدي.

وقال: إنها ليست طويلة، أرأيت أيها الحارس ثم وجه الكلام إلى الرسول قائلاً :
جيري، قل لهم إن جوابي كان: لقد بعث الميت وأجفل جيري في سرجه، وقال
وصوته على أشد ما يكون خشونة وبع هذا جواب غريب إلى حد ملتهب، أيضاً
إحمل هذه الرسالة إليهم، وسيعرفون أنني تلقيت ورقتك ها وكأني كتبت ذلك على
القرطاس وفقك الله إلى النجاح وإلى اللقاء.

قال المسافر هذه الكلمات وفتح باب المركبة ودخلها، من غير أن يساعده هذه المرة زميلاه اللذان كانا قد أخفيا ساعتيهما ومحفظتيهما بخفة ورشاقة، في نعليهما، فهما يتظاهران الآن بالنوم، وليس لهما م وراء ذلك غرض واضح غير اجتناب المخاطرة في ابتداع أي نوع آخر من العمل.

وتابعت المركبة طريقها وأكاليل من الضباب أشد كثافة تطبق علي الطريق فيما هي تشرع في الانحدار وفي الحال، أعاد الحارس بندقيته إلى صندوق السلاح حتى ألقى نظرة على سائر محتوياته وعلى المسدسات الإضافية التي شددت إلى حزامه، حول بصره إلى صندوق أصغر يحتوي تحت مقعده بعض أدوار الحدادين، ومشعلين، وعلبة صوفان وإنما وُد بهذه الغدة كلها لك يستعين بها إذا أطفأت الرياح مصابيح العربة، وهو ما يحدث في بعض الأحيان، فلا يكون عليه إلا أن يحتجز نفسه داخل العربة، ويعكف على حجر الصوان والفولاذ يستخرج منهما شررة يمنحه الضوء بسلامة ويس إذا كان محظوظة) في مدى خمس دقائق.

وفي صوت رفيق قال الحارس من فوق غطاء العربة : توم هاللو، جوميو هل سمعت الرسالة؟ أجل، سمعتها ، يا جو ماذا فهمت منها، يا توم؟ لا شيء على الإطلاق، يا جوفقال الحارس في ذهول هذه مصادفة، أيضاً، لأنني فهمت من الشيء نفسه وإذ ترك جييري وحيداً وسط الضباب والظلمة ترجل عن جواده لحظة لا ليريح ذلك الجواد المنكود فحسب، بل ليمسح الوحل عن وجهه.

وينفض الندى عن حاشية قبعته الجديرة بأن تتسع لنصف جالون منه وبعد أن وقف واللجام فوق ذراعه المثقلة برشاش الماء والطين، حتى لم يعد قادراً على سماع عجلات المركبة، استدار ليهبط جانب الكتيب وقال الرسول ذو الصوت الأجلح مخاطباً فرسه : بعد ذلك الخبر الذي اصطنعتة من تامل بار، أيتها السيدة، لم يبق في إمكاني أن أث بقائمتي الأماميتين حتى انتهي بك إلى السهل لقد بعث الميت تلد رسالة غريبة حقا إن كثيرا من مثل ذلك لن يناسبك، يا جيرى أقول، جيرى، إنك ستعاني حالة بغیضة جداً إذا أمسى انبعاث الموتى شائعاً.

- ٣ -

ظلال الليل

من الحقائق العجيبة الجديرة بالتفكير أن كل كائن بشري هو بفطرته، سر عميق فما دخل مدي كبيرة تحت جناح الظلام إلا خطر لي أن كل بيت من هذه البيوت المظلمة المحتشدة ينطوي على سره الخاص، وكل غرفة من غرف البيت الواحد تنطوي على سرها الخاص، وكل قلب نابض هو، في بعض تصوراته، سر مغلق دو القلب الذي هو أقرب ما يكون إليه إن في ذلك لشيئ من الفطاعة، لشيئ من الموت نفسه وأسفاه لم يبق في ميسوري أن أقلب صفحات هذا الكتاب الغالي الذي أحببته، وعبثاً أتوقع أن تفسح لي الأيام مجال قراءته كله لقد قدر للكتاب أن يوصد فجأة، أبد الدهر، ولم أقرأ منه غير صفحة واحدة ولقد قدر للبحر أن يحجبه جليد أبدي، حين كان الضوء يتراقص على سطحه

ووقفت في غباوة على ساحله لقد مات صديقي وجاري، وحببي وشقيق روحي؛ وفي ذلك ترسيخ وتأيد للسر الذي كان منطو دائماً في تلك الشخصية، والذي سوف أحمله أنا في شخصيتي حتى تحين منيتي وهل بين مقابر هذه المدينة التي أمر بها راقداً أشد غموضاً من سرائر سكانها المنهمكين في أعمالهم، بالنسبة إلي، أو من سريرتي أنا بالنسبة إليهم؟.

ذلك إرث طبيعي لكل امرئ لا ينازعه فيه أحد وليس في ميسور أحد حرمانه منه وإنما يستوي في هذا الإرث الرسول الممتطي صهو الفرس، والملك، وكبير وزراء الدولة، وأغنى تاجر من تجار لندن والشيء نفسه يصح في أولئك المسافرين المنطوين على أنفسهم في إحدى عربات البريد العتيقة المتناقلة، الضيقة النطاق فقد كان كل منهم لغزاً بالنسبة إلى الآخر، لغزاً كاملاً وكأنه منفرد في مركبته الخاصة وسط أشخاص، أو في مركبته الخاصة وستين شخصاً، وبين المركبة والأخرى عرض مقاطعة برمتها وانقلب الرسول من حيث أتى، يعدو به جواده محدواً متمهلاً، أكثر من التعرّيج على الحانات القائمة بطريقه لكي يحتسي شيئاً من الشراب معتصماً دائماً بالكتمان، ممى قبعته فوق عينيه وكانت له عينان تنسجمان أحسن الانسجام مع تلك الحلية ذلك بأنهما كانت سوداوين باهتتين، يعوزهما العمق في اللون والشكل، وكانتا جد متقاربتين وكأنهما تخشيان أن يثير انفرادهما ريبة الناس، إذا ما تباعدت إحداهما عن الأخرى وكانت ترين عليهما انطباعة قاتمة تتجلى من تحت قبعة عتية ممالة إلى أمام وكأنها بصقة مثلثة الزوايا ، ومن فوق لثام عريض للذقن والحجرة يكاد ينحدر إلى ركبتي صاحبه.

وكان إذا وقف عند حان التماسا للشراب أزاح هذا اللثام ببسراه ريثما يفرغ الشراب في جوفه بيده اليمنى، ليس غير فما إن يتم له ذلك حتى يعيد اللثام إلى موضع كرة ثانية

قال الرسول وهو يفكر طوال الرحلة في أمر واحد: لا، يا جيري إلا هذا لن يناسبك البتة، يا جيري جيري، إنك تاجر أمين، وفيما هو عائد بتلك الرسالة التي تعين عليه أن يسلمها إلى الحارث الليلة في كوخه القائم عند باب مصرف تلسون، قرب تامبل بار ليسلمها الحارس بدوره إلى مسؤول في المصرف أعظم شأنًا، اتخذ ظلال الليل عنده صورة كالتى يمكن أن تثيرها رسالته، واتخذت مهره صورة التي يمكن أن يثيرها قلقها الشخصي ويبدو أن هذه الصور الأخيرة كانت متعددة، لأن المهر كانت تجفل كلما تراءى لها في الطريق ظل من الظلال وفي تلك الأثناء كانت مركبة البريد ما تزال تشق طريقها متناقلة مرتجة، مجلجلة، مرتطمة بالعقبات القائمة في سبيلها الوعر، وفي داخلها ركابها الثلاثة المنصرف كل منهم عن رفيقه، والذين تبدت لهم ظلال الليل كذلك، في الأشكال التي أوحى بها عيونهم الناعمة وأفكارهم التائهة وفي مركبة البريد كان الناس يهرعون إلى مصرف تلسون يلتمسو أموالهم قبل اعلان الافلاس ففيما كان الراكب التابع لذلك المصرف وكانت ذراعه مقحمة في السير الجلدي الذي كان يحول بينه وبين الارتطام بالمسافر المجاور ويعيده إلى زاويته كلما ارتجت العربة المركبة الصغيرة، ومصباح العربة يلمع التماع باهتة من خلالها، المسافر المقابل الضخمة، واستحالت إلى مشهد المصرف.

وقد قامت الحركة فيه على قدم وساق كان سهيل أعنة الخيل هو رنين الذهب ودفع المصرف في خمس دقائق عدداً من الحوالات لم يقدر حتى المصرف تلسون، رغم اتساع نطاق أعماله في الوطن والبلدان الأجنبية أن يدفع مثلها في ثلاثة أضعاف تلك الفترة ثم إن الغرف الحصينة الواقعة تحت الأرض، في مصرف تلسون، بما تنطوي عليه من خزائن ومخبات يعرفها ذلك المسافر (ولم يكن قليلاً ما يعرفه عنها) انفتحت مغاليقها في وجهه ، فراح يجوس خلالها ويبيده مفاتيحها الضخام والشمع الواهنة الضوء، فألفاها أمانة قوية، سليمة ساكنة كآخر عهده بها وعلى الرغم من أن المصرف لم يفارقه لحظة، تقريباً، وعلى الرغم من أن المركبة كانت إلى جانبه دائمة) على نحو مشوش مختلط أشد بالاحساس بالألم تحت وطأة المخدر.

ولكن أي من هذه الوجوه العديدة التي تراءت لعينيه كان وجه الدرج الدفين؟ ذلك ما لم تشر إليه ظلال الليل ولكنها كانت كلها وجوه رجال في الخامسة والأربعين ولقد اختلفت اختلافاً بيناً في الانفعالات التي عبرت عنها وفي مدى شحوبها واصفرارها وهكذا تعاقب أمام ناظر الكبير، والازدراء، والتحدي، والجموح، والاستسلام، والعويل، كما تعاقبت أشكال من الخدود الغائرة، والشحوب الموميائي، والأيدى والوجوه الهزيلة ولكن الوجه كان في الجملة وجهة واحدة، وكان كراسٍ مشتعلًا بالشيب قبل الأوان ومئة مرة، سأل الراكب الوسنان الشبح : كم سنة سلخت تحت التراب؟ منذ زمن بعيد هل تدري أنك بعثت؟ هذا ما يقولونه لي أرجو أن تكون راغباً في الحياة؟ أنا لا أستطيع أن أقطع في ذلك هل أريك إياها؟ هل لك أن تأتي وتراها؟.

كانت الأجوبة عن هذا السؤال متباينة متناقضة فحين كان الجواب الخافت : على رسلك إن رؤيتها عاجلاً قد تصر عني ويعقبه قوله: قدني إليها وحينما كان الجواب تحديقاً وذهولاً ثم قوله: أنا لا أعرفها أنا لا أفهم ما تقول

وبعد هذا الحديث الوهمي كان الراكب يحفر، في الخيال، ويحفر ويحفر بمسحاة حيناً، وبمفتاح كبير حيناً، وببيديه حيناً لينتشل ذلك المخلوق البائس من القبر حتى إذا انقذه، وقد علق التراب بوجهه وشعره، سقط على الأرض فجأة وعندئذ يجفل الراكب، وينزل زجاج النافذة حتى يستشعر حقيقة الضباب والمطر على خده وحتى حين فتحت عيناه على الضباب والمطر، وعلى رقعة الضر المتحركة المنبعثة من المصابيح، وعلى الحواجز المنصوبة على جانبي الطريق والتي بدت وكأنها تتراجع إلى الوراء بسبب سير المركبة كانت ظلال الليل خارج المركبة تندمج في قافلة ظلال الليل داخلها فإذا بالمصرف الحقيقي في تامل بار، وبالنشاط المالي الحقيقي وبالغرف الحصينة الحقيقية الواقعة تحت الأرض، وبالرسو الحقيقي الذي بعث إليه، وجوابه الحقيقي على رسالته إذا بهذه كل ماثلة هناك ومن وسطها، كان وجه الشبح يبرز أنا لا أستطيع أن أقطع في ذلك ويحفر، ويحفر حتى توقفه حركة متبرمة فيرفع زجاج النافذة، ويقحم ذراعه في السير الجلدي، ويتأمل رفيقه الراقدين، حتى يفقد عقله سيطرته، وينزلق ثانية إلى المصرف والقبر كم سنة سلخت تحت التراب؟ ثمانية عشر عاماً تقريباً هل فقدت كل رجاء في أن تنتشل من القبر؟ منذ زمن بعيد وكانت هذه الكلمات تضج في مسمعه وكأنها لفظت منذ لحظة كانت واضحة في مسمعه كأوضح ما ضج الكلام الملفوظ بأذنيه عمر كله

عندما فتح المسافر المجهد عينيه على ضوء الصباح، ليجد أن ظلال الليل قد ولت فراراً أنزل زجاج النافذة ورنّا إلى الشمس المشرقة كان ثمة هضبة من الأرض المحروثة، وعليها محراث لا يزال حيث ترك الليلة البارحة عندما ترفع النير عن الخيل ووراء ذلك كان دغل هادى ما تزال كثير من الأوراق الحمراء الملتهبة والصفراء الذهبية على أشجاره وعلى الرغم من أن التربة كانت باردة ندية، فقد كانت السماء صافية، والشمس رائعة جميلة وضاحة الجبين وقال المسافر وهو يرنو إلى الشمس: ثمانية عشر عاماً يا فاطرالنهار المنان كيف جاز أن يدفن الإنسان حياً ثمانية عشر عاماً ؟

٤

الاستعداد

وحين وفقت المركبة إلى أن تبلغ دوفر في صدر النهار، فتح كيا الخدم في فندق رويال جورج اوتيل باب المركبة كالعادة وقد فعل ذلك باحتفال مغالى فيه ذلك أن انتهاء مركبة البريد القادمة من لندن، إلى دوفر، في أيام الشتاء، يعتبر فوزاً يستحق المسافر المغامر التهنئة عليه ولم يكن قد بقي ، عندئذ، غير راكب واحد يتقبل التهانى بهذا ذلك أن المسافرين الآخرين كانوا قد بلغا مقصديهما في الطريق وكان قلب المركبة بعفيه وقيير الرطب القذر، وبرائحته الكريهة وظلمته أشبه شي بمرضى كبير من مرابض الكلاب وكان المستر لوري، الراكب الذي لم يبق في العربة غيره.

أشبه ما يكون وهو يخرج منها ، بمعطفه الكبير الذي يعلوه القش، وبقبعته المهلهلة، ورجليه الموحلتين بضرب الكلاب كبير هل ثمة مركب مسافر غدا إلى كاليه ، أيها النادل؟نعم يا سيدي إذا احتفظ الجو بصفائه، واسعفت الريح المد سوف يكون عونا للمركب حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، ؛ سيدي أتريد سريراً، يا سيدي؟

لن آوي إلى الفراش إلا بعد أن يهبط الليل ولكني أريد حجرة نوم وحلاق ثم طعام الصباح، يا سيدي؟ نعم، يا سيدي من هنا، سيدي، رجاء اذهبوا مع السيد إلى غرفة الكونكورد إحملوا حقيبة السيد وماء ساخنة إلى الكونكورد إنزعوا حذاء السيد في الكونكورد سوف تجد هناك نار فحم حجري ممتازة، يا سيدي ابحثوا عن الحلاق وابعثوا به إلى الكونكورد هيا، انطلقوا كلكم نحو الكونكورد وإذ كانت حجرة النوم الموسومة ب الكونكورد فرد دائماً لأحد المسافرين بمركبة البريد، وإذ كان المسافرون بمركبة البريد متدثرين دافئ من الرأس حتى القدم، فقد كان لهذه الغرفة ميزة غريبة في مؤسسة رويال جورج لأنه على الرغم من أن صنفاً واحداً من الرجال كان يشاهد داخلها؟ إليها، فقد كان يخرج منها مختلف ضروب الرجال وأصنافهم وهكذا فإن نادلاً آخر، وحمالين اثنين، وعدداً من الخادمت وربة الفندق كانوا يضيعون أوقاتهم سدى في نقاط مختلفة من الطريق بغرفة الكونكورد وحجرة الطعام حين أجتاز تلك الطريق لتتناول الفطور رجل في الستين يرتدي بزة رسمية ممعنة في العتق ولكنها حسنة ذات ردينين عريضين مربعين وأهداب للجيوب واسعة وفي حجرة الطعام لم يكن أحد، ذلك الصباح، غير ذلك الرجل ذو البزة السوداء

وكانت مائدة فطور قد وضعت غير بعيد عن النار حتى أجلس إليها ، وضوء النار يسطع على وجهه ، جلس في سكون بالغ فكأنه في حضرة فنان يرسم صورته على القماش كان يبدو نظامية بالغ الأناقة وقد بسط يده على كل من ركبتيه وأنشأت ساعة جهورية الصوت تلقي خطبة مرنانة تحت صدرته وكأنما تزهو ، بوقارها وطول عمرها، على النار الرشيقة بطيشها وسرعة زوالها وكانت له ساق ممشوقة يعتز بها بعض الشيء، ويرتدي جوربا داكنا عدا حكم التفصيل جيد النسج وكان حذاؤه وراه، برغم بساطتهما التي كانت تلك اللمة المستعارة مصنوعة كما هو مفروض، من الشعر، ولكن بدت أقرب شيء إلى أن تكون منسوجة من خيوط الحرير أو الزجاج وكانت ثيابه التحتية، وإن لم تكن من جودة النسيج بمحل يضاه جوربه، ناصعة البياض كمثل رؤوس الأمواج التي تكسرت على الشاطئ المجاور، أو كمثل الأشعة الضئيلة التي تومض في وجه الشمس، هناك في عرض البحر وكان وجهه الهادئ المكظوم لا يزال يشرق تحت اللمة المستعارة الأنيقة بعينين براقنتين نديتين لاشك في أنهما كلفتا صاحبهما، في السنين الخوالي، جهداً كبيراً حتى راضهما المطمئن المتحفظ الخليق بالعاملين في مصرف تلسون وكان لون خده ينضح بالعافية، وما كان وجهه ليحمل، برغم أخاديه ، غير قليل من أمارات الهم والقلق ولعل مرد ذلك إلى أن موظفي مصرف تلسو الموثوقين غير المتزوجين كانوا يعنون بهموم الناس ومشكلاتهم في المحل الأول أولعل الهموم المستعملة، كالثياب المستعملة، يسعه ارتداؤها ونزعها في آن معا وكأن مستر لوري شاء أن يتم الشبه الذي بينه وبين رجل جالس في حضرة فنان يرسم له صورة ، فاستسلم للرقاد حتى إذا أقبل فطوره أنت من بينته

وقال للنادل فيما هو يقرب كرسيه إلى المائدة : أريد أن تهئ غرفة لسيدة شابة قد تقبل اليوم إلى هنا في أي لحظة إنها قد تسأل عن مستر جارفيس أوري، وقد تسأل عن رجل من رجال مصرف تلسون فأرجوا أن تحيطوني علماً بقدمها في الحال نعم، يا سيدي، مصرف تلسون في لندن، يا سيدي؟ أجل نعم يا سيدي كثيراً ما نحظى بشرف استقبال رجالكم في ذهابهم وإيابهم ما بين لندن وباريس، يا سيدي إن رجال مصرف تلسون كثير نعم يا سيدي ولكنك لم تتعود الاكثار من السفر ، على ما أظن يا سيدي إن كلامك هذا يصح بالنسبة إلى السنوات الأخيرة فلقد انقض خمسة عشر عاماً على مجيئنا أريد أن أقول على مجيئي آخر مرة إلى فرنسا

-حقاً، يا سيدي؟ لقد كان ذلك قبل أن أبدأ عملي هنا يا سيدي قبل عهد جماعتنا بهذا الفندق، يا سيدي لقد كان رويال جورج آنذاك في أيدي قوم آخرين، يا سيدي أحسب ذلك ولكني أراهن بمبلغ عظيم، يا سيدي، على أن مؤسسة مثل مؤسسة تلسون كانت مزدهرة منذ خمسين سنة ، لا منذ خمس عشرة سنة فقط؟

-في إمكانك أن تثبت هذا الرقم فتقول منذ مئة وخمسين سنة ثم تبتعد كثيراً عن الحقيقة حقاً، يا سيدي وهنا دور النادل فمه وكلتا عينيه، وارتد مبتعداً عن المائدة ثم نقل منديلته من ذراعه اليمنى إلى ذراعه اليسرى، وأستسلم لوضع مريح وأنشأ يراقب الضيف فيما هو يأكل ويشرب وكأنما يراقبه من مرصد أو برج للحراسة، وفقاً للعادة الخالدة في جميع العصور حتى إذا فرغ مستر لوري من تناول فطوره مضى إلى الشاطي يتمشي

وكانت بلدة دوفر الصغيرة الضيقة المتعرجة الطرق خفي نفسي عن الشاطئ وقم رأسها في الصخور الطباشيرية الشاهقة، مثل نعامه بحرية وكان الشاطئ صحراء تملؤها روابي الماء والحجارة المتدحرجة الشديدة الانحدار، ويذل الساحل في جنون وكانت ريح السمك تملأ الهواء الطائف بالبيوت قوية حادة حتى ليخيل إلى المرء أن الأسماك المريضة ترتفع لتغتسل فيه كما يهبط المرضى من الناس للاغتسال في البحر ولئن لم تكن حركة الصيد ناشط في ذلك المرفأ ، لقد كان كثير من الناس يحبون أن يتمشوا هناك حين يهبط الليل، ويتطلعوا إلى البحر خاصة في حال المد واقتراب الفيضان وكان التجار الصغار، الذي لا يقومون بأي نشاط البتة، يجمعون في بعض الأحيان ثروات ضخمة لا سبيل إلى تحليلها ومما يلفت النظر أنه لم يكن في ذلك الجو شخص واحد يطبق رؤية مشيل المصابيح وفيما انحدر النهار نحو الأصيل، وأخذ الضباب والبخار يثقلان الهواء الذي كان من الرقة في بعض الفترات بحيث يشفت عن الساحل الفرنسي، شرعت أفكار مستر لوري تغيم هي الأخرى وتكفهر حتى هبطت العتمة وجلس هو إلى جانب نار حجرة الطعام، منتظر عشاءه كما انتظر من قبل فطوره، طفق ذهنه يحفر ويحفر ويحفر وسط الجمرات الحمر المتقدة ليس في زجاجة من خمر كلاريت ما يؤذي رجلاً يحفر وسم الجمرات الحمر، خلا إنها تنزع إلى أن تصرفه عن ذلك العمل وكما مستر لوري قد استسلم فترة طويلة للبطالة، وملاً منذ لحظة آخر كؤوس بالخمير فبدأ الارتياح على محياه كأحسن ما يتجلى على محيا رجل متقد السن ذي بشرة ناضرة، انتهى إلى أواخر زجاجته، عندما صعد في الشارع الضيق صرير عجلات

وأنشأ يدمدم في فناء الفندق ترك الكأس طافحة لم تمسها شفتاه، وقال: تلك هي الأنسة وبعد دقائق معدودات أقبل النادل ليعلن أن الأنسة مانيت قد وصلت من لندن، وأنها تكون سعيدة بأن ترى موفد مصرف تلسون كانت تائقة أشد التوق إلى أن تجتمع بموفد مصرف تلسون في الحال إذا كان ذلك يحلو له.

وهكذا لم يكن لموفد مصرف تلسون مندوحة عن أن يكرع كأس وعلى محياه انطباع من القنوط المتلبد ويسوي لمتة المستعارة الصفراء الصغيرة عند أذنيه، ويتبع النادل إلى حجرة مس مانيت كانت غرفة واسعة مظلمة، مفروشة على نحو حدادي استعمل فيه شعر الخيل الأسود، ومثقلة بالطاولات الضخمة الداكنة وقد أشربت هذه الطاولات بالزيت إشراقة مشبعة حتى لقد انعكست صورة الشمعتين الطويلتين المنتصبتين فوق المائدة التي تتوسط الغرفة على كل ورقة من أوراقها كأنهما الشمعتين قد دفنتا في قبرين عميقين من خشب الماهوجني الأسود، فليس يتوقع منهما أن يطلقا ضوءاً يستحق الذكر ما لم تبعثا ما ذينك القبرين وكانت الظلمة كثيفة يعسر اجتيازها حتى أن مستر لوري الذي راح يتلمس سبيله على السجادة التركية البالية حسب أن مس مانيت تنتظره في إحدى الغرف المجاورة حتى إذا اجتاز الشمعتين الطويلتين رأى في استقباله عند المائدة الفاصلة بينهما وبين النار فتاة لا تعدو سنه السابعة عشرة، ترتدي ثوب السفر وتمسك بقبعة الترحال القشية والعصابة المحيطة بها وحين استقرت عيناه على صورة قصيرة نحيلة جميلة، وعلى مقدار من الشعر الذهبي، وعينين زرقاوين لاقتا عينيه بنظر مستطلعة، وجبين يتمتع، رغم نعومته ونضارته البالغتين، بقدرة عجيبة على الارتفاع والتقطيب ليعبر عن معنى ليس هو الحيرة تماماً.

وليس الدهشة أو الذعر أو مجرد الانتباه لمركز النير، وإن انطوى على المعانى الأربعة جميعاً، حين استقرت عيناه على هذه الأشياء كلها طاف في ذهنه، على التو، شبه حى بين هذه الفتاة وطفلة سبق له أن حملها يزول النفس فوق سطح مرآة كبيرة شاحبة كانت قائمة خلفها، وقد رسم على إطارها موكب من الآلهة الزوج، وبعضهم بلا رؤوس وكلهم زنج يقدمون سلالاً سوداء ملأى بتفاح سدوم وانحنى مستر لوري انحناء رسمية للآنسة مانيت أرجوك أن تجلس، يا سيدى قالت مانيت ذلك في صورة بالغة الصفاء، بصوت عذب غرض، فيه لكنة أجنبية صغيرة، ولكنها صغيرة حقاً فقال مستر لوري، وفقاً لمألوف العادة في عهد سابق، فيما هو ينحني انحناء رسمية أخرى ويجلس: إني أقبل يدك، أيتها الآنسة لقد تلقي، أمس، رسالة من المصرف، يا سيدى، علمني بنبأ ما أو اكتشاف ما الكلمة ليست شيئاً جوهرياً، أيتها الآنسة كلتا الكلمتين تؤد المراد يتعلق بأموال والدي الصغيرة والدي المسكين الذي لم أره قط والذي توفي منذ عهد بعيد وتململ مستر لوري في كرسيه، وألقي نظرة مهمومة على موكب الآلهة الزوج، لكأنما كانت لديهم في سلالهم المضحكة قدرة على مساعدة أحد؟ مما يوجب ذهابي إلى باريس، للاتصال برجل من رجال المصرف تجشم عناء السفر إلى باريس لهذا الغرض أنا ذلك الرجل كما هيئت لأن أسمع، يا سيدى وانحنى له فقد كانت الاوانس ينحنين احتراماً في تلك الأيام راغب رغبة قوية في أن تبلغه أنها تستشعر مبلغ تقدمه عليها سناً وحكمة وانحنى هو لها انحناء أخرى لقد أجبت المصرف، يا سيدى، بأنه لما كان العارفون الذي تطفوا فوجهوا إلى النصح، قد رأوا من الضروري أن أسافر إلى باريس.

ولما كنت يتيمة لا صديق لي يستطيع مرافقتي فأني أكون جد شاكراً إذا سمح لي بأن أضع نفسي، طوال الرحلة، في رعاية ذلك الرجل الفاضل وكان الرجل قد غادر لندن، ولكنني أظن أن رسولا قد وجه إليه يلتبس منه أن يفضل فينتظرني هنا فقال مستر لوري: لقد كنت سعيداً بأن يعهد إلي بهذه المهمة ولسوف أكون أكثر سعادة بأن أقوم بها سيدي، إني أشكرك حقاً إني أشكرك معترفة بجميلك كثيراً ولقد قيل لي في المصرف إن الرجل سوف يشرح لي تفاصيل المسألة وإن علي أن أعد نفسي لأن أجدها بالغة الغرابة ولقد بذلت غاية الجهد لإعداد نفسي، وطبيعي أن يعصف بي شوق متلهف لمعرفة كل التفاصيل فقال مستر لوري طبعاً أجل أنا وبعد فترة، أضاف مركزاً لمتة الجعدة الصفراء عند أذنيه كرة أخرى من العسير علي جداً أن أبدأ ولم يبدأ، ولكن نظراته التقت، في غمرة من تردده، نظرات الفتاة ورفع الجبين الغض نفسه إلى ذلك الوضع ذي التعبير الغريب ولكنه كان إلى غرابته مليحاً نموذجياً ورفعت هي يدها وكأنها تحاول بحركة إرادية أن تصد عنها نظرة عابرة أو تمسك به هل أنت غريب عني تماماً، يا سيدي؟ ففتح مستر لوري يديه وبسطهما في ابتسامة برهانية، قائلاً: أرسم من الدقة واللفظ، عمق ذلك التعبير نفسه فيما جلست الفتاة، شاردة الذهن، على الكرسي الذي ظلت حتى تلك اللحظة واقفة بجانبه وراقبها فيما هي تفكر، حتى إذا رفعت عينيها كرة أخرى تابع كلامه.

في وطنك الثاني، في ما أظن، يكون من الخير أن أخاطبك بوصفك سيدة إنجليزية صغيرة، مستعملاً؟ لفظ مس يا آنسة مانيت؟ إذا شئت، يا سيدي أنا رجل أعمال، يا مس مانيت ولقد عهد إلي بأن أقوم بمهمة تتصل بالعمل

وفيما أنت تستمعين إلى كلامي أرجو أن تفترضى أنني آلة ناطقة وأنا في الحق لست شيئاً أكثر من ذلك ولسوف أقص عليك، إذا أذنت، أيتها الأنسة، حكاية أحد عملائنا حكاية وبدا وكأنما أخطأ، متعمداً، فهم الكلمة التي كررتها، حين أضاف مسرعاً أجل، عملائنا فنحن في الصناعة المصرفية نطلق لفظ العملاء على زبائننا لقد كان رجلاً فرنسياً فاضلاً، رجلاً من رجال العلم، ذا مزايا عظيمة كان طبيباً ولكنه ليس من بلدة بوفيه؟ بلى، كان من بلدة بوفيه مثل مسيو مانيت، أبيك، كان ذلك الرجل الفاضل من بوفيه ومثل مسيو مانيت، أبيك، كان ذلك الرجل الفاضل ذا شهرة في باريس ولقد كان لي شرف التعرف إليه هناك كانت العلاقات بيننا علاقات عمل، ولكنها كانت تتسم بالسر والكتمان وكنت في ذلك الوقت في فرع المؤسسة الفرنسي، وكنت أوه، عشرون عاماً إنجليزياً وكنت أنا أحد الأمناء وكانت أعماله المالية، شأن أعمال كثير من الرجال الفرنسيين والأسر الفرنسية، منوطة كلها بمصرف تلسون وعلى هذا النحو كنت ولا أزال، وبطريقة من الطرق، لكثير من عملائنا تلك صلات تجارية خالصة لا تنطوي على شيء من الصداقة أو الشوق، أو شيء يشبه العاطفة ولقد انتقل خلال حياتي العملية من واحد من تلك الأعمال التجارية إلى آخر كممثل انتقالي خلال نشاطي اليومي في المصرف من واحد من الزبائن إلى آخر وعلى الجملة فإنه رجل بلا عواطف أنا مجرد آلة وعلى أية حال، فلأتابع حديثي ولكن هذه حكاية أبي، يا سيدي ولقد بدأت أذكر عليه الجبين المخشوشن على نحو غريب تسميراً وثيقاً إنني حياً جودر يتيمة بعد أن عاشت أمي سنتين ليس غير انقضت على وفاة أبي كنت الذي حملتني إلى إنجلترا أكاد أجزم أنك أنت التي حملتني إلى هناك.

وأمسك مستر لوري باليد الصغيرة المرتعشة التي تقدمت في ثقة للامسك بيده، ووضعها في شيء من الاحتفال على شفثيه ثم إنه أعاد السيدة الصغيرة، على التو، إلى كرسيها، ممسكاً ظهر الكرسي بيسر مستعملاً يمناه على التعاقب في حك ذقنه، وتسوية لمتة المستعاره عند أذنيه، أو تحديد ما قاله ، خافض بصره إلى وجهها فيما كانت تجلس رافعه بصرها نحوه.

لقد كنت أنا ذلك الرجل، يا مس مانيت ولسوف تجدين الصدق الذي ينطوي عليه الكلام الذي وصفت به نفسي اللحظة إذ قلت إنني رجل بلا عواطف وإن جميع صلاتي مع أبناء جلدتي لا تعدو أن تكون صلات عمل، حين تذكرين أنني لم أرك منذ ذلك الحين، وكنت أنا مشغولاً ببعض أعمال المصرف الأخرى عواطف ليس عندي متسع من الوقت وبعد هذا الوصف الغريب لنمط عمله اليومي سوى مستر لور لمتة المستعاره فوق رأسه، مستعملاً كلتا يديه في ذلك وهو شيء لم يكن ضرورياً البتة لأن شيئاً ما كان يمكن أن يكون أكثر استواء من سطحها اللامع واستأنف وضعه السابق.

هذه هي حتى الآن كما لاحظتني، أيتها الأنسة، حكاية أبي المأسوف عليه وهنا ننتهي إلى الفارق فإذا كان أبوك لم يمت حي لا ترتعبي أراك تجفلين لقد أجفلت حقاً وتعلقت بمعصمه بكلتا يديها اتوسل إليك قال مستر لوري ذلك بنبرة مطمئنة رافعاً يده اليسرى على ظهر الكرسي ليضعها على الأصابع المتضرعة التي تشبثت في ارتعاش عاصف ثم أردف: أتوسل إليك أن تضبطي أعصابك إنها مسألة عمل وكما كنت أقول وأربكته نظرتها حتى لقد كفت عن الكلام، وأخذته الحيرة، ثم استأنف الحديث

كما كنت أقول؛ إذا كان مسيو مانيت لم يمت ؛ إذا كان قد اختفى فجاء وفي صمت؛ إذا كان قد اختطف اختطافاً ، إذا كان من غير العسير أن نحزر إلى أي مكان مروع اختطف، على الرغم من أنه لم يكن ثم سبيل إلى اقتفاء أثره؛ إذا كان موضع نقمة عدو له من أولئك المواطنين الذين يتمتعون بامتياز، كان أجراً الناس في عهدي أنا يخشون أن يتحدث عنه همسة، هناك وراء البحر؛ ولنفرض أنه الامتياز الذي يخول صاح أن يملأ أوراقه بيضاء يزج بواسطتها رجل في غيابة السجن طوا مدة تنص عليها الورقة، إذا كانت امرأته توسلت إلى الملك أو الملكة أو البلاط أو الاكليروس أن يسفوها بأي نبأ عنه، ولكن عله من غير طائل عندئذ تكون حكاية أبي هي حكاية هذا الرجل البائس أعني طبيب بوفيه أتوسل إليك أن تزيدني علماً، يا سيدي سوف أفعل أنا بسبيلي إلى ذلك هل تطيقين السماع؟ في استطاعتي أن أطيق كل شيء ما خلا الشك الذي تتركني وسط دياجيره، في هذه اللحظة أنت تتحدثين في رباطة جأش، وإنك لرابطة الجأش حقاً هم حسن.

إنها مسألة عمل لا تبتئسي أيتها الأنسة إذا كانت السيدة التسعة قد قاست ذلك البلاء كله قبل أن يرى وليده النور حتى لقد وطنت النفس على أن تجنب الطفلة المسكينة وراثته أي جزء من تلك الآلام المبرحة التي عانتها بأن ادخلت في روعها أن أباه قد توفي لا، لا تركعي استحلف بالله أن لا تركعي لي أنا أركع للحقيقة أوه، أيها السيد العزيز الطيب العطوف، أركع للحقيقة إنها مسألة عمل إنك تربكيني، وكيف أوفق إلى إنجاح هذا العمل إذا اعتراني الارتباك؟ فليس كل منا يمكنه تصفية ذهنه واستعطت أن تتلطفني وتخبريني ما تسعة أضعاف التسعة بنسات، مثلاً، ومن غير أن تجيبه عن هذه الرغبة إجابة مباشرة جلست في سكون بالغ

حين رفعها في كثير من اللطف، وغدت اليدان اللتان ما انفك متشبثتين بمعصمه أقل ارتعاشاً من ذي قبل، حتى لقد أعادت إلى نفس مستر جارفيس لوري شيئاً من الثقة هذا صحيح هذا صحيح شجاعة عمل إن أمامه عملاً مفيداً أيتها الأنسة مانيت، لقد سلكت أُملي هذا السبيل معك وحين توفيت منكسرة الفؤاد في ما أعتقد من غير أن تفتقر همتها لحظة عن البحث غير المجدي عن أبيك، غادر ، وليس لك من العمر إلا سنتان، لتتنشئ في مطار الغضارة والجمال والسعادة، من غير أن تعكر صفو حياتك سحابة سوداء من الشك في أمر أبيك : أقضى نحبه عاجلاً في السجن أم بقي هناك خلال سنوات عدة متطاوله وفيما كان ينطق بهذه الكلمات خفض بصره، في إشفاق يمازج الإعجاب، نحو الشعر الذهبي المرسل لكأنما تصور أن ذلك الشعر كان خليق بأن يشتعل شبيهة لو أن الفتاة عرفت قبل اليوم بالذي صار لوالدها أنت تعلمين أن أبويك لم تكن لهما ممتلكات ذات شأن، وأن مامتلكاه قد حفظ لك ولأُمك ونحن لم نقع على كشف جديد، سواء من حيث المال أو أى ضرب آخر من الملك ، ولكن وأحس بالفتاة تتشبث بمعصمه تشبثاً أكثر إحكاماً، فسكت عن الكلام وكان التعبير المرتسم على جبينها، والذي لفت نظره من قبل على نحو خاص، والذي غدا الآن جامداً لا حراك به ، قد استحال عمي يتميز من الألم والذعر ولكنه قد وجد إنه حي يرزق لعله قد تغير تغيراً كبيراً، فهذا متوقع جداً ولعله قد أمسى محطماً ، أو يكاد، ولسوف نذهب إلى هناك : أنا، لكي احققه وأثبت هويته إذا استطعت وأنتي، لكي تعيديه إلى الحياة، والحب، والواجب، والراحة، والرفه وسرت في أوصالها رعه ما لبثت أن سرت في أوصاله هو وفي صوت خفيض، واضح، مدعور

قالت وكأنما تتحدث في حلم سأذهب لأرى طيفه سوف يكون ما أراه طيفه لا هو وفي رفق، ذلك المستر لوري اليدين المتشبثتين بذراعه وقال كفى، كفى، كفى أنظري الآن أنظري الآن أصبحت تعرفين الآن أحسن ما في المسألة وأسوأ ما في المسألة وإنك لفي الطريق إلى لقاء الرجل البائس المظلوم وما هي إلا رحلة بحرية جميلة، ورحلة بر جميلة حتى تصبحي، وشيكاً، إلى جانبه وكررت بنبرة كالهمس: لقد كنت حرة، وكنت سعيدة، ومع ذلك فإن طيفه لم يلم بي قط بقيت مسألة واحدة ليس غير، قال مستر لوري ذلك في تأكيد ابتغاء الاستحواذ على انتباهها، وأردف: هي أنه وجد وهو يحمل اسم آخر، بعد أن نسي اسمه الحقيقي منذ عهد طويل، أو أخفي منذ عهد طويل ومن العبث الذي لا طائل تحته أن نحاول معرفة ما إذا كان قد عفي عنه منذ سنوات، أم أكره عمداً على البقاء رهن السجن طوال هذه الفترة ومن العبث الذي لا طائل تحته الآن أن نحاول تحري هذه المسألة لأن ذلك خليك بأن يعرضنا للخطر ومن الخير لنا أن لا ننثير هذا الموضوع في أي مكان وعلى أي وجه، وأن ننقله مؤقتاً على كل حال إلى خارج فرنسا، وحتى أنا، برغم ما أستشعره من الأمن بوصفي رجلاً إنجليزياً، وحتى مصرف تلسون، برغم ما يتمتع به من شأن في حي فرنسا المالي، نجتنب أي إشارة إلى هذه المسألة فلست أحمل معي في حقائبي أية قصاصة من الورق تشير إلى ذلك في وضوح هذه خدمة الميت، التي قد لا تفيد شيئاً ولكن ما الذي جرى إنها لا تسمع كلام مس مائيت وفي سكون وصمت كاملين، ومن غير أن تتقلب إلى ظهر كرسيها جلست تحت يده فاقدة الرشد بالكلية كانت عيناها مفتوحتين مركزة عليه.

وكان ذلك التعبير الأخير يبدو وكأنه قد حُفر على جبينها أو كأن جبينها قد رسم به وسمّاً وكانت تقبض على ذراعه في كثير من الأحكام حتى لقد حاذر أن ينأى بنفسه عنها مخافة أن يؤذيها ذلك من أجله

التمس النجدة في صوت عال وهو واقف في مكانه لا يريم وهرعت إلى الغرفة، على رأس خدم الفندق، امرأة غلبت سيد الهمجية على وجهها واستطاع مستر لوري حتى وهو في غمرة اضطرابه ، أن يلاحظ أنها حمراء كلها، وأن شعرها أحمر، وأن ثيابها وفضلت على زي غريب ضيق محكم، وأن على رأسها قبعة عجبية أشبه ما تكون بمكيال خشبي أو قرص كبير من جبن ستيلون وما هم إلا لحظة حتى سوت هذه المرأة مسألة ابتعاده عن السيدة الصغيرة البائسة بأن وضعت يدا غليظة على صدره وقذفت به إلى وراء ليرتطم بأقرب جدار لا شك عندي في أن هذه اليد يد رجل، كذلك ففكر مستر لوري، وهو يلهث، حالما ارتطم جسده بالجدار وصرخت تلك المرأة موجهة الخطاب إلى خدم الفندق :ولكن أنظروا إلى أنفسكم جميعاً لماذا لا تذهبون وتحضرون الأشياء، بدلاً من أن تقفوا هناك محدقين إلى؟ أنا لست بهية الطلعة يفتن جمالها الناظرين، هل أنا كذلك؟ لماذا لا تذهبون وتحضرون الأشياء؟ سوف أريكم إذا لم تجلبوا الأملاح المنبهة، والماء البارد، والخل عجلوا سوف أريكم كثير من البراعة واللفظ منادية إياها : يا نفيستي ويا عصفورتي ناشرة شعرها الذهبي فوق منكبيها في كثير من الاعتزاز والعناية والتفتت إلى مستر لوري وقالت في حنق : وأنت يا ذا الثور الأسمر أما كان في إمكانك أن تخبرها ما ينبغي أن تخبرها إياه من غير أن تروعاها حتى الموت؟

أنظر إليها، وإلى وجهها الجميل الشاحب ويديها الباردتين هل تجد ذلك لائقاً برجل مصرفي ؟ واستبد القلق بمستتر لوري لدى سماعه هذا السؤال الذي تعسر الإجابة عنه فلم يعد في ميسوره أن يفعل شيئاً أكثر من النظر إلى الفتاة من بعيد، في استكانة ومشاركة وجدانية أشد وهنا، بينا وفقت المرأة القوية بعد أن طردت خدم الفندق بتهديدهم بتلك العقوبة الغريبة التي تجعلهم يعرفون شيئاً لم تذكره إذا ظلوا واقفين هناك يحدقون إلى أن تعود الفتاة إلى صوابها شيئاً بعد شيء، وأخذت تغريها بأن تلقي رأس المطأطي، على كتفها وقال مستتر لوري: أرجو أن تستعيد نشاطها الآن إذا فعلت فلن يكون الفضل لك في ذلك يا حلوتي الحبيبة وقال مستتر لوري بعد فترة أخرى من الاستكانة والمشاركة الوجدانية : لعلك سترافقين مس نايت إلى فرنسا؟ فأجابت المرأة القوية : هذا جائز، إذا ما قدر لي يوماً أن أعبّر الماء الأجاج هل تظن أن العناية الإلهية قد ألقت قرعتي في جزيرة؟ وإذا كان هذا سؤالاً آخر تعسر الإجابة عنه فقد انسحب مستتر لوري من الغرفة للتفكير فيه.

- ٥ -

الحانة

كان دن ضخّم من دنان الخمر قد سقط في الشارع وتحطم وكان الحادث قد وقع فيما كان الدن ينقل من إحدى العربات وتدحرج الدن بعد أن تقطعت أطواقه ، فانطرح على الحجارة، عند باب الحانة، وتناثر حطامه مثل قشرة الجوز وكان كل من في تلك الناحية قد ترك عمله ، أو بطالته.

وهرع إلى ذلك المكان ليحتسي الخمر كانت حجارة الشارع الخشنة غير المستوية، الناتئة في كل اتجاه والمعدة خصيصة، كما قد يخيّل إلى المرء، لكي تصيب بالعرج كل من يقترب منها، قد احتبست الخمر المراقبة في برك صغيرة وكان قد تحلق حول كل من هذه البرك حشد من الناس يتفاوت قلة وكثرة تبعاً لحجم البركة كان بعض الواردين قد جثى على ركبهم متخذين من أكفهم المضمومة مغارف لهم، فهم يرتشفون يحاولون أن يساعدوا طائفة من النساء فوق أكتافهم على الارتشاف قبل أن تتسرب الخمر من بين أصابعهم وآخرون من الرجا والنساء أمالوا في تلك البرك أكوازاً صغيرة من حطام الخزف، أو غمسوا فيها مناديل كانت على رؤوس النساء ليعصروها حتى الجفاف في أفواه الأطفال وآخرون أنشأوا سدوداً طينية صغيرة لكي يصدوا الخمر الجار عن سبيلها وآخرون كان المطلون من النوافذ العالية يرشدونهم إلى مواضع الخمر فيثبون ههنا وههناك ويعترضون شبل جداول الخم الصغيرة التي انطلقت في وجهات جديدة وآخرون قصرّوا نشاطهم على فلق الدن المشربة، المصبغة بالثملات فهم يلعبون بل يلوكون تلك الفا في ابتهاج ولهفة ولم يكن ثمة مصارف تذهب بالخمر، ومن هنا ليرتشف القوم كل قطرة من قطراتها فحسب بل لقد التهموا إلى جانبها كثيرة من الطين، حتى ليخيّل إلى المرء أن كناساً قد مر بالشارع، لو أ في مقدور أيما رجل ممن ألفوا ذلك الحي أن يؤمن بتلك المعجزة وضجت في جنبات الشارع، طوال ذلك الصيد الخمري أصوات محبورة طربة أصوات رجال، ونساء وأطفال لقد كان في تلك اللعبة قليل من العنف، وكثير من المرح وكانت زخرة بالمودة، وبميل ملحوظ إلى أن ينعطف كل امرئ إلى رفي يصطفيه

مما أدى عند أوفر القوم حظ أو أشدهم وطرباً إلى كثير من العناق البهيج، وشرب الأنخاب، والمصافحة، بل إلى تشابكد الأيدي والرقص الجماعي الذي تنتظم كل حلقة من حلقاته اثني عشر شخصا حتى إذا نفذ النبيذ، واستنزفت الأصابع تلك المواطن التي حفلت به فهي بعد أشبه ما تكون بالمشواة المشبكة، خمدت تلد المظاهرة فجأة، كما نشأت وهكذا انقلب الرجل، الذي غادر منشار عالقاً في ما كان يقطعه من الحطب، إلى مكانه فأعمل تلك الآلة من جديد وانقلبت المرأة التي غادرت عند عتبة بابها وعاء تحيط به جمرات خامدة كانت تحاول أن تخفف بحرارتها حدة الألم في أصابع يديها وأرجلها المقرورة، أو في أصابع طفلها انقلبت إلى وعائها ذاك وتحرك الرجال ذوو الأذرع العارية، والشعر الحصيري المتلبد، والوجوه الشاحبة كمثل وجوه الموتى، وهبطوا إلى سراديبهم المظلمة بعد أن انبتقوا منها إلى ضوء الشتاء واجتمعت الظلمة على ذلك المكان وقد بدت أشبه به من أشعة الشمس وأليق دفاع كذلك، كثيراً من الأيدي، وكثيراً من الوجوه، وكثيراً من الأقدام الحافية، وكثيراً من الأحذية الخشبية وخلفت يدا الرجل الذي نشر الحطب أثراً حمراء على الجنوع الضخمة اليابسة واصطبغ جبين المرأة المرضع طفلها بصبغ الخرقة البالية التي عقدتها حول رأسها كرة أخرى وكان أولئك الذين التهموا حطام الدن في نهم قد أحاطت بأفواههم لطخات ضارية متعطشة إلى الدم وتقدم مجان فارغ الطول ملط تلطيخة شديدة، يعتمر كيساً طويلاً وسخاً، يفترض أنه قلنسوة بيتية، يظهر من رأسه أكثر مما يخفي، فخربرش على أحد الجدران بأصبعه المغموره برواسب الخمر الموحلة هذه الكلمة : دماء

كان لا بد أن يأتي ذلك الوقت الذي تراق فيه تلك الخمرة أيضاً فوق حجارة الشوارع، والذي ستخضب فيه كثيراً من القوم هناك بلون الأحمر أيضاً والآن وقد خيمت سحابة الكآبة على سان انطوان، بعد أن اخرج ذلك الشعاع المؤقت عن سمته المقدس، اشتدت وطأة الظلمة عليه وكان البرد، والقذارة، والمرض، والجهل، والفاقة أساقفة يعملون في خدمة ذلك القديس، وكلهم ذو سلطان عريض، ولكن آخرهم كان أشدهم بأساً وأرفعهم لواء ففي ذلك الحين كانت تقع عين المرء على نماذج من الناس الذين دارت عليهم رحي الطاحون مرة ومرة ومرة دوراً رهيباً ولست أعني من غير ريب تلك الطاحون الأسطورية التي تحي الشيوخ شباناً نماذج ترتجف عند كل زاوية، وتروح وتجيء لدى كل باب، وتطل من كل نافذة، وتضطرب مهتاجة في كل ثوب تذروه الرياح كانت الطاحون التي دارت رحاها عليهم هي تلك التي تجعل الولدان شبيهاً، فإذا بوجوه الأطفال عتيقة بالية، وبأصواتهم كنيبة وقورة، وإذا بها علامة الجوع بادية على وجوه الصغار والكبار فهي غرس في كل ثل من أثلام العمر وتنمو من جديد وإذا بها سائدة في كل مكان كان الجوع يطل برأسه من البيوت العالية، في تلك الملابس الحقيبة المنشورة على الأعمدة والحبال وكان الجوع يتمثل هناك في القش، والخرق والخشب، والورق الجوع يتكرر في كل فلذة من الحطب الذي كان ينشره الرجل ويطل محدقاً من المداخل التي لا ترسل دخان، وينبثق من الشارع القذر الذي لم يكن بين قاذوراته فضلات طعام كان الجوع هو الشعار المنقوش على ألواح الخبز، والمطبوع على كل رغيف صغير من أرغفته القليلة المصنوعة من الدقيق الرديء.

الشعا الذي تلقاه في محلات صنع النقانق على كل قطعة من ذلك الغذاء المصنع من لحوم الكلاب الميتة، والمعروض للبيع كانت عظام الجوع الجارى تقعقع بين حبات الكستناء المشوية في الأسطوانة الدائرة وفي كل قصعه من قصاع البطاطس الرديئة التي تباع بفلس واحد، والتي قليت بقطرار أبية من زيت ما، كان الجوع يتناثر ذرات دقيقة ما تكاد ترى وكان مستقر ذلك الجوع ملائمة من جميع الوجوه كان زقاق ضياء متعرجاً حافلاً بالعثرات والروائح القذرة، تنتشعب منه أزقة أخرى ضيقة متعرجة، أهلة كلها بالأسمال البالية وقلانس النوم، وتفوح منها كلها رائحة الأسمال البالية وقلانس النوم، ومختلف الأشياء المنظورة التي تعلو صفحاتها انطباعات متفكرة مريضة كانت تبدو على وجوه القوم سيما المطارد المذعور، ومع ذلك فقد كانت لا تزال تعصف بها فكرة ضاربة : أن ترتد على مطارديها ذات يوم وكانت أمارات الهوان والهزال غالب عليهم حقاً، ولكن الأعين التي تقدح شرراً ما كانت لتعوزهم كانت لتعوزهم، كذلك، لا الشفاه المطبقة إطباقاً محكمة، البيضاء مما تكابده، ولا الجباه المقطبة على هيئة حبل المشنقة الذي كانوا يفكرون في احتماله أو في إعدام الآخرين به وكانت اللافتات التجارية وكأنها في الضمور، ولم يرسم الخباز على لافتته غير الأرغفة الأشد خشونة وضآلة، على حين كانت لافتات الخمارات تمثل رجالاً جفاة ينبعون في كؤوسهم الصغيرة المشتملة على الخمر المريضة والجعة، ويتهايمسون عابسين مغیظین إن شیناً ما لم یصور على نحو زاهر خلا الأدوار والأسلحة، فقد كانت سكاكين بائع الآلات الجارحة وفؤوسه ومطارق الحداد ثقيلة، وبضاعه صانع البنادق فتاكة.

ولم تكد حصباء الطريق التي تصيب السابلة بالعرج والكشح بأحواضها الصغيرة العديدة المأوى بالوحد والماء أرصفة ما، فهي تنتهي فجأة عند أبواب المنازل وإصلاحاً لهذا الخلل كانت مصارف المياه تجري في وسط الشارع هذا إذا قدر لها ، يوماً، أن تجري وما كان ذلك ليقع إلا هطول أمطار غزيرة، وعندئذ كانت المياه تندفع، في نوبات عصبية، نحو المنازل وعند نقاط متباعدة من الشارع، كانت مصابيح خرقاء ترف بحبال وبكرات حتى إذا هبط الليل وأقبل مسرح المصابيح فأنزلها من عليائها، وأضاءها، ثم نصبها كرة أخرى، تأرجحت جملة من الفتائل القاتمة، تأرجحاً مريضاً، فوق الرؤوس، وكأنما هي في عرض البحر والحق أنها كانت في عرض البحر، وكانت العاصفة تتهدد السفن وملاحيها بالخطر ذلك بأنه كان لا بد من أن يأتي ذلك اليوم الذي يراقب فيه ذو الأسماك البالية في تلك المنطقة مرج المصابيح، وهم في غمرة بطالته وجوعهم، مراقبة موصولة إلى حد يحملهم على التفكير في إدخال بعض التحسين على أسلوبه فيرفعون أجساد الرجال بتلك الحبال والبكرات لكم تتألق فوق ظلمات أحوالهم ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد فما أن تهب على فرنسا ريح حتى تهز أسماها هزة غناء فيه، لأن الطيور ذات التغريد البارع والريش الجميل ما كانت لتبال بها كانت الحانة قائمة في إحدى زوايا الشارع، وكانت أحسن منظراً وأرفع درجة من كثير من مثيلاتها وكان الخمار واقفاً خارج بابها مرتدياً صدرية صفراء وبنطلون أخضر، يراقب اضطراع الناس من أجل الخمر المراقبة وفي هزة أخيرة من كتفيه قال: ليس هذا من شأني أولئك القادمين من السوق هم الذين فعلوا ذلك يجب عليهم أن يأتون بدن آخر.

وفجأة، وقعت عينه على المكان الفارغ الطول وهو يخط نكتته وراح يخاطبه عبر الشارع: ولكن قل لي، يا جاسبار، ماذا تفعل هناك؟ وأشار الرجل إلى الكلمة التي صورها على الجدار وقد ارتسم على وجهه معنى عميق، شأن أبناء عشيرته في العادة ولكن ذلك المعنى المرتسم على وجهه أخطأ مرماه، وأخفق إخفاقة كلية، شأن أبناء عشيرته، في العادة أيضاً وقال الخمار، وهو يجتاز الطريق ويمحو الكلمة بحفنة من الطين التقطتها خصيصاً لهذا الغرض: ما هذا؟ هل أنت مرشح لمستشفى المجاذيب؟ لماذا تكتب على قارعة الطريق؟ أليس هناك قل لي أنت أليس هناك مكان آخر تخط فيه أمثال هذه الكلمات؟ وفيما الخمار يعنف الرجل القى يده الأكثر نظافة وقد يكون ذلك اتفاقاً، وقد لا يكون على قلب المجان فربت عليها المجان بيده ووثب وثبة رشيقة في الهواء، ثم هوى على نحو راقص عجيب، وقد انفصل نعله عن قدمه فالتقطته يده وارتفعت به إلى أعلى لقد بدا، على تلك الصورة، مجاناً ذا صفة عملية إلى حد بعيد، إن لم نقل إلى ذنبي متعمدة ذلك لأنه إنما وسخ تلك اليد بسببه ثم عبر الطريق كرة أخرى ودخل الحانة وكان هذا الخمار رجلاً في الثلاثين من العمر، ذا عنق الثور وملامح عسكرية ولا بد أنه كان دموي المزاج، إذ لم يكن يرتدي، ذلك اليوم، برغم البرد القارس، سترته، مكتفياً بوضعها فوق كتفه وكان كما قميصه قد لها إلى أعلى، أيضاً، كاشفين عن ذراعيه السمرأوين حد المرفقين كذلك لم يغط رأسه بشيء غير شعره القصير، الداكن، الخشن وكان رجلاً داكن اللون، على الجملة، ذا عينين ثاقبتين بينهما شقة عريضة بارزة وعلى العموم فقد كانت أسارير وجهه تنذر بطيبة قلبه، وبتصلبه وبعده عن التسامح في آن معاً

واضح أنه كان رجلاً ذا عزيمة قوية وهدف صريح، رجلاً لا يسر المرء أن يلقاه هابطاً، في اندفاع، ممر ضيق ممتد بين هوة عن يمين وهوة عن شمال، إذ ما من شيء يستطيع أن يصده، في مثل هذه الحال، عن سبيله وفيما هو يدخل الحانة، جلست مدام دوفارج، زوجه، على المنضدة وكانت مدام دوفارج امرأة بدينة في نحو سته، ذات عين دقيقة الملاحظة نادراً ما يبدو لك أنها تنظر إلى شيء، ويدين ضخمة مثقلة بالخواتم، ووجه صارم، وملامح قاسية، ورباطة جأش بالغة وكأن سيما هذه السيدة تجعل المرء يتنبأ بأنها ما كانت لترتكب، عادة، خطأ في الحساب يتصل بأي عمل من الأعمال التي تشرف عليها وإذ كانت مدام دوفارج لا تطيق البرد، فقد تدثرت بالفرو، وعقدت حول رأس شالاً مشرقاً ثقيلاً، وإن لم يوفق إلى إخفاء قرطها الضخم وكان حبك أمامها، ولكنها كانت قد وضعت جانباً لتتكش أسنانها بعود من عيدان الأسنان وإذ كانت مدام دوفارج منهمكة في هذا العمل، وقد أسندت مرفقها الأيمن إلى يدها اليسرى، فإنها لم تقل شيئاً حين دخل بعلمها ويجيل طرفه بين زبائن الحانة بحثاً عن أي زبون جديد قد يكون دخل المكان فيما كان يجوز الشارع ولبي الخمار رغبة زوجته فأجال بصره في الحانة حتى استقر على سيد متقدم السن وفتاة نضرة العود كانا جالسين في إحدى الزوايا وكا في الحانة نفر آخرون: اثنان يلعبان الورق، واثنان يلعبان الدومينو وثلاثة واقفون إلى جانب المنضدة، يمدون في أجل جرعات شحيحة من الخمر حتى إذا انتهى إلى ما وراء المنضدة لاحظ أن الشيخ يلتفت إلى الفتاة ويقول: هذا هو صاحبنا وقال مسيو دوفارج في ذات نفسه: باسم الشيطان، ما الذى تفعلانه هناك؟ أنا لا أعرفكما ولكنه تظاهر بأنه لم ير الغريبين.

وأنشأ يتحدث إلى الزبائن الثلاثة الواقفين عند المنضدة قال أحد أولئك الثلاثة لمسيو دوفارج كيف أنت، يا جاك؟ ها ابتلع الناس الخمر المسفوحة كلها؟ فأجاب مسيو دوفارج: كل قطرة من قطراتها، يا جاك حتى إذا تم تبادل هذين الاسمين الصغيرين أطلقت مدام دوفار شعيلة أخرى، فيما هي تنكش أسنانها، ورفعت حاجبها قيد شعرة أخرى وقال ثاني الثلاثة موجهًا الخطاب إلى مسيو دوفارج: نادراً يعرف كثير من هذه البهائم البائسة طعم الخمر أو طعم أي شيء آخر غير الخبز الأسود والموت أليس هذا صحيحاً يا جاك؟ فأجابه مسيو دوفارج: بلى، إنه لصحيح، يا جاكحتي إذا تبودل هذا الاسم الصغير، كرة ثانية، أرسلت مدام دوفار شعيلة أخرى، فيما هي لا تزال تصطنع عود الأسنان في ترضي بالغ ورفعت حاجبها قيد شعرة أخرى وهنا قال آخر الثلاثة كلمته، فيما هو يضع قدحه الفارغ على المنضدة ويتمنطق: آه، إن الحال لا تزداد إلا سوء وإن هذه الأنعام البائسة لا تجد في أفواهها إلا الطعم المرير، ولا تحيا إلا الحياة الشاقة القاسية، يا جاك، هل أنا على صواب، يا جاك؟ فكان جواب مسيو دوفارج أن قال: أنت على صواب، يا جاك وقد تم تبادل هذا الاسم الصغير، للمرة الثالثة، لحظة رمت مدام دوفارج العود الذي كانت تنكش به أسنانها، وأبقت حاجبها مرفوعين وتململت في مقعدها بعض الشيء وغمغم زوجها: قفوا إذن صحيح أيها السادة، أقدم لك زوجتي فنزع الزبائن الثلاثة قبعاتهم ولوحوا بها احتراماً لمدام دوفارج فردت عليهم تحيتهم بأن حنت رأسها ورمقتهم بنظرة خاطفة ثم إنها أجالت طرفها على نحو فجائي، في أرجاء الحانة، وتناولت حبكها في هدوء بالغ، واطمئنان، واستغرقت في عملها قال زوجها من غير أن يرفع عنها عينه المشرقة اليقظة:

أيها السادة، طاب نهاركم إن الغرفة، المؤتثة على الطريقة العربية، التي رغبتم في مشاهدتها، والتي كنتم تستعلمون عنها عندما غادر الحانة تقع في الدور الخامس وإن باب السلم يفضي إلى الفناء الصغير المحاذي للشمال، هنا، وأوماً بيده، قريباً من نافذة محلي ولكن لقد تذكر الآن إن واحداً منكم سبق أن قصد إلى هناك، وفي استطاعته أن يدلکم على الطريق أيها السادة، استودعكم الله دفعوا ثمن الخمر التي شربوا، وغادروا المكان وكانت عينا مسى بطيبة خاطر، يا سيدي، كذلك أجابه مسيو دوفارج، ومضى في تودة نحو الباب كان المؤتمر قصيراً جداً، ولكنه حاسم جداً فلم يكد الرجل ينط بالكلمة الأولى حتى أجفل مسيو دوفارج وأصغي في اهتمام بالغ وما هي إلا دقيقة، أو أقل، حتى أوماً برأسه وخرج عندئذ أشار الشيخ إلى السيدة الصغيرة، وخرجا هما أيضاً وحبكت مدام دوفارج صوفه بأصابع رشيقة، وحاجبين ثابتين، ولم تر شيئاً وإذ غادر مستر جارفيس لوري ومس مانيت الحانة، التحقا بمسيو دوفارج عند الباب الذي قاد إليه ضيوفه الآخرين، من قبل كان ذلك الباب ينفرج عن فناء أسود صغير نتن، وكان هو المدخل الجام العمومي لركام ضخم من البيوت الأهلة بعدد كبير من الناس وفي جانبه السلم الآجري المظلم ركع مسيو دوفارج على إحدى ركبتيه احتراماً لابنة سيده القديم، ووضع يدها على شفتيه كان ذلك عملاً ينطوي على كرم ولطف، ولكنه لم ينجز قط في كرم ولطف فما هي إلا ثوان حتى اعترى مسيو دوفارج تحول يلفت النظر حقاً لقد زailت وجهه أمارات الطيبة والصراحة، وغدا رجلاً متحفظاً مغضباً، خطراً.

-إنها عالية جدا وإنها لعسيرة بعض الشيء ومن الأفضل أن نصعد على مهل
كذلك قال مسيو دوفارج لمستتر لوري، في صمود صارم، بينما شرعوا يرتقون
السلم وهمس مستتر لوري: أهو وحده؟ فقال الحمار في الصوت الخفيض نفسه :
وحده كان الله في عونہ من الذي ينبغي أن يكون معه؟

-بسبب رغبته الخاصة ؟ بسبب حاجته الخاصة إنه لا يزال كما كان عندما رأيته
أول مرة، بعد أن عثروا علي وسألوني ما إذا كنت أود أن أتسلمه، وأبقيه في
معزل عن الناس خشية أن يقع ما لا تحمد عقباه هل تغير كثيراً ؟ تغير ووقف
صاحب الحانة ليلطم الجدار بيده، ويطلق شتيمة هائلة ولم يكن ثمة أي جواب
مباشر ينطوي على نصف القوة التي انطوت عليه تلك الحركة وأسقط في يد
مستتر لوري أكثر فأكثر، وصعد هو ورفيق أعلى فأعلى مثل هذا السلم، وملحقاتها
القائمة في أجزاء باريس الأكثر عتمة وازدحاما ، خليفة بأن تكون ، اليوم، رديئة
جداً، أما في ذلك العهد فكانت بغیضة حقاً إلى الأعصاب المرفهة التي لم تألف
نظائرها وكان كل مسكن من المساكن الصغيرة التي انطوى عليها ذلك الوقت
الكبير القذر الذي يدعونه بناء عالية أعني كل غرفة أو غرف قائمة خلف أحد
الأبواب المنفتحة على السلم العامة يترك ركام قاذوراته على السلم الخاص به،
غير غافل في الوقت نفسه عن إلقاء بعض النفايات الأخرى من النافذة كانت كتلة
الأقذار التي لا سبيل إلى ضبطها أو إزالتها الناشئة على هذا النحو، قمينة بأن
تفسد الهواء، حتى ولو لم يثقلها الفقر والحرمان بمساوئ خفية والحق أن هذين
المصدرين الخبيثين مجتمعين، جعلوا الوضع يكاد لا يطاق وفي غمرة من مثل
هذا الجو غير بعيد عن دهليز مظلم من القذر والسم، امتدت الطريق

وبسبب ما اضطرابه الذهني، واهتياج رفيقته الشابة المتعاطف لحظة بعد لحظة، وقف مستر جارفيس لوري مرتين التماساً للراحة وقد حصلت كل وقفة سقيمة فاسدة ولم يكن المرء يرى من خلال القضبان الحديدية الصدئة مشاهد من الجوار المشوش فحسب، بل يذوق ذلك التشوش ذوق ولم يكن في المحلة كلها ، قريباً من قمتي برج كنيسة نوتردام أ تحتهما، شيء تشرق على محياه نضرة الحياة الصحية أو بريق المطاعم السليمة وأخيراً انتهوا إلى أعلى السلم، وهناك استراحوا للمرة الثالثة كما عليهم الآن أن يرتقوا سلمة أخرى عامودية أكثر وأقل اتساعاً من سابقتها قبل أن يصلوا إلى العلية وهنا استدار الخمار، وكان يتقدمهما بعض الشيء دائماً، ويلزم الجهة التي يتخذها مستر لوري دائماً، وكأنه يخشى أن توجه إليه السيدة الصغيرة سؤالاً ما وفي عناية، تلمس جيوب سترة مطروحة على كتفه ، وأخرج مفتاح فقال مستر لوري في دهش: الباب مغلق إذن، أيها الصديق؟ فأجابه مسيو دوفارج بنبرة كالحة : إي نعم أترى أن من الضروري أن تفرض على الرجل البائس هذه العزة القاسية كلها؟ فازداد مسيو دوفارج دنواً من أذن مستر لوري وهمس فيها مقطباً تقطبية شديدة : أحسب أن من الضروري أن ندير المفتاح في القفل قبل أن ندخل عليه لماذا؟ لماذا ؟ لأنه سلخ دهره طويلاً في غيابة سجن موصد ومن هذا فلست أمل، إذا ما ترك بابيه مفتوحاً، أن يروع، أن يصاب بالهذيان، أي يمزق نفسه إرباً إرباً ، أن يموت، حقيقته فصاح مستر لوري : وهل هذا ممكن؟ وغيرها من المآسي الكثيرة ممكنة أيضاً ماذا أقول؟ إنها ليست ممكنة فحسب، ولكنها تقع بالفعل تقع، أفهمت؟ تحت هذه السماء هناك كل يوم ليحي الشيطان ولندخل.

كان هذا الحوار يدار في همس خفيض حال دون وصول كلمة واحدة منه إلى أذني السيدة الصغيرة ولكنها كانت قد أخذت ترتعش الآن، تحت وطأة انفعال عنيف جداً وقد بدت على وجهها أمارات قا عميق، بل أمارات دعر عاصف، إلى حد جعل مستر لوري يدرك أن واجبه أن يهدئ من روعها بكلمة أو كلمتين تشجعي ، أيتها الأنسة العزيزة، تشجعي هذه مسألة عمل ولسوف ينقضي أسوأ ما فيها بعد لحظة فما أن نلج باب الغرفة حيث ينتهي أسوأ ما فيها وعندئذ يبدأ كل الخير الذي تستطيعين أن تحمل إليه، كل الراحة، كل السعادة دعي صديقنا الطيب هذا يساعدك م ذلك الجانب هذا حسن، أيها الصديق دوفارج تعالي، الآن مسألة عمل وصعدوا في تودة ورفق كانت السلم قصيرة، ما لبثوا أن انتهوا إلى أعلاها وهناك حيث انعطفت السلم على نحو فجائي وقعت أبصاره بغتة على ثلاثة رجال كانت رؤوسهم منحنية، قريبة بعضها من بعض، عنا جانب باب ما، فهم يحدقون من خلال بعض الفروج أو الثقوب التي في الجدار إلى الغرفة القائمة وراء ذلك الباب حتى إذا سمعوا وقع الأقد على مقربة منهم التفت هؤلاء الرجال، ونهضوا، فإذا هم الثلاثة رجا ذوو الاسم الواحد، الذين كانوا يحتسون الخمر في الحانة وقال مسيو دوفارج موضحة: لقد نسيهم بحكم زيارتك المفاجئة

أخلوا المكان لنا، أيها الفتية الصالحون إن عندنا عمل هنا وانساب الثلاثة منسحبين وهبطوا السلم في صمت في همس، وفي نبرة غضب بعض الشيء :أنتخذ من مسيو مانيت فرج يتفرج عليها الناس أنا أريه ، بالطريقة التي شاهدها ، لنفر مختارين وهل هذا حسن؟ أعتقد أنه حسن ومن هم هؤلاء نفر؟ كيف تختارهم؟ أنا أختارهم بوصفهم رجالاً حقيقيين ممن يحملون اسمي أ -

جاك هو اسمي وممن يعود عليهم المشهد بفائدة ولكن كفي أنه إنجليزي هذا شيء آخر ابق هناك، من فضلك، لحظة صغيرة وفي ايماءة تحذير أراد بها أن يرددهم إلى وراء، انحنى مسيو دوفارج ونظر من خلال فجوة الباب ثم إنه سارع إلى رفع رأسه من جديد وقرع الباب مرتين أو ثلاث مرات، غير مستهدف من وراء ذلك كما هو واضح، غير إحداث الضجة هناك وابتغاء الغرض نفسه أجرة المفتاح عبره ثلاث مرات أو أربع قبل أن يولجه ، من غير براعة، في القفل ويديره بأقصى ما يستطيع من تنافل وفتح الباب في ببطء نحو الداخل، فألقى مسيو دوفارج نظرة على الغرفة وقال شيئاً وأجاب صوت واهن بشيء ولم يكن في الإمكان أن يصدر عن أي من الجانبين غير مقطع واحد، أو أكثر قليلاً والتفت إلى وراء، ودعاهما إلى الدخول وطوق مستر لوري خصر الفتاة وأمسك بها لأنه استشعر أن قدميها تخذلانها فألح وقد التمع على خده عرق ليس من العمل في شيء مس مس مسألة عمل مسألة عمل، أدخلني أدخلني فقالت وهي ترتعد: أنا خائفة منها وفي ضرب من اليأس أوقعه في نفسه مسلك الفتاة ودعاء الخمر الذي كان يهديهما السبيل، جذب إلى ما فوق عنقه تلك اليد المرتعش على منكبه ، ورفع الفتاة قليلاً وأسرع بها إلى الحجرة ثم إنه أنزلها لدى الباب ، وأمسك بها وهي متشبثة به وسحب دو فارج المفتاح، وأوصد الباب، وأقفله من داخل، ثم سحب المفتاح كرة أخرى وأبقاه في يده، وإنما فعل ذلك كله على نحو منهجي، وبأقصى ما يستطيع من الصخب وأخيراً عبر الحجرة في خط موزون إلى حيث كانت النافذة ، وهناك وقف واستدار كانت العلية، التي بنيت لتتخذ مستودع للحطب وما إليه قاتمة مظلمة

ذلك لأن النافذة العمودية الشكل كانت في الحقيقة باباً في السطح عليه رافعة صغيرة لنقل المون من الشارع ولم يكن ذلك الباب مزججاً، وكان ذا مصراعين يغلقان في الوسط شأن أي باب من صنع فرنسي ودفعاً للبرد كان أحد مصراعي ذلك الباب محكم الإيصاد والثاني مفتوح فتحة يسيرة جداً وكان النور المتسرب إلى الحجرة بسبب ذلك، ضئيلاً إلى درجة تجعل من العسير على الداخل أن ير شيئاً، لأول وهلة، وتجعل من المتعذر على المرء أن يقوم بأي عمل يقتضي دقة وإحكام إلا إذا استعان بمران طويل يزوده، في بطنه، بالقدرة على ذلك ومع هذا، فقد كان مثل ذلك العمل جارياً في العلية، لأنه ثمة رجل أشيب أدار ظهره للباب، واستقبل النافذة التي وقف عندها الخمار، وأنشأ يتأمله جالساً على مقعد خشبي خفيض، منحنيّاً إلى أمام منهمكاً في صنع الأحذية انهماكاً شديداً.

- ٦ -

صانع الأحذية

طاب نهارك كذلك قال مسيو دوفارج وهو منحني فوق الرأس الأبيض المنكب على صنع الأحذية وارتفع الرأس لحظة، ورد التحية صوت واهن جداً كأنما كان مقبلاً من بعيد طاب نهارك أنت لا تزال مكباً على العمل، في ما أرى؟ وبعد صمت طويل، ارتفع الرأس مرة أخرى، وأجاب الصوت نعم أنا أعمل وكانت عينان ذابلتان قد نظرتا، هذه المرة، إلى السائل، قبل أن ينگس الرأس من جديد وكان الوهن الغالب على ذلك الصوت مثيراً للاشفاق والذعر

إن لم يكن وهن الضعف الجسماني، وإن يكن للسجن وسوء التغذية أثر في ذلك ولكنه كان وهن العزلة وعدم الاستعمال كان أشبه شيء بصدى واهن من أصداء صوت انطلق منذ عهد بعيد بعيد لقد فقد رو الصوت الإنساني فقداناً كلياً حتى لقد غدا يؤثر في الحواس كمثّل تأثير لون كان ذات يوم جميلاً ثم حال صبغة ناصعة وكان غائراً مكظوم إلى حد يخيّل إلى المرء أنه ينبعث من باطن الأرض وكان من الإفصاح عن حال صاحبه اليأس المضيع بحيث يكون جديراً برحالة أضر به الجوع وأضناه الهيام على وجهه في القفر أن يستعير نبرته تلك، ويلتذ بها الوطن والأصدقاء قبل أن يسلم النفس الأخير.

انقضت بضع دقائق من العمل الصامت، وارتفعت العينان الذابلتان كرة أخرى، في غير شوق ولا فضول، ولكن في إدراك ميكانيكي كليل، إدراك سبق تلك البقعة الواقف عندها الزائر الوحيد الذ وقعتا عليه، لما تخل بعد وقال دوفارج، وكان قد سمر ناظره على صانع الأحذية أريد أن اسمح لمزيد من النور بالدخول إلى هنا هل تستطيع أن تحتل مقداراً إضافياً صغيراً منه؟ وكف صانع الأحذية عن عمله، وخفض بصره، كمن يصيح في ذهول، إلى الجانب الأيمن من أرض الحجرة، ثم إلى الجانب الأيسر منها، ليرفعه بعد نحو المتكلم ماذا قلت؟ هل تستطيع أن تحتل زيادة ضئيلة من النور؟

يتعين على أن أحتملها إذا أدخلتها، وخلع على الكلمة الأول التوكيد باهتة إلى أبعد الحدود وفتح المصراع غير الموصد فتحة إضافية، وثبت على تلك الزاوية مؤقتاً واقتحم العلية شعاع عريض تكشف عن صانع الأحذية، وقد تريت في عمله، وفي حضنه حذاء لم يتم كانت أدواته القليلة المألوفة

ومختلف قصاصات الجلد ملقاة على قدميه أو فوق منضدة عمله وكانت له لحية بيضاء، مقصوصة على نحو غير مستو، ولكنها ليست طويلة جداً، ووجهه غائر وعينان براقتان إلى حد بعيد كان هزال وجهه ونحوه يجعلهما تبدوان واسعتين، تحت حاجبيه اللذين ما يزالان داكنين وشعره الأبيض الأشعث، ولو كانتا غير ذلك في الواقع ولكنهما كانتا واسعتين خلفه، ولقد بدتا الآن كذلك وأسماله الممزقة كلها قد نصلت ألوانها، بسبب العزل الطويل عن النور والهواء المباشرين، فغدت وحدة من صفرة كصفرة الرقوق قابض للصدر، حتى ليتعذر على المرء أن يميز بعضها من بعضها الآخر وكان قد رفع إحدى يديه ليحول بين عينيه وبين النور، فبدت عظام نفسها وكأنها شفافة كذلك أقام ناظر نظرة ذاهلة، منقطعة عن العمل فترة إنه ما كان لينظر إلى الوجه الذي أمامه إلا إذا خفض بصره أو نحو جانبه الأيمن، ثم نحو جانبه الأيسر، فكأنه قد فقد القدرة على الربط ما بين المكان والصوت من طريق التداعي وما كان ليتكلم من غير أن يتيه أولاً على هذا النحو، وينسى أن يتكلم وسأله مسيو دوفارج مشيراً إلى مستر لوري أن يتقدم : اتعزم أن تنجز هذا الحذاء اليوم؟ ماذا قلت؟ أتريد أن تنجز هذا الحذاء اليوم لا أستطيع أن أقول إنني أريد أحسب ذلك لست أدري ولكن السؤال ذكره بعمله ، فانكب عليه من جديد وفي سكون، تقدم مستر لوري إلى أمام، تاركاً الفتاة لدى الباب حتى إذا وقف إلى جانب دوفارج، دقيقة أو دقيقتين، رفع صانع الأحذية رأسه ولم يبلغ أي دهشة لرؤيته رجلاً آخر، ولكن أصابع إحدى يديه المرتعشة شردت نحو شفتيه فيما هو ينظر إليه كانت شفتاه وأظافر شاحبة باللون الرصاصي نفسه

ثم انخفضت اليد إلى عمله، وانكب مرة أخرى على الحذاء ولم تستغرق النظرة والحركة غير لحظة واحدة وقال مسيو دوفارج :إن عندك ضيفة، كما ترى ماذا قلت؟ ههنا ضيفة

وقال دوفارج : تعال ههنا سيد يعرف الحذاء الجيد إذا رآه هذا الحذاء الذي تصنعه خذه، أيها السيد وأخذه مستر لوري بيده قل للسيد أي نوع من الحذاء هذا واسم صانعه وتمهل صانع الأحذية فترة أطول من المعتاد ثم أجاب - : لقد نسيت عن أي شيء سألتني ما الذي قلته قل ألا تستطيع أن تصف نوع الحذاء تنويرة للسيد؟ -إنه حذاء سيدة إنه حذاء تلبسه السيدة الصغيرة خارج البيت وهو مصنوع وفق الزبي الحاضر أنا لم أر الزبي قط من قبل كان بين يدي في وقت مضى صورة عنه ونظر إلى الحذاء، وعلت وجهه مسح عابرة من الاعتزاز.

فقال دوفارج :واسم صانع الحذاء؟وإذ لم يبق في يده عمل يمسك به فقد وضع مفاصل يده اليمنى في تجويف راحة اليسرى، ثم مفاصل اليسرى في تجويف راحة اليمنى، ثم أمر يده عبر لحيته ، مداو هكذا بين الحركات على نحو نظامي من غير توقف البتة وكانت مهمة انتشاله من الذهول الذي كان يغرق في خضمه كلما تكلم أشبه بانتشال امر بالغ الضعف من إغماء، أو محاولاً الإبقاء على روح امرئ يلفظ أنفاسه الأخيرة، رجاء الفوز بهم قد يكشف عنه.

-هل سألتني عن اسمي؟ من الراهن أني فعلت مئة وخمسة، البرج الشمالي أهذا كل ما هنالك؟ المئة وخمسة، البرج الشمالي وقال مستر لوري مطيلاً النظر إليه: أنت لست صانع أحذية بالمهنة؟ وتحولت عيناه الذابلتان إلى دوفارج وكأنما يريد أن يحيل السؤال عليه

حتى إذا لم تقعا في تلك الناحية على عون، انقلبنا إلى السائل به أن استطلعتا وجه الأرض أنا لست صانع أحذية بالمهنة؟ لا لم أكن صانع أحذية بالمهنة لقد تعلمت ذلك هنا لقد علمت نفسي لقد سألتهم أن يأذن لي بأن وأخذته الذهول طوال دقائق، موقعة دائماً تلك الحركات الموزونة بيديه وأخيراً ارتدت عيناه ، في بطاء، إلى الوجه الذي تاهتا عنه حتى إذا استقرتا عليه، أجفل، واستأنف حديثه ، كنائم استيقظ تلك اللحظة ليتابع الكلام في موضوع الليلة البارحة.

سألتهم أن يأذنوا لي بأن أعلم نفسي فحصلت على الإذن في صعوبة بالغة بعد فترة طويلة ومنذ ذلك الحين وأنا أصنع الأحذية وفيما بسط الشيخ يده التماساً للحذاء الذي أخذ منه، قال مستر لوري وهو لا يزال يحدق إليه: «مسيو مانيت، ألا تذكرني مطلقاً؟ وسقط الحذاء على الأرض وأنشأ الشيخ يحدق ملياً إلى السائل ووضع مستر لوري يده على ذراع دوفارج وقال مسيو مانيت أتذكر شيئاً عن هذا الرجل؟ أنظر إلي ألا تنهض في ذهنك صورة مصرفي قديم، صورة تعامل مالي قديم، صورة خادم قديم، صورة عهد قديم، مسيو مانيت؟ وفيما كان أسير السنوات الطوال ينقل طرفه من مستر لوري إلى دوفارج ومن دوفارج إلى مستر لوري، بدت على جبينه أمارات وغامت تلك الأمارات من جديد، وغدت أقل اشراقاً، ثم زالت آخر الأمر ولكنها كانت قد برزت على ذلك الجبين وتكررت الأمارات نفسها على وجه تلك الفتاة الجميلة التي كانت قد تسلمت في محاذ الجدار إلى نقطة أمسى في ميسورها أن تراه منها، فهي تقف هناك ناظرة إليه، رافعة يدين لم تتحركا بادئ الأمر إلا في اضطراب المذعور، إن نقل لكي تحولاً بين عينيها وبين أن تقعا عليه ، ولكنهما انبسطتا الآن مرتعشتين باللهفة.

لأن تضعاً ذلك الوجه الشبجي على صدرها الغض الدافي، وأن تعيده من طريق الحب إلى الحياة والأمل - تكررت تلك الأمارات نفسها (ولكن في أحرف أقوى) على محياها الغض الجميل حتى لقد بدا وكأنها انتقلت من وجهه إلى وجهها، كالشعاع المنطلق

كان الظلام قد ران عليه بدلاً منها ونظر إلى الرجلين، في انتب متضائل أكثر فأكثر وفي ذهول قاتم، التمسست عيناه الأرض ونظرتا من حوله بالطريقة القديمة نفسها وأخيرة، وبتنهيدة عميقة طويلة، رفع الحذاء واستأنف عمله وتساءل دوفارج في همس: هل تبينته، أيها السيد؟ نعم، لحظة واحدة لقد حسب، بادئ الأمر، أن ذلك متعذر ولكن الذي لا يحتمل الشك أني رأيت، هنيهة، ذلك الوجه الذي عرف في ما مضى معرفة جيدة هـش دعنا نبتعد أكثر إلى الورا هـش كانت قد تقدمت من جدار العلية إلى قريب جداً من المقعد الذي كان يجلس عليه وكان ثمة شيء مروع في ذهوله عن الفتاة التي غدا في ميسورها أن تمد يدها، وتمسه فيما هو منكب على عمله.

ولم ينطق بأي كلمة ولم يرسل أي صوت لقد وقفت كالطيف إلى جانبه، وأكب هو على عمله واتفق آخر الأمر أن اضطر إلى أن يستبدل مدية الحذائين بالأداة التي عيناه ذيل ثوبها ورفع عينيه ، ونظر إلى وجهها ووثب مسيو دوفار ومستر لوري إلى الأمام، ولكنها أبقتهما حيث هما بايماءة من يدها إن لم تخش أن يضربها بمديه على حين خشيا هما أن يفعل.

وحذق إليها بنظرة مذعورة، وبعد برهة شرعت شفتاه تكونان بعض الكلمات، وإن لم ينبثق منهما صوت ما وشيئاً بعد شيء، سمع يقول :ما هذا؟وفيما كانت العبرات تسيل على وجهها، وضعت يديها الاثنتين على شفتيها، وقبلتهما تحية له ثم إنها شبكتهما على صدرها، وكأنما كانت تريح رأسه المكدود هناك أنت لست ابنة السجان؟ فتتهدت وقالت : لا من أنت؟

وإذا لم تتم لها الثقة بنبرات صوتها، فقد جلست على المقعد إلى جانبه وتراجع منكمشاً، ولكنها وضعت يدها على ذراعه وأخذته رجة غريبة حين فعلت ذلك، وسرت على نحو واضح في جسده كله ورمى المديّة في رفق، وأنشأ يحذق إليها كان شعرها الذهبي ذو الغدائر الطويلة الجعدة قد ترد، على استعجال، إلى جانب، فتدلى على عنقها ومد يده قليلاً قليلاً ، ولمسه وأنشأ يتأمله وفي غمرة من ذلك أصابه ذهول، فأطلق تنهيدة عميقة وانصرف إلى عمله ولكن ذلك لم يستمر طويلاً رفعت الفتاة يدها عن ذراعه ووضعت يدها على كتفه وبعد أن نظر إليها، في ارتياب، مرتين أو ثلاث مرات وكأنما يريد أن يتيقن أنها هناك فعلاً، ترك عمله، ومد يده إلى نحو شعرة أو شعرتين ذهبيتين طويلتين، ليس غير، كان قد لفهما حول أصبعه ذات يوم من أيامه السالفة وتناول شعر الفتاة بيده، كره أخرى، وأنعم النظر فيه، ثم قال إنهما متماثلان كيف يجوز هذا؟ متى كان ذلك؟ كيف كان ذلك؟ وفيما عاودت أمارات التفكير جبينه، بدا وكأنه أخذ يعي أن تلد الأمارات تعلو جبينها أيضاً وأدارها نحو النور، وتفرس بها.

كانت قد ألقت رأسها على كتفي، تلك الليلة، عندما استدعيت لقد أوجست خيفة من ذهابي، وإن كنت أنا لم أخف وحين استاقون إلى البرج الشمالي وجدوا هاتين الشعرتين على كمي وقلت لهم: هل لكم أن تتركوهما لي؟ إنهما لا تستطيعان مساعدتي على الهرب بالجسد، وإن استطاعتا مساعدتي على ذلك بالروح تلك كانت الكلمات التي قلتها أنا لا أزال أذكرها جيدا.

وقد اختلجت شفتاه بهذا الحديث، مرات عديدة، قبل أن يوفق إلى النطق به حتى إذا عثر على الكلمات الملفوظة التي تعبر عنه انقادت له على بطنها، في تماسك واطراد كيف كان هذا؟ أكن أنت إياها؟ ومرة أخرى، أجفل دوفارج ولوري حين التفت إليها ولكنها ظلت جالسة بين يديه معتصمة بسكون كامل، وقالت في صوت خفيض: أتوسل إليكما، أيها السيدان الطيبان، أن لا تقربا منا أن لا تتكلما، أن لا تتحركا وصاح: صه صوت من هذا؟ ورفع يديه عنها فيما أرسل هذه الصيحة، وانقلب إلى شعره الأبيض فهو يشد به وكأنما أصيب بمس ثم زايله ذلك كما زايله كل شيء خلا صنع الأحذية، وأعاد طي صرته الصغيرة وحاول أن يصونها في صدره كما ينبغي هذا غير ممكن أنظري أي رجل هو السجين هاتان ليستا اليدي اللتين عرفتهما هذا ليس الوجه الذي عرفته وهذا ليس هو الصوت الذي قدر لها أن تسمعه لا، لا لقد كانت هي وكان هو قبل سنوار البرج الشمالي المتباطئة منذ أجيال وأجيالما اسمك، يا ملاك الكريم؟ وابتهاجا بهذه الدمثة التي تجلت في نبرته ومسلكه، خرت ابنته على ركبتيه أمامه، واضعة يديها المبتهلتين فوق صدرها أوه، يا سيدي، في وقت آخر ستعرف اسمي، ومن كانت أمي ومن هو أبي، وكيف أني لم أعرف قصتهما الموجهة، ولكن لا أستطيع أن أحدثك بذلك الآن.

لا أستطيع أن أحدثك به في ها المكان كل ما أستطيع أن أقوله لك، الآن وفي هذا المكان، ان اتضرع إليك أن تلمسني وتباركني قبلني أوه، يا عزيزي، عزيزي واختلط شعر رأسه البارد بشعرها المشع فأدفاه وكأنه اشرق عليه نور الحرية. إذا وجدت في صوتي أنا لا أعرف أنه كذلك، ولكني أرجو أن يكون إذا وجدت في صوتي أى شبه بصوت كان في يوم من الأيام موسيقى عذبة في أذنيك فابلي من أجل ذلك، والمس، إذ تلمس شعري، شيئاً يذكرك برأس أثير لديك كان يتوسط صدرك وأنت بعد شاب تتمتع بالحرية إذا ما عاد إلى مخيلتك إذ ألمع أمامك إلى بيت ينتظرنا حيث سأكون برة بك مخلصاً لك ذكرى بيت اقفر منذ عهد بعيد فيه كان فؤادك التعس يذوب شوقاً إليه فعد من أجل ذلك وإذا كان في إخباري إياك، يا أعز عزيز، أن عذابك قد انقضى وإني جئت إلى هنا لأبعدك عنه، وإنا ذاهبان إلى إنجلترا لنحيا في أمن ودعة إذا كان في هذا كله ما يحملك على التفكير في حياتك النافعة وفي وطننا فرنسا وكم قد كان بالغ الإساءة إليك، وإذا كنت ستعرف حين أبوح له باسمي، وباسم أبي الذي ما يزال حياً، وأمي التي قضت نحبها أن علي أن أركع لوالدي المبجل وألتمس عفوه لأنني لم أناضل قط في سبيله، بياض النهار، ولم أسهر وأسفح الدمع، سواد الليل، لأن حمل أُمي الشقية حملها على أن تخفي عذابه عني، أيها السيدان الطيبان، اشكر الله أنا أستشعر عبراته الطاهرة على وجهي، وتنهداته تتردد في فؤادي أوه، أنظرا اشكر الله من أجلنا، اشكر الله وكان قد غار بين ذراعيها، وهوى وجهه على صدرها وكان ذلك مشهد مؤثر ومروع إلى أبعد الحدود، نظراً لما قد تصرم قبله من ظلم هائل وعذاب طويل، حتى لقد حجب الرجلان اللذان شهدا الموقف وجهيهما بأيديهما.

حتى إذا ران السكون على العلية فترة طويلة، واستراح صدر الخافق وجسده المرتعد إلى الهدوء الذي لا بد أن يعقب العواصف جميعا حتى تلك العاصفة التي ندعوها الحياة لا بد أن تنتهي إلى السكون والصمت تقدم الرجلان ليرفعا الأب والبنات عن الأرض كان قد هوى إلى أرض العلية، شيئا بعد شيء، وانطرح هناك فاقد الرشد موهن العزيمة وكانت قد استدركت هابطة معه لكي يظل رأسه متوسط ذراعها وتدلى شعرها فوق جسمه ، فحجبه عن النور

سألها مستر لوري: ولكن، على رسلك اقادر هو على احتمال الرحلة؟ إنه أقدر على احتمال الرحلة منه على احتمال البقاء في هذه المدينة التي توقع الرعب في قلبه إلى أبعد الحدود.

فقال دوفارج الذي كان راكعا لكي يتمكن من النظر والسماع: هذا صحيح إن من الخير لمسيو مانيت، لاعتبارات عديدة، أن يحيا خارج فرنسا هل أستأجر عربية وجياد ؟ فقال مستر لوري مستأنفاً، في الحال، مسالكه النظامية: هذه أعمال تجارية وإذا لم يكن بد من القيام بالأعمال التجارية فأنا أؤثر أن انهض بها بنفسي فألحت مس مانيت: تكرما اتركنا هنا إنكما تريان الطمأنينة التي تمت له، وليس لكما بعد أن تخشيا تركه معي وأي داع للخوف؟ وإذا ما أقفلتما الباب لكي لا يدخل علينا أحد فلست أشك في أنكما ستجدانه ، ساعة ترجعان، على مثل هدوئه ساعة فارقتماه وأيا كان، فسوف أعني بشأنه حتى ترجعا، وعندئذ نمضي به على الفور. ولم ترتح نفس كل من مستر لوري ودوفارج لهذه الخطة، إذ كانا يريان ضرورة بقاء واحد منهما إلى جانب السجين وابنته ولكن، لما لم تكن المسألة مسألة استئجار عربية وجياد فحسب، بل مسألة إعداد لأوراق السفر أيضا.

ولما لم يكن ثمة متسع من الوقت، بعد أن أذن النهار بالانتهاء، أو كاد، فقد انتهيا آخر الأمر إلى أن يتوزعا الأعمال التي تقتضيها الرحلة وينطلقا في انجازها حتى إذا أطبق الظلام على العلية ألقّت الفتاة رأسها على الأرض الصلبة، إلى جانب أبيها، وانشأت تراقبه وأحلولك الظلام وكانا قد حملا معهما، فضلاً عن الدثر وعباءات السفر، خبز ولحم وخمرة وقهوة ساخنة ووضع مسيو دوفارج هذه المؤونة، والمصباح الذي كان يحمله على منضدة صانع الأحذية ولم يكن في العلية غيره وغير فراش من قش، وأيقظ هو ومستر لوري السجين وساعده على الوقوف.

وما كان في وسع الذكاء البشري أن يقرأ أسرار عقله من خلال ذلك الدهش الأبكم المدعور الذي ران على وجهه أفهم ما الذي حدث أتذكر ما قاله له؟ أعرف أنه مطلق السراح؟ كل هذه أسئلة ما كان في طاقة الفراسة أن تحلها لقد حاول أن يكلمها، ولكنه كان موزع الذهن بطيء الإجابة حتى لقد أخذهما الرعب لذهوله، واتفقا على أن يترك وشأنه، إلى حين كان بين الفينة والفينة يضغط بيديه على رأسه، ذاهلاً شارد اللب؛ وهي ظاهرة لم يتكشف عنها من قبل ومع ذلك، فقد وجد بعض الحبور في نبرة ابنته، فهو يلتفت نحوها كلما تحدثت أو بروح الأذعان التي تتم لمن تعود أن يخضع، تحت وطأة الاكراه أكل وشرب ما سألاه أن يأكله ويشربه وارتدى العباءة وتزمل بالدثر التي قدماها إليه واستجاب بطيبة خاطر لرغبة ابنته في أن تضع ذراعها في ذراعه، وأمسك يدها بيديه الاثنتين لا يفارقها أبد.

وبدأوا يهبطون السلم كان مسيو دوفارج يتقدمهم حاملاً المصباح وكان مستر لوري في مؤخرة الموكب الصغير ولم يكادوا يهبطون على درجات من السلم الرئيسية الطويلة حتى وقف، وحدق إلى السطح وإلى الجدران من حوله أتذكر هذا المكان، يا أبي؟ أتذكر أنك جئت إلى هنا؟ ماذا قلت؟

كان واضحاً لديهم أن السجين لا يذكر أقل الذكر أنه نقل من محبسه إلى ذلك البيت لقد سمعوه يتمتم : مئة وخمسة، البرج الشمالي وحين أجال بصره في ما حوله كان بينا أنه يلتمس جدران تلك القلعة الحصينة التي أهدقت به دهر طويلاً حتى إذا انتهوا إلى الفناء عد خطوه على نحو غريزي وكأنما يتوقع أن يعبر الجسر المتحرك وإذ لا يجد أي جسر متحرك، ورأى العربة تنتظر في عرض الطريق، أفلت يد ابنته وانشأ يضغط بيديه على رأسه ، كرة أخرى

ولم يكن حشد ما لدى الباب ؛ ولم يكن في أي من النوافذ الكثيرة شخص ما، بل لم يكن في الطريق حتى عابر سبيل واحد لقد خيم إقفار شامل وصمت غير طبيعي وما كانت الثرى في تلك اللحظة غير نفس واحدة، وتلك هي مدام دوفارج، وكانت مستندة إلى عمود الباب تحبك صوفها ولا ترى، في ما يبدو، شيئاً ماومتطى دوفارج متن العربة إلى جانب السائق وأصدر أمره قائلاً إلى باب المدينة وألهب السائق أفراسه بالسوط فانطلقت بهم العربة، مقطقة تحت المصابيح الواهنة المتأرجحة.

تحت المصابيح المتأرجحة أكثر ما تكون اشراقاً في الشوارع الحسنة وأكثر ما تكون قتامة في الشوارع الأشد رداءة وعب الدكاكين المضاعة، والحشود المبتهجة، والمقاهي المتلائة، ومداخل المسارح، إلى أحد أبواب المدينة وهناك ، في ركن الحرس، قال الجند حاملون للفوانيس أوراكم، أيها المسافرون فما كان من دوفارج إلا أن ترجل من العربة وانتحى بالضابط مكاناً وقال في ترضى: أنظر إلى هنا، إذن، يا سيدي الضابط، هذه أوراقه الفوانيس العسكرية، وأقحمت ذراع ترتدي ثوب حربية، واحدة من تلك الفوانيس في داخل العربة ونظرت العينان المتصلتان بالذراع نظرة ليست من النوع المألوف في كل يوم، ولا من النوع المألوف في كل ليلة، إلى السيد ذي الرأس الأشيب وقال الضابط حسن إلى الأمام فأجابه: دوفارج: إلى اللقاء وهكذا تقدمت العربة بهم تحت غيضة صغيرة من مصابيح متأرجحة.

ومضوا تحت قبة الأضواء الأبدية الثابتة، التي يبعد بعضها عن هذه الأرض الصغيرة بعداً بالغاً حمل الراسخون في العلم على إخبارنا بشكّه في أن أشعة تلك الأجرام قد وفقت حتى الآن إلى اكتشاف أرضنا هذه بوصفها نقطة في فضاء حيث يعاني كل شيء ويعمل كل شيء وكأنه ظلال الليل عريضة سوداء وطوال الفترة الباردة القلقة، حتى الضحى انشأت هذه الظلال تهمس في أذني مستر جارفيس لوري، وكان جالس تجاه الرجل الدفين الذي ثقب القبر عنه، غير دار أي قواه البارعة ضاعت إلى الأبد، وأيها لا يزال في الإمكان بعثها ذلك السؤال القديم أرجو أن تكون راغباً في الحياة؟. ليطرق أذنيه الجواب القديم: أنا لا أستطيع أن أقطع في ذلك

الكتاب الثاني : الخيط الذهبي

-١-

بعد خمس سنوات

كان مصرف تلسون القائم قرب تامبل بار مكانا قديم الطراز حتى في سنة ثمانين وسبعمئة بعد الألف كان صغيراً جداً، مظلماً جداً قبيح جداً، ضيقاً جداً وكان فوق ذلك مكاناً قديم الطراز من الناحية المعنوية أيضاً حتى لقد كان أصحابه يفخرون بصغره، وبظلمته، وبقبحه، وضيقه بل لقد كانوا يعتزون بامتيازهم في هذه الصفات، ويؤمنون إيماناً راسخاً بأنه لو كان ذلك المصرف ذا مساحة أقل أذن لكان أقل احتراماً في أعين الناس ولم يكن موقفهم هذا مجرد إيمان سلبي، ولكنه كان سلاحاً فعالاً يشهرونه على المصارف الأخرى التي تتمتع بأسباب الراحة أكثر من مصرفهم، فهم يقولون إن مصرف تلسون في غير حاجة إلى سعة في المكان؛ وإن مصرف تلسون في غير حاجة إلى ضوء؛ أوزخرف كما يحتاج إلى ذلك مصرف نوكس وشركاه.

وكان أي من أصحاب مصرف تلسون يمكن أن يحرم ابنه الميراث إذا ما طالب بتجديد بناء تلك المؤسسة المالية وبذلك كان المصرف صنوا للدولة التي عمدت في كثير من الأحيان إلى حرمان أبنائها الميراث لاقتراحهم ادخال بعض الاصلاحات على القوانين والعادات التي كانت منذ عهد بعيد محل اعتراض صارخ، والتي لم يزل هذا الاعتراض الصارخ إلا احتراماً

وهكذا انتهى مصرف تلسون إلى أن يكون عنوان اللاملاءمة الفخمة وغاية غاياتها فما تكاد تدفع بابا بيدهك بعناده المخبول وبذلك الصر الواهن الذي في حنجرته ، حتى تهبط درجتين ، واذا عاودك الرشد، في دكان صغير حقير ، ذي منضدتين ضئيلتين حيه ترتعش بالشيك الخاص بك أيدي رجال طعنوا في السن، وكأن الريح تعبت به، فيما هم يفحصون التوقيع على ضوء نوافذ ليس في وسع المرء أن يتخيل ما هو أشد منها قتامة، نوافذ وجود عليها فليت ستريت بوابل من الوحل لا ينقطع، وتزيدها ظلمة قضبانها الحديدية ذاتها، وظل تامبل بار الثقيل وإذا كان عملك يحتم عليك أن ترى مدير المؤسسة وضعت في ضرب من المحبس لعين قائم في المؤخرة حيث تتأمل في حياة ذهبت هدرأً، إلى أن يأتيتك المدير ويدها في جيبه فلا تكاد تراه في الغسق الكئيب إلا بشق العين وكانت أموالك تخرج أو تدخل إلى أدراج خشبية بالية يعيش فيها الدود وتتطاير ذرات منها نحو أنفك وتنزل في حنجرتك كلما فتحت أو أوصدت وكانت الأوراق المالية ذات رائح عفنة فكأنما هي تنحل على نحو عاجل لتتقلب مرة أخرى إلى خرق بالية وكانت آنيك الفضية أو الذهبية حشر بين المراحيض المجاورة فم تلبث المواصلات الشريرة أن تذهب برونقها في يوم أو يومين وكان وثائقك وصكوكك تمضي إلى غرف ارجلت ارتجالا، وكانت من بقايا مطابخ أو مخازن أدوات المطابخ، فهي تنفث جميع دهن العالم بأوراقها في هواء المصرف أما صناديقك الأخف ثقة ، المشتمة على الأوراق العائلية فكانت تنقل إلى دور علوي فتوضع في غرفة برمكية ولكن الواقع أن عقوبة الموت كانت في ذلك الزمان وصفة شائعة لجميع الجرائم المتصلة بالصنائع والمهن على اختلافها.

ولم تكن الجرائم المتصلة بمصرف تلسون بأقلها شأنًا وإذا كان الموت هو علاج الطبيعة للأشياء كلها فلم لا يكون علاج التشريع كذلك وهكذا كان ثلاثة أرباع الذي كانوا يقترفون جريمة على اختلاف أشكالها كانوا يساقون إلى الموت وما كان ذلك لأن هذه العقوبة كان لها أي أثر زاجر مهما يكن ضئيلاً فالشيء الذي تجدر ملاحظته أن نتائجها كانت عكس ذلك تماماً ولكن لأنها كانت تحسم في ما يتصل بهذا العالم على الأقل بلاء كل قضية من القضايا فلا تترك شيئاً منها معلقاً يمكن أن يعاد النظر فيه بعد وهكذا أهل مصرف تلسون في أيامه، شأن المؤسسات التجارية الكبرى المعاصرة له، كثيرة من الأرواح بحيث لو رأيت تلال الرؤوس التي أنزل بها حكم الموت فوق تامبل بار بدلاً من التخلص منها سراً، إذن لكان من الجائز أن تحجب عن الدور الأرضي من المصرف ذلك القدر الضئيل الذي يصيبه من نور الشمس

وكان موظفو هذا المصرف شيوخا حشروا وسط ضروب من الخزائن والصناديق القاتمة، فهم يصرفون الأعمال في رصانة ووقار وكان القيمون على مركز المصرف في لندن إذا ما أرادوا توظيف رجل شاب في مؤسستهم أخفوه في مكان ما حتى تصبح له نكهة المصرف وطابعه وعندئذ فقط كانوا يجيزون له أن يبرز للعيان، منكباً على الدفاتر الضخمة انكباً يثير الدهشة، وكيف بنطونه وغطاء ظاهر قدمه وفن أهمية المؤسسة ومكانتها.

خارج مصرف تلسون لا داخله بأية حال، إلا إذا دعي إلى هناك كان رجل ذو وظيفة غريبة ؛ فهو حاجب حيناً، ورسول حيناً، وهو يؤد أيضاً مهمة العلامة الحية بالنسبة إلى المؤسسة وما كان ليفارق مكانه أبداً أثناء ساعات العمل

إلا إذا عهد إليه في نقل رسالة ما، وعندئذ ينوب ابنه منابه : غلام شرير متجهم الوجه في الثانية عشرة، هو صورة طبق الأصل من أبيه وأدرك الناس أن مصرف تلسون قد تسامح، على نحو مهيب، مع ذلك الرجل ذي الوظيفة الغربية وكانت المؤسسة تتسامح دائماً مع شخص ما ينهض بمثل هذه الأعباء، وقد قذف الزمن والمدة هذا الرجل إلى الوظيفة كان ملقب ب فكر وانتشر ولمناسبة نبذ المبكر، من طريق التفويض، النشاط الليلي الطائش، في كنيسة أبرش هاوندزديتش الشرقية، تلقى اسم جيري الإضافي

أما المشهد الذي نريد تصويره الآن فكان يجري في بيت مستر كراننتشر الخاص في زقاق السيف المصلت، في هوايتفر ايرز وأه زمانه فالساعة السابعة والنصف من صباح يوم عاصف من أيام مارس، يتوهم أن التقويم المسيحي يبدأ منذ أن اخترعت إحدى السيدات له شعبية خلعت اسمها عليها

ولم يكن منزل مستر كراننتشر في حي طيب، وكأنه يتألف من غرفته اثنتين ليس غير إذا جاز اعتبار جيرة ليس فيها إلا لوح زجاجي واحد غرفة ولكن مظاهر النظافة كانت تبدو على البيت ففي ذلك الصباح الباكر، العاصف من أيام كانت أرض الغرفة التي اضطجع فيها ، غسلت وفركت فرقة شديدة وبين الفناجين والصحون الصغيرة المعدة لتناول الفطور وبين المائدة الضخمة الثقيلة المصنوعة من خشب الشوح كان قد نشر غطاء أبيض نظيف جدا.

اضطجع مستر كرانتشر تحت لحاف خفيف صنع من قطع متفرقة من القماش، فكأنه مجان في بيته ؛ لقد نام بادئ الأمر نوماً ثقيلاً، ولكنه صار يتقلب، في الفراش، ويتلاطم، حتى برز آخر الأمر فوق السطح وقد بدا شعره الشائك وكأنه يعتزم أن يمزق الغطاء إربا إربا هنا، صاح في صوت ينضح بالسخط الراجع: لعني الله إن لم تكن قد عاودت ذلك كرة أخرى وفي عجلة ورعدة كافيتين للكشف عن أنها هي الشخص المقصود بالكلام، نهضت امرأة يدل مظهرها على حب النظام والعمل، من زاوية كانت راحة فيها.

وقال مستر كرانتشر وقد غادر فراشه ملتصقا فردة حذاء عال الساق : ماذا؟ لقد عدت سيرتك الأولى أليس كذلك؟ وبعد أن رحب بالصباح بهذه التحية الثانية، قذف المرأة بفردة الحذاء بوصفها التحية الثالثة كانت فردة موحلة جداً تؤذن بظاهرة غريبة هي أن مستر كرانتشر كان كثيراً ما يرجع إلى البيت، بعد انتهاء ساعات الدوام في المصرف بحذاء نظيف، ليفيق في الصباح التالي فيجد الحذاء نفسه مغطى بالوحل. وقال مستر كرانتشر مغيراً صيغة الخطاب بعد أن أخطأ مرماه ماذا ؟ ما الذي تبتغين أن تفعلينه؟ كنت أؤدي صلواتي، ليس غير.

-تؤدين صلواتك إنك امرأة رائعة ما الذي تقصدينه من الركوع على ركبتيك والدعاء على؟ ما كنت أصلي ضدك لقد صليت من أجلك لا، أنت لم تصلي من أجلى ولو فعلت لما كنت في مثل هذا الحال البائس أنظر ، يا جيري الصغير إن أمك امرأة رائعة حقاً إنن تجثو على ركبتيهما سائلة الرب أن يحرم أباك عيشه الرغد الواقع

أن لك أماً بارة يا بني أجل إن لك أمة ورعة يا بني فهي تركع وتصلي لك ينزع الخبز والزبدة من فم ولدها الوحيد.

واستاء المعلم كرا انتشر وكان يرتدي قميصاً ليس غير من هذا الحال وطالب في قوة بان تبعد الصلوات على اختلاف ضروبها عن مائدته الشخصية وقال مستر كرا انتشر في تناقض لا واع: أي قيمة تتوهمينها لصلواتك، أيتها الأنثى المغترة بنفسها؟ عيني السعر الذي تبيعين : صلواتك

إنها صادرة عن القلب ليس غير، يا جيري إنها لا تساو كثير، إذن وسواء أكان ذلك أم لم يكن فلست اسمح أن يصلي ضدي أقول لك أنا لا أطيق ذلك أنا لا أريد أن أمسي رجلاً سيء الطلة بسبب غدرك وخيانتك، وإذا لم يكن بد من أن تخري راکعة على ركبتيك أم غيرك أم ليست امرأة غير طبيعية إذن لكسبت بعض المال في الأسبوع الماضي بدلاً من أن يدعى علي، وتوضع في طريقي العقبات ويمر بي دينية حتى أمني بالحظ الأسوأ قال مستر كرا انتشر ذلك، وبو يرتدي ملابسه، ثم أضاف لعنني الله، إذا لم يكن الورع وأشياء أخر لعينة قد فرضت علي أردأ حظ تعثر به شيطان تاجر أمين إلبس ثيابك، جيري الصغير، وفيما أنا انظف حذائي راقب ، يا بني، أمك بين الفينة والفينة، وإذا رأيت أي علامة تدل على أنها سوف تستأنف السجود فادعني ذلك أني أقول لك ،وهنا وجه الخطاب إلى امرأته كرة أخرى أنا لن أحارب بهذه الطريقة أنا كسيح مثل عربة أجرة أنا ناعس مثل صبغة الأفيون وأسارير وجهي مجهدة إلى درجة تجعلني لا أميز، لو الألم الذي أحسه فيها ، ما بين شخصي وأشخاص الآخرين ومع ذلك فليست جيوبتي أحسن حالاً ويخيل إلي أن انقطعت للركوع من الصباح حتى المساء

لكي تحولي بين المال وبين جيوبي أنا لن أصبر على ذلك أيتها المرأة اللعينة، فما قولك الآن؟ وممر، فوق ذلك، بجمل من مثل : آه أجل، أنت متدينة أيضا إنك لن ترضي لنفسك أن تكوني حجر عثرة في طريق زوجك وابنك أليس كذلك؟ غيرك قد يرضي ذلك ولكن ليس أنت وفيما هو يقذف من زناده سخطه بشرارات أخرى ساخرة، انصرف إلى تنظيف حذاءه الطويل الساق وإلى اتمام استعداداته للذهاب إلى مقر عمله وفي الوقت نفسه نهض ابنه المزخرف رآه بأشواك أكثر لطفاً ، القريبة إحدى عين من الأخرى، شأن أبيه بالمهمة التي اسندت إليه ، فهو يراقب أمه مراقبة شديدة ولقد أزعج بين الفينة والفينة تلك المرأة المسكينة إزعاجاً بأن كان ينطلق من حجرة نومه حيث كان يسرح شعره، صائحاً صيح منظومة : أنت على وشك أن تركعي يا أمي تعال يا أبي، هيا ولم تكن ثائرة مستر كرانتشر قد هدأت عندما أقبل ليتناول الفطور فتبرم في كثير من الغيظ، بدعاء المائدة الذي غمغمت به مسر كرانتشر وقال: والآن، أيتها المرأة اللعينة، ماذا تحاولين أن تفعلي؟ هل عدت إلى الصلاة من جديد؟ فأوضحت له امرأته أنها لم تزد على أن التمسست البركة.

حذار أن تفعلي ذلك قال مستر كرانتشر هذا، وأجال الطرف في ما حوله وكأنه توقع أن يرى إلى الرغيف يختفي بسبب من ابتها لار زوجته ثم أضاف أنا لا أريد أن ينعم علي بالطرد من بيتي ووطني أنا لا أريد أن يطير طعامي عن مائدتي إلزمي السكون وفي تجهم في الوجه واحمرار بالغ في العينين، وكأنما قضى ليل في سهرة اتخذت كل اتجاه ما خلا اتجاه السرور والطرب، أمسك مستر كرانتشر بخناق طعامه يوسعه قضمه وتمزيقاً بدلاً من أن يأكله كما يأكل الناس ألوان الغذاء

هأرا عليه مثل أي من ذوات الأربع في محبسها وحوالى الساعة التاسعة ، سوى من مظهره المتغضن، ثم انطلق إلى عمله اليومي بعد أن خلع على ذاته الطبيعية أقصى ما يستطيع أن يخلعه من مظاهر الرصانة ووقار العمل ومن العسير أن نعد عمله اليومي ذاك حرفة ، برغم حرصه على التحدث عن نفسه بوصفه تاجر أمين وكانت بضاعته تتألف من كرسى خشبي لا ظهر له، كرسي عادي تحطم ثم صرت قوائمه وكان جيري الصغير يسهر كل صباح إلى جانب أبيه حاملاً ذلك الكرسي إلى ما تحن نافذة المصرف الأكثر قرباً من تامبل بار، ليشكل معسكر صاحبنا طوال النهار وفي مقره ذاك كان مستر كرانتشر شهيراً عند المختلفين إلى فليت ستريت وإلى ما مكنه من أن يرفع قبعته المثلثة الزوايا تحية للموظفين الشيوخ الوافدين على مراكز عملهم أقام في مقره المعتاد، ذلك الصباح العاصف من شهر مارس، وقد وقف إلى جانبه جيري الصغير وكان هذا مولعاً باله على البار حتى إذا مل من ذلك راح ينزل ضروباً من الأذى الجسماني والذهني القاسي بعباري السبيل من الغلمان الذين كانوا أصغر من أن يفقهوا أغراضه اللطيفة وانشأ الأب وابنه وكانا متماثلين إلى حد بعيد يستعرضان في صمت نشاط الحركة الصباحي في فليت ستريت، وقد تقارب رأساهما بقدر تقارب العينين في كل منهما فكأنهما زوجان من القردة ولم يضعف وجه الشبه بسبب من هذا الحادث الطارئ الذي جعل جيري الكبير يعض القش ويلفظه ، فيما كانت عينا جيري الشاب المتألفتان لا تنفكان تراقبانه على نحو موصول كما تراقبان أي شيء آخر في فليت ستريت ومن الباب أطل رأس أحد السعاة الداخليين النظاميين الذين يعملون في مصرف تلسون، وقال: هناك عمل ينتظرك بشراك.

يا ابني ها قد جاءك العمل باكراً اليوم وإذ تمنى بذلك رحلة طيبة لأبيه، جلس جيري الصغير على الكرسي الذي لا ظهر له، وانشأ يستمتع بالقش الذي كان أبوه يمزقه، واستغرق في التأمل إن أصابعه صدئة دائماً كذلك غمغم جيري الصغير من أين يأتي أبي بصدأ الحديد هذا كله؟ هنا لا يوجد حديد على الإطلاق أنت تعرف أولد بيلي جيداً من غير شك كذلك قال أحد موظفي المصرف الشيوخ لجيري الرسول.

فأجابه جيري في نبرة شبه معاند: نعم، يا سيدي، أنا أعرف أولد بيلي. حسن، وأنت تعرف مستر لوري فقال جيري في نبرة لا تختلف عن نبرة من أكره على الشهادة أمام تلك المحكمة: أنا أعرف مستر لوري، يا سيدي، أكثر بكثير مما أعرف أولد بيلي أكثر بكثير مما أريد أن أعرف، بوصفي تاجر أمين.

حسن جداً إبحث عن الباب الذي يدخل منه الشهود، واطلع الحاجب على هذه المذكرة المرسلة إلى مستر لوري وعندئذ يسمح لك بالدخول إلى المحكمة، يا سيدي؟ إلى المحكمة وبدأت عينا مستر كرانتشر وكأنهما تزدادان تقارباً وتتبادلان السؤال ما رأيك في هذا ؟ سأقول لك إن الحاجب سوف يوصل المذكرة إلى مستر لوري وليس عليك إلا أن تقوم بإيماءة ما، تلفت نظر مستر لوري ليري أين تقف ويتعين عليك، بعدئذ، أن تظل هناك حتى يحتاج إليك أهذا كل شيء، يا سيدي؟ هذا كل شيء إنه يريد أن يكون بين يديه ساع من الساعة والغرض من هذا إعلامه أنك هناك.

وفيما الموظف العتيق يطوي المذكرة، في تودة، ويعنونها قال مستر كراانتشر بعد أن راقبه في صمت حتى انتهى إلى مرحلة تجفيف الحبر بالورق النشاف :

-أحسب أنهم سوف ينظرون في بعض قضايا التزوير هذا الصباح؟

- بل سينظرون في قضية خيانة فقال جيري: يعني أنهم سيقطعون جسد المحكوم عليه أجزاء أربعة شيء وحشي فعلق الموظف العجوز مدير نظارتيه الدهشتين نحوه: إنه القانون إنه القانون

-يخيل إلى أن القانون الذي يجيز التمثيل بالأجساد قانون قاس إن قتل الإنسان ينطوي في ذاته على قسوة، ولكن التمثيل بالقتيل ينطو على قسوة أشد، يا سيدي فقال الموظف العتيق: لا، على الإطلاق حذار أن تمتهن القانون اعتني بصدرك وصوتك، أيها الصديق الطيب، ودع القانون يعتني بنفسه أنا امنحك هذه النصيحة.

فقال الموظف العجوز: حسنا، حسنا، إن لنا جميعا طرائق مختلفة في كسب الرزق، بعضنا طرائقه رطبة، وبعضنا طرائقه جافة دونك الرسالة انطلق وتناول جيري الرسالة حتى إذا قال بينه وبين نفسه في احترام داخلي أقل من ذلك الذي تظاهر به أنت عجوز مهزول، أيضاً نحن إجلالاً وأنبأ ابنه في طريق عودته بالوجهة التي يقصد إليها، وامض لسبيلك كانوا يشنقون المجرمين في تايبورن، تلك الأيام، ومن هنا لم يكن الشارع القائم خلف نيوجيت قد اكتسب تلك السمعة القبيحة التي علقت به منذ ذلك الحين ولكن السجن كان مكاناً كريهاً تمارس فيه معظم ضروب الفسق والخسة، وتعشش فيه الأمراض المرعبة التي كان السجناء يحملونها إلى المحكمة.

فتنطلق في بعض الأحيان من قفص الاتهام إلى رئيس المحكمة نفسه وتنتزعه من على منصته ولقد اتفق غير مرة أن لفظ القاضي ذو القلنسوة السوداء الحكم على نفسه بالهلاك بمثل اليقين الذي لفظ به الحكم على المتهم، بل وقضى نحبه قبله وفي هذا عدا ذلك كان أولد بيلي شهيراً كفاء فندق ينطلق منه المسافرون الشاحبو الوجوه انطلاقاً موصولاً، على متون العجلات والعربات، في رحلة رهيبية إلى العالم الآخر: مجتازين نحو ميلين ونصف من المشوار والطرق العامة، مخجلين قلة قليلة من المواطنين الصالحين، إن كان ثم أحد من هؤلاء ما أقوى الألفة، وما أشد الرغبة في أن تكون ألفة صالحة في بادئ الأمر وكان معروفاً أيضاً بما يدعونه المشهر الذي يعتبر إحدى المؤسسات العتيقة الحكيمة المنزلة بضحاياها عقوبة ليس في مقدور أحد أن يتنبأ بمداها، ومعروفاً كذلك بعامود الجلد، وهي مؤسسة عتيقة عزيزة أيضاً، توقع في نفس المرء مقداراً من الإنسانية والرقعة يجعل من العسير عليه أن ينظر إليها وهي تعمل وبذلك الصفقات التجارية الواسعة التي تجري بعملة الدم، وهي قطعة أخرى من الحكمة الشلف المؤدية على نحو نظامي إلى أبشع الجرائم الدنيئة التي يمكن اقترافها تحت قبة السماء وعلى الجملة، فقد كان أولد بيلي في ذلك العمل مصداق للقاعدة القائلة كل ما هو كائن، هو عدل وإنه لقول مأثور وشق الرسول طريقه وسط الحشد الدنس؛ المتناثر هنا وهناك في هذا المسرح السمج، ببراعة رجل تعود أن يشق طريقه في سكون وانتهى إلى الباب الذي يبتغيه، وقدم الرسالة التي يحملها من خلال فرجة فيه ذلك أن الناس كانوا في ذلك الزمان يدفعون المال ليشهدوا الرواية الممثلة في أولد بيلي.

كما كانوا يدفعون المال ليشهدوا الرواية الممثلة في مستشفى بدلام الخاص بالمجاذيب سواء بسواء وإن تكن التسلية الأولى أمتع وأعلى وهكذا كانت جميع أبواب أولد بيلي تحت الحراسة، باستثناء تلك الأبواب الاجتماعية التي يدخل منها المجرمون إلى هناك، طبعاً، فقد كانت مفتوحة دائماً على مصاريحها وبعد شيء من التلكؤ والتردد دار الباب على مفاصله في تبرم دورات جزئية من مستر جيرى كرائنتشر من أن يقحم نفسه خلاله، بشق النفس ويدخل المحكمة وفي همس سأل الرجل الذي وجده إلى جانبه : أية قضية هذه؟ ليس هناك قضية الآن في أية قضية سوف تنظر المحكمة بعد؟ قضية الخيانة المحكمة حيث يعدم نصف إعدام، ثم ينزل عنها ويقطع أمام عينيه ، وتنزع أحشاؤه وتحرق فيما هو ينظر إليها، ثم يحتز رأسه ويقطع جسده أربع أرباع ذلك هو الحكم فقال جيرى، من باب الاحتراس : تريد أن تقول، إذا وجدوه مذنباً فأجابه الآخر : سوف يجدونه مذنباً لا تقلق من هذه الناحية وهنا بصر كرائنتشر بالحاجب يشق طريقة إلى مستر لوري، والرسالة في يده كان مستر لوري جالساً إلى إحدى الطاولات وسط الرجال ذوو اللمم المستعارة؛ غير بعيد عن محامي المتهم وكانت أمامه رزمة كبيرة من الأوراق، وقبالة رجل آخر ذي لمة مستعارة كان واضعاً يديه في بعض جيوبه، مركزاً كامل انتباهه فيما يبدو لحظ نظر إليه مستر كرائنتشر، في ما بعد على سقف المحكمة وبعد أن أطلق جيرى بعض السعال الف وفرك ذقنه وأوماً بيده وفق إلى أن يلفت انتباه مستر لوري الذي كان قد وقف ليبحث عنه، ثم حنى رأسه في رفق وعاود الجلوس.

وتساءل الرجل الذي سبق لجيري أن خاطبه: وما علاقته بهذه القضية؟ فقال جيري: لعنني الله إن كنت أعرف وما علاقتك أنت بها، إذن، إن كان لامرئ أن يسأل؟ فقال جيري: لعنني الله إن كنت أعرف ذلك أيضا وقطع الحوار دخول القاضي وما تلا ذلك من جلبة ثارت في المحكمة ثم ما لبثت أن خمدت وفي الحال غدا قفص الاتهام النقط الأهم في المحكمة.

حدق كل من في المحكمة إلى وجه المتهم، ما خلا ذلك الرجل ذو اللمة المستعارة الذي كان ينظر إلى السقف وتدافعت نحوه جميع الأنفاس البشرية التي احتواها المكان فكأنها موج، أو ريح، أو نار وامتدت الأعناق المتلهفة حول الأعمدة والزوايا لكي تلقي نظرة عليه ووقف النظارة في الصفوف الخلفية لكي لا تفوتهم شعرة منه ووضع القوم الواقفون في صحن المحكمة أيديهم على أكتاف القائمين قدامهم لكي يتمكنوا، على حساب أي إنسان، من أن يشاهدوا المتهم، فهم ينتصبون على رؤوس الأصابع، ويرتقون الرفوف، ويقفون على لا شيء تقريباً، لكي يبصروا كل بوصة منه وعلى نحو بارز وسط هذه المجموعة الأخيرة وقف جيري مثل قطعة من جدار نيوجيت المستن دبت فيه الحياة، مصوباً إلى المتهم أنفاساً تفوح منها ريح الجعة التي احتساها في طريقه إلى المكان، فهي تمتزج بأمواج من جعة أخرى، ومن شرار إلى جن، والشاي والقهوة، واضرابها مما كان يطفو نحوه ويندفع في اتجاه النوافذ القائمة خلفه على شكل ضباب وندى يعوزهما الصفاء.

وكان هدف هذا التحديق كله والجلبة كلها شاب في نحو الخامس والعشرين، حسن البنية، بهي الطلعة، ذو خدين لوحتهما الشمس وعينين داكنتين كان سيداً تضر العود، وكان يرتدي ثوباً بسيطاً أسود، أو رمادياً داكناً جداً، وكان شعره الطويل الفاحم مضموم في عصابة عند مؤخر عنقه وواضح أنه فعل ذلك إقصاء له عن وجهه أكثر مما فعل ابتغاء الزينة وكما يعبر أي انفعال من انفعالات الذهن عن نفسه من خلال أي غطاء من أغطية الجسد، كذلك أطل، الشحوب الذي أورثه إياه الموقف من خلال السمرة التي تعلو وجهه مظهرة ولكنه في ما عدا هذا كان رابط الجأش، ثابت الجنان، فأنحنى للقاضي، ووقف في سكون مهدداً بخطر الحكم عليه بعقوبة أقل هولا - لو إنه كان ثمة إمكانية تنج من أي جزء من أجزاء العذاب الوحشي الذي ينتظره وكان الجسد الذي أزمع سحقه على ذلك النحو المخجل هو محظ الأبصار أما الروح المزمع ذبحها وتمزيقها فكانت في تخلى عن الشعور ورغم الشوق الذي نظر به كل من الحاضرين فقد كان ذلك الشوق، في جذوره غولي.

ساد الصمت قاعة المحكمة لقد طلب تشارلز دارني، أمس البراءة من التهمة التي وجهت إليه في كثير من الطنين والرنين والتي تقول إنه قد خان مولانا الملك الموقر السامي الرفيع الخ بسبب ما أنه ناصر في مناسبات مختلفة ووسائل وطرق مختلفة الملك الفرنسي لويس في الحروب التي شنها ضد مولانا الملك الموقر السامي الرفيع الخ، وذلك بتنقله بين ممتلكات مولانا الملك الموقر السامي الرفيع وممتلكات لويس الفرنسي المشار إليه وإطلاع لويس الفرنسي هذا.

وفي خبائة ومخادعة وخيانة وغير ذلك من الملابس الشريرة، على عدد القوات التي يعدها مولانا الملك الموقر السامي الرفيع الخ للأبحار إلى كندا وأمريكا الشمالية هذا هو القدر الذي استطاع جيري أن يستنتجه في أرتياح كبير وقد غدا شعره المسماري أشد مسمارية بعد أن أهاجته أحكام القانون وزادته انتصابا وهكذا انتهى إلى أن يفهم، مداورة، أن المشار إليه أنفا، مرة بعد مرة، تشارلز دارني، واقف أمامه هناك ينتظر المحاكمة، وأن المحلفين كانوا يؤدون اليمين، وأن النائب العام كان يستعد للكلام ولم يرتعد المتهم الذي كان القوم يتصورونه والذي كان يعلم أن القوم يتصورونه مشنوقاً مقطوع الرأس، ولم يصطنع حركات أو ملامح طمأنينة بالغة، فلم تتزعزع أي ورقة من أوراق الأعشاب المنثورة عدا ذلك اللوح من موضعها وكانت قاعة المحكمة كلها قد فرشت بالأعشاب ونضحت بالخل خشية هواء السجن، وحمى السجن.

وفوق رأس المتهم كانت مرآة يقصد منها أن تعكس النور عليه ولقد انعكست عليها حشود من الأشرار والتعساء ثم زالت عن سطح وعن سطح هذه الأرض في آن معا والحق أن ذلك المكان الفظيع كما سيكتظ بالآلاف الأرواح الشاحبة الوجوه لو قدر لتلك المرأة يوماً، أن تر ما انعكس على صفحاتها من صور، كما سيلفظ المحيط ذات يوم موتاه ولعل فكرة عابرة عن الخزي والعار اللذين تلبسهما تلك المرأة قد خامرت ذهن المتهم وأيا ما كان، فقد تحرك المتهم حركة جعلته يعي شعاع النور المنطلق عبر وجهه، فرفع بصره إلى أعلى حتى إذا رأى المرأة شاع الدم في وجهه، فاضطربت يده اليمنى فدفعت الأعشاب جانبا.

واتفق أن أدارت تلك الحركة وجهه إلى جانب المحكمة القائم إلى يساره وعلى مستوى ارتفاع عينيه تقريباً جلس، في تلك الزاوية منصة القاضي، شخصان استقرت عيناه عليهما في الحال وكان ذلك فجائياً صاحبه تغير كبير في محيا المتهم إلى حد جعل جميع الأعيان الناضرة إليه تلتفت إليهما.

ورأى النظارة في هذين الشخصين سيدة صغيرة لا يزيد عمرها على العشرين إلا قليلاً ، وسيداً كان واضحاً أنه أبوها وكان ذلك السيد رجلاً ذا مظهر يلفت النظر كثيراً، فالشيب يجلل رأسه كله، والصرامة التي توصف ترين على وجهه ، وهي صرامة ليست من النوع القاسي ولكنه نوع التأمل ومناجاة النفس وكان يبدو، حينذاك، شيخاً عجوزاً أو حين كانت تنفث الغمامة عن وجهه شأنه في تلك اللحظة التي كانت ابنته واضعة إحدى يديها تحت ذراعه، فيما جلست إلى جانبه، ضاغطة بالأخرى عليها وكانت قد التصقت به بعد الذي وقع في نفسها من رعب من المشهد، وإشفاق على المتهم وكان جبينها ينطق على نحو يدعو إلى الدهشة، برعب وإشفاق متعاضمين ما كانا يريان الخطر الذي يتهدد المتهم ولقد تجلى ذلك صارخاً جداً، طبيعياً جداً حتى لقد تحركت لرؤيتهما قلوب المحققين الذين ما عرفت صدورهم الشفقة عليه وسرى همس: من هما؟.

ومد جيرى الذي كان قد كون ملاحظاته الخاصة، بطريقة الخاصة، والذي كان يلحق الصدا عن أصابعه فيما هو مستغرق في التفكير - مد عنقه لسمع من هما وكان الحشد من حوله قد ضغط السؤال ومرره إلى أقرب الحاضرين، ومن هناك ضغط ضغطة أبطأ ومر إلى الوراء حتى انتهى آخر الأمر إلى جيرى شاهدان مع أي جهة؟ ضد - ضد أي جهة؟ ضد المتهم.

وكانت عينا القاضي قد انصرفتا إلى حيث انصرفت أعين القوم جميعا، ولكنه ما لبث أن صدهما عن ذلك، وارتد، في كرسيه، وسمر نظراته على الرجل الذي كانت حياته في يده، فيما نهض النائب العام ليبرم الحبل ويشد الفأس، ويدق المسامير في المشنقة.

- ٣ -

خيبة أمل

كان على النائب العام أن يعلم المحلفين أن المتهم المائل أمامهن هو برغم صغر سنه عريق في الخيانة الوطنية عراققة تقتضي ازهاق روحه وأن اتصاله بالعدو لم يكن وليد اليوم، أو الأمس، بل لم يكن وليد العام الماضي، أو العام الذي سبقه، وأن من الثابت أن المتهم تعود، منذ فترة أبعد من هذه الانتقال من فرنسا إلى إنجلترا ومن إنجلترا إلى فرنسا في مهام سرية لم يستطع أن يبررها على نحو صادق وإنه لو كان من طبيعته الخيانة أن تزكو وتفلح (وهو شيء اثبتت الأيام، لحسن الحظ، نقيضه دائما أذن لظل الإثم والإجرام الحقيقيان، اللذان انطوى عليهما نشاطه طي الكتمان وإن العناية الإلهية قد ألهمت رجلاً لا يعرف الخوف ويتطرق إليه العيب أن يتحرى طبيعة نشاط المتهم، وأن يكشف ذلك والذعر يذهله، لكبير وزراء صاحب الجلالة ولمجلس مستشاري الدوق الموقر وإن هذا الوطني سوف يمثل أمامهم وإن مركزه ومسلكه كان على الجملة ساميين وإنه كان من قبل صديق المتهم

ولكنه ما إن اكتشف في ساعة مباركة سيئة الطالع فضيحته هذه حتى اعتزم أن يضحى بذلك الخائن، بعد أن غدا عاجزاً عن أن يضمر له أي حب، على مذهب بلاده المقدس وإنه إذا كانت التماثيل تقام في بريطانيا، كما كانت تقام في بلاد الإغريق وفي روما في العصور القديمة، لكل من أسدى خده للمجتمع، فجدير بهذا المواطن اللامع أن يفوز بتمثال منها قولاً واحداً ولكن لما كانت التماثيل لا تقام في بلادنا لأمثال هؤلاء العاملين في خدمة المجتمع فأغلب الظن أنه لن يحظى بالتمثال الذي يستحق ولا الفضيلة كما لاحظ الشعراء وعندئذ كشفت وجوه المحلفين عن أنهم يعون وعياً أثماً جهلهم المطبق لتلك القصائد هي معيارية بطريقة ما، وبخاصة تلك الفضيلة النيرة التي ندعوها الوطنية أحب الوطن وإن المثل الشامخ الذي ضربه هذا الشاهد النقي الطاهر من أجل التاج أعدى خادم المتهم، فولد فيه عزيمة مقدسة على أن يتحر.

جيوب سيده وأدراج طاولاته وأن يخفي أوراقه وإنه أي حضرة النائب العام يتوقع أن يسمع تحقيرة لهذا الخادم المعجب وأنه على الجملة يؤثره على إخوته وأخواته أي أخوة النائب العام وأخواته ويعظمه أكن مما يعظم أباه وأمه أي أبا حضرة النائب العام وأمه وإنه يدعو، في ثقة، هيئة المحلفين إلى أن تحذو حذوه فتكرم هذا الخادم وتجله وشهادة هذين الشاهدين، مشفوعة بالوثائق التي اكتشفها والتي سوف تقدم إلى المحلفين، تكشف عن أن المتهم كان مزوداً بلوائح عن قوات جلال وتنظيماتها واستعداداتها ، في البحر والبر جميعاً، ولا تدع مجالاً للشك في أنه تعود إنشاء مثل هذه المعلومات إلى دولة معادية وإنه ليس من الممكن إقامة الدليل على أن هذه اللوائح كتبت بخط المتهم ولكن ذلك لا يقدم البتة ولا يؤخر.

بل إنه في الواقع ادعى إلى إدانة المتهم إذ يظهر مدى براعته في التحفظ والاحتياط وأن الأدلة ضده ترقى إلى خمس سنوات خلت، وتكشف عن أنه شرع يقوم بهذه الرحلات المهلكة خلال الأسابيع القليلة التي تصرمت قبل اشتباك القوات البريطانية والقوات الأمريكية أول مرة وإن المحلفين، لهذه الأسباب كلها، ولأنهم محلفون موالون للتاج كما يعرف هو جيداً ولأنهم محلفون مسؤولون وسائدهم، وأنهم لن يقبلوا أن تضع زوجاتهم رؤوسهن على وسائدهن وأنهم لن يحتملوا التفكير في أن أطفالهم يضعون رؤوسهم على وسائدهم؛ وبكلمة موجزة أنه لن يكون في إمكانهم أو إمكان أهلهم به اليوم أن يضعوا رؤوسهم على وسائدهم إلا إذا احتز رأس المتهم وختم النائب العام كلامه بأن طلب منهم رأس المتهم، باسم كل ما استطاع أن يفكر به من المحامد والفضائل، وعلى أساس من اعتقاده الجازم بأنهم انتهوا إلى أن يعتبروا المتهم، منذ الآن، وكأنه قد مات وفارق العالم.

حتى إذا كف النائب العام عن الكلام سري في أرجاء القاعة ، فكأن حشد من الذباب الأزرق الضخم كان يحوم حول الميت ارتقاباً لما سينتهي إليه بعد قليل من سوء المصير ولم يكد ذلك الأزيز يتلاشى حتى برز الوطني النقي الذي لا يأتيه الدنس من بين يديه ولا من خلفه ، في موقف الشهود.

وعندئذ شرع وكيل النيابة، على هذي من رئيسه، يستجوب ذلك السيد الوطني الذي يدعى جون بارساد والذي جاءت قصة نفسه الطاهر منطبقة تمام الانطباق على وصف النائب العام لها؛ والواقع أنه لا عيب في ذلك الوصف إلا أنه أدق مما ينبغي ولم يكد بارساد يحرر صدر النبيل من هذا العيب عيب الشهادة حتى هم بالانصراف ولكن الرجل ذا اللمة المستعارة، الواضع أمامه ركاماً من الأوراق

والجالس غير بعيد عن مستر لوري، طلب أن يوجه إلى الشاهد بعض الأسئلة كان الرجل ذو اللمة المستعارة القاعد قبالاته، لا يزال يحدق إلى سقف المحكمة هل كنت في يوم من الأيام جاسوسا ؟ لا، وإني لأزدرى هذا الدس غير المباشر أين كانت ممتلكاتك ؟ لا أذكر على وجه الدقة أين كانت ومم كانت تتألف؟ ليس هذا من شأن أحد هل ورثتها؟ -أجل لقد ورثتها ممن؟ - من نسيب لي بعيد أهو بعيد جداً؟ في أغلب الظن هل سجننت في يوم من الأيام؟ لا، طبعاً ألم تدخل سجن المدينين في يوم من الأيام؟ أنا لا أرى أية علاقة لذلك بهذه الدعوى أعيد عليك السؤال، ألم تدخل سجن المدينين قط ؟ بلى، دخلته كم مرة؟ مرتين أو ثلاث مرات الا خمس مرات أو ست مرات؟ ربما ما صنعتك ؟ سيد كثير ؟ لا هل رfst من أعلى السلم؟ لا، من غير شك لقد رfst يوماً عند أعلى السلم وتدرجت حتى أدناه من تلقاء نفسي هل رfst في تلك المناسبة لخداعك في المقامرة؟ لقد زعم الكاذب السكران الذي هاجمني هذا الزعم، ولكنه غير صحيح.

-أتقسم على أنه غير صحيح؟ أجل، أقسم أتعيش على الغش في المقامرة؟ لا هل تعيش على القمار؟ شأني في ذلك شأن غيري من السادة، لا أكثر هل اقترضت من المتهم مالا، في يوم من الأيام؟ نعم هل أعدته إليه؟ لا ألم تكن هذه الألفة مع المتهم طفيفة في الواقع، فرضت عليه في العربات والفنادق والمراكب البحرية؟ لا هل أنت واثق من أنك رأيت هذه اللوائح مع المتهم؟ لا ألم تأت بها بنفسك، مثلاً ؟ لا أنتوقع أن تفوز بشيء نتيجة لهذه الشهادة؟ لا.

-ألا تتوقع أن تفوز بعتاء نظامي تقدمه إليك الحكومة لقاء نصب الأشرار للناس؟

-أوه، معاذ الله أو لقاء القيام بشيء ما؟ أوه، معاذ الله أتقسم على ذلك؟ أيماننا متعددة ألم يكن لك دوافع غير الوطنية الخالصة؟ مطلقا وشق الخادم المفضل، روجر كلاي، طريقه إلى القضية بأن أقسم اليمين في سرعة بالغة فقد التحق في خدمة المتهم، ببساطة وحسن طوية، منذ أربع سنوات لقد سألت المتهم، وكاننا على متن زورق من زوارق كالليه، ما إذا كان في حاجة إلى خادم حاذق فألحقه المتهم في خدمته إنه لم يلتمس من المتهم أن يستخدمه على سبيل الاحسان وعمل الخير، لا فهو لم يفكر قط في ذلك وما هي إلا فترة حتى أنشأ يشك في المتهم ويراقبه مراقبة شديدة وفيما هو يرتب ملابسه أثناء أسفاره رأى؛ أمثال هذه اللوائح في جيوب المتهم، مرة ومرة لقد أخرج هذه اللوائح من درج منصدة المتهم إنه لم يضعها هناك، قبل ذلك، بيده إنه رجل يحب بلاده، فلم يحتمل ذلك، فنقل النبأ إلى الدوق المسؤول إنه لم يتهم في يوم من الأيام بسرقة إناء فضي للشاي ولا نسبت إليه سرقة إناء خردل، أما الشاهد الأخير فقد عرفه سبع سنوات أو ثماني سنوات وكان ذلك مجرد مصادفة وهو لا يصف تلك المصادفة بأنها غير بشكل خاص فمعظم المصادفات تحمل طابع الغرابة بل هو لا يعتبر اندفاعه بدافع الوطنية الصحيحة وحدها مصادفة غريبة أيضاً فهو بريطاني مخلص، وهو يرجو أن يكون في البلد كثير مثله.

وأثر الذباب الأزرق كرة أخرى، ودعا النائب العام مستر جارفيس لوري هل أنت موظف في مصرف تلسون، يا مستر لوري؟ نعم

-هل قضت أعمالك أن تسافر بمركبة البريد ما بين لندن ودوفر في مساء يوم من أيام الجمعة من شهر نوفمبر سنة ألف وسبعمائة وخمس وسبعين؟
نعم - هل كان في مركبة البريد مسافرون آخرون؟ كان فيها مسافران هل غادرا المركبة في بعض الطريق، أثناء الليل؟ نعم، لقد فعلا
أنظر إلى المتهم، يا مستر لوري هل كان واحداً من ذينك المسافرين؟ أنا لا أستطيع أن أجزم بذلك جميعاً نعتصم بالتحفظ والاحتباس إلى أبعد الحدود بحيث يتعذر علي أن أزع ذلك أيضاً مستر لوري، أنظر إلى المتهم كرة أخرى افرض أنه تدثر على طريقة ذينك الشاهدين، فهل تجد في حجمه وقامته شيئاً يجعل من غير المحتمل أن يكون واحداً منهما؟ لا أنت لا تقسم يا مستر لوري، أنه لم يكن واحداً منهما؟ لا إذن، فأنت تقول، على الأقل، إن من الجائز أن يكون واحد منهما؟ أجل باستثناء أنني أذكر أن كلاهما كان مثلي أنا مذعور من قطاع الطرق، وهذا المتهم لا تبدو عليه امارات الذعر، البتة.

-هل قدر لك أن ترى ذعراً مزوراً، يا مستر لوري؟ لقد رأيت ذلك من غير شك

-مستر لوري أنظر إلى المتهم كرة أخرى أتذكر جيداً أنك رأيته من قبل؟ نعم، متى؟ كنت عائداً من فرنسا بعد بضعة أيام وفي كاليه ركب المتهم متن السفينة التي عدت بواسطتها، واشترك معي في الرحلة في أي ساعة ركب متن السفينة؟ بعد منتصف الليل بقليل لقد اتفق أن كان هو المسافر الوحيد دع مسألة الاتفاق هذه جانباً، يا مستر لوري لقد كان هو المسافر الوحيد الذي ركب متن السفينة في أشد لحظات الليل حلكة؟.

نعم هل كنت مسافر وحدك ، يا مستر لوري، أم مع رفيق ما؟ مع رفيقين سيد
وسيدة إنهما هنا إنهما هنا هل تحدثت مع المتهم حديثاً ما؟

لم أتحدث معه إلا بضع كلمات كان الجو عاصفاً، وكانت الرحلة طويلة وشاقة
ولقد اضطجعت على إحدى الأرائك من الشاطئ إلى الشاطئ، تقريباً

- مس مانيت ووقفت السيدة الصغيرة التي اتجهت إليها العيون كلها من قبل والتي
عادت فاتجهت إليها الآن من جديد ونهض أبوها معها فأبق يدها تحت ذراعه

- مس مانيت، أنظري إلى المتهم.

وكانت مواجهة هذا الإشفاق كله، وهذا الشباب الغض والجمال الفاتن أشق على
الرجل المتهم من مواجهة الحشد كله وإذ وقف تلك اللحظة مواجهاً إياها ورجلاه
على حافة القبر، فقد عجز جميع الحضور المحقق إليه عن أن يحمله على
الاعتصام بالسكون الكامل فراحت يده اليميني توزع الأعشاب التي أمامه على
مساكب زهور وهمية في حديقة ما وكانت الجهود التي بذلها لضبط أنفاسه وجعلها
مطرودة قد أرعشت شفتيه اللتين فر اللون منهما إلى القلب وعلا أزيز الذباب
الضخم كرة أخرى.

-أين على متن السفينة التي أشير إليها منذ قليل، يا سيدي، وفي المناسبة نفسها
أأنت السيدة الصغيرة التي أشير إليها اللحظة؟ أوه أنا هي مع الأسف الشديد وذاب
صوتها المحزون في صوت القاضي الأقل موسيقي فيما كا يقول شيئاً في ضراوة
: أجب على الأسئلة الموجهة إليك ولا تعلق عليها تعليقاً ما.

-مس مانيت، هل تحدثت مع المتهم في تلك الرحلة عبر القناة؟ نعم، يا سيدي
أعيدي ذلك على مسامعنا ووسط سكون عميق استهلت الكلام في خفوت :
عندما ركب السيد متن السفينة.

فسألها القاضي مقطباً حاجبيه : تعين المتهم؟ نعم، يا سيدي - عندما ركب المتهم
السفينة لاحظ أن أبي والتفتت إليه فكان واقفاً إلى جانبها، كان متعباً جداً، وفي
حال من الاعتلال الصحي شديد والواقع أن صحة أبي كانت منهارة إلى درجة
خشيت معها أن أخرجه إلى الهواء الطلق، وكنت قد وضعت له فراشة على ظهر
السفينة قرب السلم المؤدية إلى غرف المسافرين، وجلس إلى جانبي على ظهر
السفينة لكي أقوم بخدمته ولم يكن ثمة مسافرون آخرون، تلك الليلة، غيرنا نحن
الأربعة وكان المتهم من اللطف بحيث التمس مني الإذن بأن يرشدني كيف أقي
والدي من أذى الريح وتقلب الجو فأبدى لطفاً كثيراً نحو أبي وعناية كبيرة به،
وأنا واثقة من أنه كان مخلصاً في ذلك وهكذا بدأنا نتحدث معه.

دعيني أقاطعك لحظة هل وفد على السفينة وحده؟ لا كم شخص كان معه؟ سيدان
فرنسيان هل تبادلوا الأحاديث؟ لقد تبادلوا الأحاديث حتى اللحظة الأخيرة عندما
اضطر السيدان الفرنسيان إلى مغادرة السفينة والمضي في زورقهما.

-هل تبادلوا أوراق تشبه هذه اللوائح ؟ لقد تبادلوا بعض الأوراق ؛ ولكني لا
أعرف ماهيتها مثل هذه شكلاً وحجماً ؟ جائز ولكني في الحق لا أدري على الرغم
من أنهم وقفوا يتهامسون على مقربة مني: لأنهم وقفوا عند أعلى السلم المؤدي
إلى غرف المسافرين ليفيدوا من ضوء المصباح المتدلي هناك كان مصباح
ضعيف النور، وكانوا يتحدثون في صوت خفيض جداً.

فلم أسمع ما قالوا ولم أرهم يفعلون شيئاً غير النظر إلى الأوراق والآن، لنعد إلى حديث المتهم معك ، يا آنسة مانيت

-كان المتهم صريحاً في ثقته بي ونشأ ذلك رثاءً لحالي البائسة كما كان لطيفاً كريماً مع أبي، مفيداً له، وإني لأرجو، قالت ذلك وانفجرت بالبكاء، أن لا أكافئه على معروفه هذا بالإساءة اليوم وانطلق الأزيز من الذبابات الزرق اداؤها والتي لا مفر لك من أدائها في نفور بالغ، فتقي أنه يتفرد بذلك بين الحاضرين جميعاً تابعي، أرجوك.

لقد أخبرني أنه مسافر في مهمة ذات طبيعة دقيقة وعسيرة، فهي قد تورث الناس بعض المتاعب، وأنه من أجل ذلك مسافر باسم مستعار وقال إن هذه المهمة قد حملته في مدى أيام قليلة على الذهاب إلى فرنسا وقد تحمله على التنقل ما بين فرنسا وإنجلترا حيناً بعد فترة طويلة من الزمان هل قال شيئاً عن أمريكا، يا آنسة مانيت؟ كوني دقيقة لقد حاول أن يشرح لي كيف نشأ ذلك النزاع، وقال إن من الخطل والبلاهة في ما يخیل إليه أن تقف إنجلترا هذا الموقف وأضاف، على نحو هازل، إن من الجائز أن يكتسب جورج واشنطن اسماً عظيماً في التاريخ يكاد يعدل اسم جورج الثالث ولكن لم يكن ثمة إساءة في قوله ذاك لقد أطلقه على سبيل المزاح، وإضاعة للوقت.

إن من دأب التعبير القوي المرتسم على وجه الممثل الرئيسي في مشهد بالغ المتعة شديد الأسر تركزت عليه عيون كثيرة أن ينطبع شعورياً على وجوه النظارة والواقع أن جبينها وهي تؤدي الشهادة كان ينضح بالصدق والقلق الأليم

فكانت تراقب أثر ذلك في محامي الدفاع ومحامي الاتهام خلال الفترات التي كان القاضي يدون فيها كلماتها وعلى جباه النظارة ارتسم الانطباع نفسه في أرجاء المحكمة كلها لكأن تلك الجباه الكثيرة كانت مرايا تعكس صورة الشاهدة ثم إن القاضي رفع بصره عن أوراقه ليحديق إلى تلك الهرطقة الهائلة التي أطلقها الفتاة عن جورج واشنطن.

وأوماً النائب العام إلى القاضي يقول إنه يرى ضرورياً، من باب الاحتياط والحفاظ على الشكل، أن يدعى والد السيدة الصغيرة، الدكتور مرة واحدة حين زارني في بيتي بلندن منذ ثلاث سنوات ونصف.

-هل تستطيع أن تعرفه كرفيق لك في الرحلة على متن السفينة، تعلمنا بشيء عن حديثه مع ابنتك؟ لست قادراً لا على هذا ولا ذاك، يا سيدي هل ثمة أي سبب خاص يجعلك غير قادر على ذلك؟ وفي صوت خفيض، أجاب: أجل، هناك سبب -هل كان من سوء حظك أن تتحمل سجنًا طويلاً، من غير محاكمة، بل لغير ما تهمة، في وطنك الأول، يا دكتور مانيت وفي نبرة نفذت إلى كل قلب، أجاب: سجن طويل.

-هل كنت حديث عهد بالحرية عند وقوع الأحداث المتصلة بها القضية؟

ذلك ما يقولونه لي ألا تذكر تلك المناسبة ولو ذكره بسيطة؟

لا، إن ذهني أشبه بالصفحة البيضاء في ما يتصل بالأحداث التي وقعت ابتداء من وقت ما بل إنني لا أستطيع أن أعين هذا الوقت أيضاً عندما أخذت، وأنا في غياهب السجن، بصنع الأحذية.

حتى ذلك الوقت الذي وجدته في عائشة بلندن مع ابنتي العزيزة هذه كانت قد غدت مأنوسة عندي حين رد الله الكريم قواي العاقلة إلي ولكني أدري بحال كيف غدت مأنوسة عندي أنا لا أذكر من هذه العملية شيئاً وقعد النائب العام وقعد الأب وابنته مع وهنا نشأ حادث غريب ذلك بأن الاتهام كان يرمي إلى اثبات هذه خلت، وخرج من المركبة تحت جنح الظلام، كالأعمى، عند موضع ايمكث فيه ولكنه رجع منه عائداً نحو اثني عشر ميلاً أو أكثر إلى مقر إحدى الحاميات العسكرية وحوض لبناء السفن حيث جمع ما يبتغ من معلومات وكان أحد الشهود قد مثل بين يدي القاضي ليثبت أن المتهم كان في ذلك الوقت عينه في غرفة القهوة في فندق بتلك البلاد التي فيها حوض السفن والحامية العسكرية، حيث انتظر شخصاً آخر وكان محامي الدفاع يستجوب هذا الشاهد على غير طائل، باستثناء أنه لم ير المتهم قط في أي مناسبة أخرى، عندما خط الرجل ذو اللمة المستعارة، الناظر أبداً إلى سقف المحكمة، كلمة أو كلمتين على قصاصة من الورق، ثم كورها وقذف بها إليه حتى إذا فتح محامي الدفاع هذه القصاصة، أثناء فترة التريث التالية، نظر في كثير من الفضول إلى المتهم.

أتصر على القول إنك واثق كل الثقة أن ذلك الرجل هو المتهم؟ فأجاب الشاهد أنه واثق كل الثقة هل رأيت قط أي رجل يشبه المتهم شَبهاً عظيماً؟ فقال إنه لم ير أحداً شبيهاً به إلى درجة تجعل الشخصين يتشابهان أنظر إذن إلى ذلك السيد، إلى صديقي العالم الذي هناك، وأشار إلى الرجل الذي قذف نحوه بقصاصة الورق ما قولك؟ أهم متشابهان تشابهان عظيماً؟ وبصرف النظر عن مظهر صديقي العالم، المهمل، إن لم نقل مظهره العرييد

فقد كان كل منهما عند المقارنة، شبيهاً بالآخر إلى حد أوقع الدهشة لا في نفس الشاهد فحسب، بل في نفوس النظارة جميعاً حتى إذا طلب من القاضي أن يسأل صديقي العالم عن لمتة المستعار ثم يتهم صديقي العالم بعد ذلك بتهمة الخيانة؟ ولكن مستر سترافير أجاب القاضي بقوله :لا؛ ولكنه يريد أن يسأل الشاهد أن يخبره ما إذا كان الشيء الذي يقع مرة قد يقع مرتين، وما إذا كان شديد الثقة بكلامه لو أنه رأى قبل ذلك بقليل هذا الدليل على تهوره، وما إذا كان لا يزال واثقاً من صحة ما قال بعد رؤيته ذلك الدليل، وغير هذا مما سحق ذلك الشاب مثل آنية من فخار، وأحال دوره في الدعوى إلى حطام.

وكان مستر كراننشر قد أصاب، خلال تتبعه أقوال الشهود، غداً موفور من الصدا الذي على أصابعه وكان عليه الآن أن يصغي في شرع مستر سترافير يشرح قضية المتهم على مسامع المحلفين، وكان يلبسهم حلة محكمة التفصيل، مظهراً لهم أن الوطني، بارساد، كان جاسوساً وخائناً مأجوراً، ومتاجراً بالدماء لا يعرف وجهه الخجل وواحداً من أكثر أهل الأرض خسة منذ يهوذا اللعين الذي يشبه الشاهد شبيهاً كبيراً وإن كلاي، الخادم المفضل، كان صديقه وشريكه وأنه بذلك جدير وإن عيون هذين المخادعين الشاهدين زوراً، اليقظة التمسست ضحية فاستقرت آخر الأمر على المتهم لأن بعض الشؤون العائلية في فرنسا، إذ كان ذا محتد فرنسي، اقتضته القيام بتلك الأسف عبر القناة، وإن تكن حرمة الآخرين من أقربائه والأثيرين لديه حالت بينه وبين البوح بها ولو كلفه هذا الكتمان حياته وإن الشهادة التي انتزعها انتزاعاً من فم السيدة الصغيرة، التي بدا تألمها للادلأء بها واضحاً لكل ذي عينين، لا تنطوي على غير مجاملة وغزل بريء يقع مثله بين أي شاب وفتاة تجمع المصادفة بينهما باستثناء تلك الإشارة إلى جورج واشنطن، الذي كانت ممعناً في الغلو.

وفي الاستحالة إلى حد يجعل من المحتم اعتبارها مجرد نكتة راعية وإن من العار على الحكومة أن تحاول اكتساب شعبية من طريق استثمار أخط المخاوف الوطنية، وهذا الذي يشوه أمثال هذه الدعاوى في كثير من الأحيان، والذي به تحفل جلسات المحاكم في هذه البلاد ولكن القاضي قاطع، هنا، محام الدفاع وقد قطب وجهه وكأن هذا كله لم يكن صحيحاً قائلاً إنه يستطيع أن يجلس على كرسي القضاء ويسمع مثل هذا التعريض القاسي ثم إن مستر سترافير استدعى شهوده القلائل، وكان على مستر كرانشر أن يصغي فيما أمسك النائب العام بالحلة التي أحكم مستر سترافير إلباسها للمحلفين، وقلبها ظهراً لبطن، ذاهباً إلى أن بارس وكلاي خير مئة مرة مما ظنهما، وأن المتهم شر مئة مرة مما ظنه، وأخيراً جاء دور حضرة القاضي نفسه وانشأ يقلب الحلة بطناً لظهر حيناً، نازعاً على العموم نزعة وطيدة نحو تشذيبها وإحالتها كفنّاً للمتهم وهنا انصرف المحلفون للتداول في القضية، وطوف الذباب الأزرق الضخم كرة أخرى.

وبرغم هذا الاهتياج، لم يغير مستر كارتون، الذي سلخ تلك الفترة الطويلة كلها ناظرة إلى سقف المحكمة، لا مكانه ولا مسلكه ففيما كان صديقه العالم، مستر سترافير، يجمع أوراقه أمامه ويتهامس مع أولئك الجالسين إلى جانبه، ويختلس بين الفينة والفينة نظرة إلى المحلفين وفيما كان النظارة يتحركون قليلاً أو كثيراً ويتحلقون من جديد؛ وفيه نهض حضرة القاضي نفسه عن كرسيه وراح يذرع المنبر في تودة جيئة وذهاباً، وقد جال في أذهان النظارة أنه في حال من القلق المحموم فيما كان ذلك كله جلس الرجل المفرد مرتداً إلى الوراء، وقد غادر نصف ثوبه الممزق جسده، واستقرت لمتة المستعارة غير النظيفة على رأسه.

حيث اتفق لها أن تستقر بعد نزاعها، ووضع يديه في بعض جيوبه وتسمرت عيناه على السقف شأنهما طوال النهار وكان في مسلكه تهور وطيش لم يخلعا عليه هيئة غير مشرفة فحسب، بل اضعفاً أيضاً التشابه عندما نظروا إليه الآن، إن من العسير عليهم أن يقولوا إنه يشبه المتهم شَبْهاً عظيماً وأبدى مستر كرانتر هذه الملاحظة لجاره وأضاف : أراهن بنصف جنيه على أن هذا الرجل ليس من القانون في شيء إنه يبدو وكأنه على علم بشيء منه، أليس كذلك؟ ومع ذلك فقد تابع مستر كارتون هذا تفاصيل المشهد بأكثر مما بان للناس إذ ما كاد رأس الأنسة مانيت ينتس فوق صدر أبيها حتى كان هو أول من لمح ذلك، وصاح: أيها الضابط أنظر إلى تلك السيدة الصغيرة سالي الرجل على إخراجها من هنا أما ترى أنها توشك أن تقع لنا وشيعها النظارة باشفاق بالغ، ورثوا لأبيها رثاء كثيراً كان واضح إن ذكرى أيامه في السجن قد أورثته ضنكاً شديداً فقد تكشف، حين استجوب، عن احتياج داخلي عنيف، وكانت تلك المسحة التأملية التي جعلته هزماً قد رانت على وجهه ، مثل سحابة ثقيلة، منذ تلك اللحظة وفيما هو يغادر المحكمة تحدث المحلفون، الذين عادوا إلى مقاعدهم واستراحوا لحظة ، بلسان مقدمهم إنهم لم يوفقوا إلى الإجماع على رأي، فهم يرغبون في الانسحاب إلى خلوة وأظهر حضرة القاضي ولعل جورج واشنطن كان ماثلاً في ذهنه بعض الدهشة لاختلافهم في الوصول إلى رأي موحد، ولكنه أعلن عن سروره بأن يخلو بعضهم إلى بعض، تحت الحراسة ، وخلا هو إلى نفسه كانت الجلسة قد استغرقت النهار كله، فإذا بمصاييح المحكمة تسرج وشاع أن المحلفين سوف يطيلون الخلوة

فانطلق الناس يلتمسون ما يسدون به رمقهم، وارتد المتهم إلى مؤخر القفص، وجلس وكان مستر لوري قد خرج عندما غادرت السيدة الصغيرة ووالدها قاعة المحكمة، ثم انقلب إليها من جديد وأوماً إلى جيري، الذي أمس تفعل ولكن يتعين عليك أن تعود حالما تقبل هيئة المحلفين حذار أن تتخلف بعدهم لحظة، لأنني أريد منك أن تنتقل الحكم إلى المصرف أنت أسرع رسول أعرفه ، ولسوف تبلغ تامبل بار قبل أن أبلغه بكثير وفي تلك اللحظة بالذات أقبل مستر كارتون ووضع يده على ذراع مستر لوري كيف حال السيدة الصغيرة؟ إنها في حال من الغم شديد، ولكن أباها يسري عنها، وخففت مغادرتها قاعة المحكمة من بلائها، ورفعت من معنوياتها.

سوف أنقل ذلك إلى المتهم فليس يليق بمصرفي جليل مثلك أن يتحدث إليه على مرأى من الناس، كما تعلم وشاع الدم في وجه مستر لوري وكأنه يعي أنه ناقش هذه المسألة فيما بينه وبين نفسه، واتخذ مستر كارتون سبيله إلى خارج المكان المخصص للمحاميين وكانت الطريق إلى خارج المحكمة تقع في ذلك الاتجاه، فتبعه جيري وكله عيون، وآذان، وشعر شائك مستر دارني وفي الحال تقدم المتهم إلى الأمام.

-من الطبيعي أن تكون مشوقاً إلى أن تسمع نبأ عن الشاهدة الأنسة مانيت إن حالها في تحسن مطرد لقد كان ما رأيته من اضطراب بلغ هو أقصاه وأسوأه آسف أعماق الأسف لأن أكون أنا السبب في ذلك هل تستطيع أن تنتقل لها هذا على لساني، وتبلغها شكري الحار؟ فقد وقف متكئاً على الحاجز، في تكاسل، وقد ولى المتهم بعض ظهره - إنني أسألك إياه تقبل شكري القلبي.

فقال كارتون وهو لا يزال مولياً المتهم بعض ظهره :ما الذى تتوقعه، يا مستر دارني؟

أسوأ الأشياء ذلك أحفل المواقف بالحكمة وأقربها إلى الاحتمال لكنه أعتقد أن انسحابهم في صالحك

وإذا لم يكن مجازاً لجيري أن يتسكع في الطريق المؤدية إلى خارج المحكمة، فقد عجز عن سماع شيء إضافي وهكذا فارقهما وهو على أعظم التشابه صورة ، وعلى أعظم التباين مزاج -وقد وقفا جنباً إلى جنب، وعكست المرأة التي في السقف رسمهما معاً

وتصرمت ساعة ونصف ساعة، تصرماً ثقيلاً، في الممرات المزدحمة بالسفلة والللصوص، على الرغم من استعانتهم على الوقت المتباطئ بالجمعة والفتائر المحشوة بلحم الضأن وكان الرسو الأجش، القاعد في غير رفه على أحد المقاعد، قد استسلم لينام ، بعد ذلك الطعام الخفيف الذي أصابه ، عندما ثارت ضجة عارمه وارتفع مد الناس السريع المصمد في السلم المؤدي إلى قاعة المحكمة فجرفه على متنه إلى هناك ولم يكذب يبلغ الباب حتى ناداه مستر لوري :جيري جيري ها أنا ذا ، يا سيدى إن على المرء أن يخوض معركة كي يرجع.

إلى هنا ها أنا ذا ، يا سيدى وقدم مستر لوري ورقة إليه من خلال الحشد وقال : عجل هم استلمتها ؟ وغمغم جيري وهو يستدير : لو بعثت اليوم برسالتك القديمة لى بعث الميت كرة أخرى، أعرف ما الذى تعنيه هذه المرة.

ولم تمكنه الفرصة من يقول أي شيء آخر، أو أن يفكر بأي شيء آخر حتى تحظى تخوم أولد ببلي ذلك بأن جمهرة النظارة تدفق إلى خارج المحكمة على نحو عارم كاد أن يرفعه عن سطح الأرض، وكأن الذباب الأزرق المخيب آماله انتشر في الفضاء بحثاً عن جيفة أخرى.

- ٤ -

تهنئة

كانت الرواسب الأخيرة من الطبخة البشرية التي كانت تطبخ هنا سحابة النهار تصفى من الممرات المضاءة بنور شاحب عندما وقف الدكتور مانيت، ولوسي مانيت ابنته، ومستر لوري، ومحامي الدفاع مس سترافير، متعلقين حول مستر تشارلز دارني الذي أطلق سراحه من لحظة يهنئونه بنجاته من الموت.

وكان من العسير على المرء، حتى ولو كان النور أسطع بكثير، أن يتبين في الدكتور مانيت، وقد استقام عوده وعلت وجهه أمارات الثقافة صانع الأحذية ذاك الذي أقام برهة في العلية بباريس ومع ذلك لم يكن في ميسور من ينظر إليه إلا أن يعيد النظر إليه مرة أخرى، ولو لم يذهب به النظر إلى الشعور بما يرين على صوته الخفيض من خفوت فاجع وعلى وجهه الكئيب من ذهول ينتابه على غير انتظام ولغير سبب واضح وبيننا كانت بعض الأسباب الخارجية، من مثل الإشارة إلى ما عاناه في سجنه الطويل، تثير دائماً هذه الحال من أعماق روحه كما حدث في المحكمة.

وكان من طبيعة تلك الحال أيضاً أن تنثور من ذات نفسها وأن تلقي على وجهه سحابة قاتمة تخيل للذين لا يعرفون خبر أنهم رأوا ظل الباستيل الحقيقي وقد خلعتة على محياه شمس يوم صائف، والباستيل على بعد ثلاثمئة ميل عنه

وكانت ابنته هي وحدها القادرة على أن تصرف عن ذهنه، كالسحرة تلك الأفكار السوداء، فقد كانت الخيط الذهبي الذي يربطه بماض ترام وراء محنته، بحاضر انبسط بعد محنته وكان الرئة صوتها، وإشراق وجهها، وللمسة يدها أثر في نفسه خير قوي دائماً تقريباً وبالرغم من أن تلك القوة أخفقت في بعض الأحيان وسقطت دون الغاية ولكن تلك الأحيان كانت قليلة نادرة، حتى أمست تعتقد أنها لن تتكرر بعد اليوم.

وكان مستر دارني قد لثم يدها في انتقاد وعرافان جميل، والتفت إلى مستر سترافير فشكره شكراً حاراً وكان المستر سترافير - وهو رجل يزيد عمره كثيراً على الثلاثين، ولكنه يبدو أكبر من سنه الحقيقية بعشرين سنة، بدين صاحب أحمر فظ، متحرر من أي عائق من عوائق الرقة له طريقة تمكنه من إقحام نفسه معنوياً وجسدياً في الجماعات والأحاديث، وتكشف أحسن الكشف عن شق طريقه في الحياة وتصعيد في مراقبها كان لا يزال يرتدي روبه ولمته، حتى حين أقبل على موكله شان طريقه بمنكبيه على نحو أخرج مستر لوري المسكين من نطاق الجمع قائلاً أنا سعيد بأنني وفقت إلى انقاذك بشرف، يا مستر دارني لقد كانت التهمة الموجهة إليك تهمة تلبس المرء عاراً كبيراً، ولكن ذلك ما كان ليقلل من احتمال نجاحها فقال موكله وقد وضع يده في يده : لقد طوقت عنقي بمنة لا أنساها مدى الحياة.

بعد أن رددت إلى الحياة لقد بذلت غاية جهدي لانقاذك ، يا مستر دارنى، وغاية جهدي تقل شأننا عن غاية جهد أي رجل آخر، في ما أعتقد وإذ كان واجباً على واحد من الجمع، كما هو واضح، أن يقول بال هي أعظم بكثير فقد قالها مستر لوري ولعله لم يقلها مجاملة، ولكن فعل ذلك ابتغاء استعادة مكانه المضيع في الحلقة فقال مستر لوري، وكان المحامي العالم بالقانون قد رده إلى مكان الحلقة كما سبق له أن صده عنه وبهذا الوصف التمس من الدكتور مانيت أن يفض هذا الاجتماع ويصدر أمره إلينا بالانصراف إلى منازلنا إن مس مانيت تبدو مريضة؛ ولقد عرف مستر دارني يوماً رهيباً.

فقال سترافير : تحدث باسمك الشخصي، يا مستر لوري أنا يزال أمامي عمل يستغرق بقية الليل تحدث باسمك الشخصي فأجاب مستر لوري: أنا اتحدث باسمي، وباسم مستر دارني واسم مس لوسي و ألا تعتقدين أن في استطاعتي أن أتكلم باسمهم جميعاً، يا مس لوسي؟ وقد وجه إليها هذا السؤال، في تأكيد، وهو ينظر إلى أبيها وكان وجه الدكتور مانيت قد تجمد إثر نظرة غريبة جداً ألقاها على دارنى: نظرة حادة ازدادت عمقاً شيئاً بعد شيء حتى غدت تقطيب اشمزاز وكراهية ليس يخلو من الخوف أيضاً حتى إذا ارتسم هذا الانطباع الغريب على وجهه شردت أفكاره وتشتتت.

قالت لوسي وهي تضع يدها، في رفق، على يده : أبي فصد ما ألم به، صداً بطيئة والتفت إليها أتحب أن نذهب إلى البيت، يا أبي؟ وفي نفس طويل، أجاب: نعم.

كان أصدقاء المتهم المطلق السراح قد تفرقوا بعد أن أوقع هو في روعهم أنه لن ينعم بالحرية تلك الليلة كانت أضواء الممرات قد أطفئت كلها تقريباً، والأبواب الحديدية توصلت في جلجلة وصرير، وكان المكان القاتم قد هجر ليتدفق عليه الناس من صباح الغد وكلهم شوق إلى حديث المشنقة، والمقر، وعمود الجلبي، والميسم وكانت مس ماني وكان مستر سترافير قد فارقهم في بعض الممرات ليشق طريقه إلى الغرفة التي يضع فيها المحامون أروابهم وكان ثمة شخص آخر ينضم إلى الجماعة أو يتبادل كلمة واحدة مع أي من أفرادها بل استند إلى الجدار حيث كان الظل أشد حلكة وكان هذا الشخص قد انسل خلف القوم، في سكون، وأنشأ يراقبهم حتى مضت العربلة لسبيلها وعندها اندفع إلى حيث كان مستر لوري ومستر دارني واقفين على الطريق المعبدة

هكذا، يا مستر لوري يستطيع رجال الأعمال أن يتحدثوا إلى مستر دارني، الآن، أليس كذلك؟

إن أحد من القوم لم يكن قد شكر مستر كارتون على الدور الذي لعبه في تلك الدعوى؛ إن أحداً منهم لم يحظ بعلم كان لا يرتد روباً، وما كان الروب ليكمل من مظهره لو لبسه.

لو عرفت أي صراع يدور في ذهن رجل الأعمال، حين يكون ذلك الذهن موزعاً بين حافز الدمثة ومظاهر الحياة العملية لأبهك ذلك وأمتعك يا مستر دارني فاحمر وجه مستر لوري وقال في انفعال: لقد أشرت إلى ذلك من قبل نحن معشر رجال الأعمال، المشتغلين في خدمة مؤسسة من المؤسسات.

لسنا سادة أنفسنا يتعين علينا أن نفكر بالمؤسسة أكثر مما نفكر في أنفسنا

فقال مستر كارتون في غير مبالاة: أعرف، أعرف لا تشر، مستر لوري أنت لا تقل عن أمثالك طيب عنصر، من غير شك بل إنني لأجرؤ على القول إنك أفضل منهم

فتابع مستر لوري غير عابئ به: وفي الواقع، يا سيدي، أنا فقال مستر كارتون: عمل؟ يا للعجب أنا لا عمل لي محزن أن لا يكون لك عمل، يا سيدي أنا أعتقد ذلك، أيضاً فتابع مستر لوري قائلاً: لو كان لك عمل إذن لكان من الجائز أن أعتني به فقال مستر كارتون: رعاك الله، أنا أحسب أنني لست أهلاً للعناية بأي عمل فصاح مستر لوري وقد غاظته هذه اللامبالاة إلى أبعد حدود الغيظ حسناً، يا سيدي إن العمل شيء صالح جداً، ومحترم جداً وإذا كان العمل يفرض على قيوده وعوائقه وفترات من الصمت يقتضيها فإن المس دارني بوصفها سيده سمحة، تعرف كيف تغفر لي هذا الموقف، يا سيدي مستر دارني، طاب مساؤك، وليباركك الله، يا سيدي أرجو أن تكون ادخرت، اليوم، لحياة سعيدة ناعمة محقة أيها الحمال وهرع مستر لوري إلى المحفة، ولعله كان غاضباً بعض الشيء من نفسه بالإضافة إلى غضبه من المحامي، فمال إلى المصرف وعندها ضحك كارتون، الذي كانت الخمر المعروفة به بورت تفوح منه والذي بدا وكأنه غير صاح تماماً، والتفت إلى دارني قائلاً: إنها لمصادفة غير هذه التي جمعتك بي وجمعتني بك ولا شك إنك تعجب لهذه الليلة التي جعلتك تقف أنت وشبيهك، على انفراد، فوق حجارة هذا الشارع فأجاب تشارلز دارني: يخيّل إليّ إنني لما أصبح، كرة ثانية، من أبناء هذا العالم.

لست استغرب ذلك فمنذ فترة قصيرة ليس غير، دفع بك دفعه بعيدة في الطريق إلى عالم آخر أنت تتكلم في وهن أنا عندما كان أولئك الحمقى يتشاورون في أي عالم ينبغي لهم أن يضعوك هذا العالم، أو عالم آخر غيره دعني أدلك على أقرب حانة تستطيع أن تتناول فيها عشاء جيداً

وشبك ذراعه في ذراعه وهبط به كتيب لودجيت إلى فليه ستريت، ليصعدا بعد من هناك شارع انتهى بهما إلى الحانة وهنا أدخلنا إلى غرفة صغيرة ما لبث تشارلز دارني أن أنعش فيها قواه بعشاء جيد بسيط وخمر طيبة بينا جلس كارتون تجاهه إلى الطاولة نفسها، وهو وضع زجاجة البورت الخاصة به، أمامه، وغلبت على وجهه سيما نصف المتغطرة.

-هل أصبحت تشعر الآن أنك رجعت جزءاً من هذا الوجود الأرضي يا مستر دارني؟ أنا مشوش إلى حد مروع في ما يتصل بالزمان والمكان ولكن حالي قد تحسنت كثيراً حتى لقد صرت أشعر بأني جزء من هذا الوجود .

-ولا ريب في أن ذلك يوقع في نفسك ارتياحاً ضخماً قال ذلك بمرارة، وملاً كأسه من جديد، وكانت كأساً كبيرة أما أنا فغاية ما أتمناه هو أن أنسى أنني جزء من هذا العالم إن عالم لا خير لي فيه غير هذه الكأس المترعة ولا خير له في وهكذا فلسنا شديدي الشبه في هذه الناحية الواقع، أنني بدأت أعتقد أننا لسنا كثيري التشابه ، أنا وأنت، في أي ناحية من النواحي.

وإذ كان تشارلز دارني لا يزال مختلط الذهن من هول ذلك النهار وإذ كان يستشعر أن وجوده هناك وهذا الرجل الخشن الجافي ليس إلا حلماء، فقد أخذته الحيرة ولم يدر بم يجيب وأخيراً لم يجب بشي البتة.

صحة من؟ نخب من؟

ولكن اسمها على رأس لسانك ينبغي أن يكون هنا؛ يجب أن يكون هناك ؛ أقسم أنه هناك

-مس مانيت، إذن وحقق كارتون إلى وجه رفيقه فيما هو يشرب نخبه ثم قذف بكأس من فوق كتفه نحو الحائط فأمست حطاماً ثم إنه قرع الجرس وطلب قدحاً آخر وقال وهو يملأ قدحه: إنها فتاة مليحة جديرة بأن تشيع حتى العربية تحت جناح الظلام، يا مستر دارني وكانت عبس و نعم مقتضبة هما كل جواب دارني إنها فتاة مليحة يتمنى المرء أن تشفق عليه وتبكي من أجله مارأيك؟ هل يستحق الفوز بهذا العطف وهذه الرقة محاكمة تتأرجح فيها روح المتهم بين الموت والحياة، يا مستر دارني؟ وهذه المرة أيضاً ، لم يجب دارني بكلام ما لقد كانت سعيدة جداً بأن تتلقى رسالتك حين حملتها إليها أنا لا أعني أنها أظهرت حبورها بالرسالة ولكني أحسب أنها كانت كذلك وكان في تلك الإشارة ما ذكر دارني بأن هذا الرفيق البغيض تطوع لمساعدته على الخروج من مأزق ذلك اليوم الرهيب فوجه الحديث نحو هذه النقطة وشكر له فضله فقال كارتون في غير مبالاة: أنا لا أريد أي شكر، ولا استحقه كان ذلك عملاً تافهاً، من ناحية، ولست أدري ما الذي حملني على القيام به، من ناحية ثانية مستر دارني، دعني أوجه إليك سؤالاً بسرور، وهذا أقل ما أقوم به جزاء خدماتك لي أظن أنني أحبك حقاً ؟ ولكن اسأل نفسك هذا السؤال، الآن لقد تصرفت وكأنك تحبني : ولكني لا أظن أنك تفعل فقال كارتون: لست أظن أنني أحبك لقد بدأت أحسن الظن كثيراً بفهمك وتابع دارني ناهضاً ليقرع الجرس:

فأجاب كارتون: لا، ليس ثمة ما يمنع ذلك على الإطلاق وقرع دارني الجرس وتساءل كارتون، أتريد أن تدفع حسابي وحسابك جميعاً؟ حتى إذا جاءه الرد إيجابياً ، قال : إذن ايتني أيها الساقى بزجاجة من الخمر نفسها، وأيقظني في الساعة العاشرة ودفع الحساب، ونهض تشارلز دارني، وتمنى له ليلة طيبة ومر بغير أن يرد التمني بمثله، نهض كارتون أيضاً وقال في وعيد كلمة أخيرة يا مستر دارني : أظنني ثم؟؟ أحسب أنك كنت تحتسي الخمر، يا مستر كارتون تحسب؟ بل أنت تدري أنني كنت احتسي الخمر إذا لم يكن بد من أن أقول ذلك، فسوف أقوله إذن فسوف تعلم أيضاً لماذا أشرب أنا كادح مخيب الأمل، به سيدي أنا لا أحفل بأي رجل على سطح الأرض، وليس على وجه الأرض رجل يحفل بي هذا مؤسف جدا كان في وسعك أن تفيد من مواهبك على نحو أفضل قد يكون هذا صحيحاً، يا مستر دارني، وقد لا يكون.

- ٥ -

ابن آوى

كانت تلك الأيام أيام سكر، وكان معظم الناس يشربون الخمر فيسرفون في الشراب والحق أن الزمان أدخل على هذه العادات تحسينات عظيمة جدا بحيث لو تحدث المرء حديثاً معتدلاً عن مقدار الخمر الذن كان الرجل الواحد يكرعه في ليلة واحدة من غير أن يسيء إلى سمعته كسيد كامل إذن لا اعتبر حديثه في هذه الأيام مبالغة مضحكة وليس من شك في أن حرفة المحاماة

لم تكن أقل تعبدًا لباخوس، من أي من الحرف الأخرى القائمة على أساس من التبحر في العلم كما أن مستر سترايفر الشاق طريقه في سرعة نحو نجاح ضخم راجح لم يكن ليتخلف عن زملائه في هذا المضمار، فهو يتقدمهم فيه بقدر ما تقدمهم في شعر السباق القانوني الأكثر جفافاً.

وكان مستر سترايفر، بعد أن لمع نجمه في محكمة الجنايات وفي الدعاوى الثانوية، قد شرع يحطم، في احتراس، الدرجات الدنيا من السلم التي يرتقيها لقد غدت الدعاوى الثانوية وجلسات محكمة الجنايات لا ترتضي بعد اليوم إلا فتاها المقدم تستقبله بذراعين مشوقتين وهكذا كان في ميسور المرء أن يرى طلعة مستر سترايفر النضرة تشق سبيلها كل يوم نحو قاضي القضاة المتربع في مجلسه بمحكمة صاحب الجلالة وقد انبثقت من بين مكبة اللمم المستعارة كما تشق زهرة دوار الشمس طريقها نحو الشمس وسط صفت حافل بالنظائر المتألقة.

وقد لوحظ في أوساط المحامين يوماً أن مستر سترايفر، برغم طلاوة لسانه وجرأته وحضور بديهته، ما كانت له تلك الموهبة التي تمكن المرء من استخلاص لباب القضية من بين ركام من البيانات الخاصة بها والتي تعد من لوازم المحامي الناجح الأساسية بيد أنه ما لبث أن صار تحسنا يلفت النظر في هذه الناحية وكلما اتسعت أعماله تعاظمت قدرته على النفوذ إلى سر الصناعة ومهما أطل السهر وأفرط في الشراب سيدني كارتون، فقد كنت تجده في الصباح عالم بدقائق القضية التي أوكلت إليه، عن ظهر قلب وكان سيدني كارتون، وهو أكسل الناس جميعاً وأقلهم حظاً في مستقبل باهر، حليف مستر سترايفر الكبير

وكانت مقادير الخمر التى يشربانها معاً ما بين موسمي القضاء كافية لأن تطفو فيها إحدى سفن صاحب الجلالة ولم يتراجع سترايفر قط في دعوى إلا وكان كارتون قاعداً إلى جانبه، وقد وضع يديه في بعض جيوبه، ويحرق إلى سقف المحكمة كانا يقومان بجولاتهما القضائية معاً خارج العاصمة، وحتى في هذه الأحوال كانا يعاقران الخمر على مألوف عاداتهما، إلى ساعة متأخرة من الليل وقد تهاشم القوم بأن كارتون كثيراً ما كان يرى عائداً في وضح النهار، إلى منزله، متسلط مترنح، وكأنه هرة فاجرة عريضة وأخيراً ذاع بين أولئك الذين تعنيهم المسألة أنه إذا كان من المتعذر على سيدنى كارتون أن يصبح في يوم من الأيام أسد، فليس من ريب في أن ابن آوى بارع إلى حد مذهل، وأنه يقدم إلى سترايفر خدمة كبيرة ضمن نطاق كفاءته المتواضعة تلك.

قال نادل الحانة الذي كلفه كارتون بأيقاظه : الساعة العاشرة، سيدي، الساعة العاشرة، يا سيدي

ما المسألة؟ -نعم يا سيدي، لقد سألتني سعادتك أن أوقظك أوه لقد تذكرت حسن جدا ، حسن جدا وبعد بضع محاولات بليدة من الاستسلام للرقاد مرة أخرى محاولات قاومها الرجل في حرق بأن أثار النار بشكل متواصل طوال خمس دقائق نهض ولبس قبعته ؛ وخرج لقد اتجه الى تامل، حتى إذا انعش نفسه بأن اجتاز مرتين طريقي كنجز بنش ووك وببير بيلدنغز مضى إلى منزل سترايفر كان كاتب مستر سترايفر الذي لم يشترك في تلك المداولات الليل قط، قد مضى إلى منزله، فقام مستر سترايفر بنفسه يفتح الباب كان ينتعل مشاية

ويرتدي جلباباً واسعاً من جلابيب النوم كشف عن نحر على نحو أدعى إلى الاستمتاع بالراحة وكانت تحيط بعينيهِ تلك السيدة الجافية، المجهدة، الذابلة، التي نألفها عند جميع المستهترين من رجال القانون، ابتداء من اللوحة التي تمثل جيفريزه حتى عصرنا هذا، ويمكن أن نتلمسها، تحت مختلف أقنعة الفن، في لوحات كل عصر مر عصور الشكر.

وقال سترايفر : لقد تأخرت قليلاً أيها الرجل الذكور لقد جئ في الميقات المألوف تقريباً لعلّي تأخرت ربع ساء ليس غير ومضيا إلى غرفة قذرة تحيط بها الكتب ، وتتناثر في جنباته الأوراق، وتضطرم في ناحية منها نار لاهبة وعلى حاجب الموق الحديدي كان إبريق ينبعث منه البخار، ووسط ركام الأوراق المتناثر، أشرقت طاولة عليها مقادير وافرة من الخمر، والبراندي، و الروم والسكر، والليمون الحامض لقد شربت زجاجتك ، في ما يبدو لي، يا سيدني شربت زجاجتين هذه الليلة، في ما أظن، كنت أتعشى مع الموكل الذي دافعت عنه اليوم، أو كنت أراه يتعشى لا فرق، فهم شيء واحد لقد كانت مسألة الشبه التي أثرتها، يا سيدني، فكرة ممتازة جداً فمن أين جئت بها؟ ومتى خطرت لك؟ لقد حسب أنه فتى بهي الطلعة، وقلت في نفسي إني خليق بأن أكون مثله لو كان لي ذرة من الحظ فضحك مستر سترايفر، حتى لقد أخذ بطنه المتعاطم قبل الألوان يعلو وينخفض تبا لك ولحظك، يا سيدني إنصرف إلى العمل، إنصرف إلى العمل وفي نكد، حل ابن آوى ثوبه، ومضى إلى غرفة مجاورة، ثم انقلب حاملاً إبريقاً كبيراً فيه ماء بارد، وحوض، ومنشفة أو منشفتين وغمر المنشفتين في الماء، ثم عصرهما عصرة جزئية ولفهما على رأسه على نحو يرعب الناظر إليه

وجلس إلى الطاولة قائلاً: لقد أصبح الآن مستعداً فقال مستر سترايفر، في حبور، وهو يقلب أوراقه : ليس عندي عمل كثير ينبغي إتمامه الليلة كم عندنا؟ مجموعتان ليس غير اعطني اسوأهما أولاً ها هي ذي، يا سيدني إبدأ العمل ثم إن الأسد استلقي على أريكة قائمة إلى جانب مائدة الشراب منهما إلى مائدة الشراب من غير انقطاع، ولكن على نحوين مختلفين فأما الأسد فكان مضطجعا واضعا يديه في الرباط المطوق خصره، يتدفأ بالنار، ويداعب بين الفينة والفينة إحدى الوثائق الثانوية وأما ابن آوى فكان عاقداً ما بين حاجبيه، مستغرقاً في عمله إلى درجة جعلت عينيه لا تفارقان الأوراق، حتى عندما كانت يده تنبسط التماساً للكأس فهي تتلمس الطريق دقيقة أو أكثر قبل أن تعثر على الكأس وتحملها إلى شفتيه ومرتين أو ثلاث مرات استعصت القضية استعصاء بالغ حتى اضطر ابن آوى إلى أن ينهض ويغمس المنشفتين في الماء البارد كرة أخرى وأثر كل حجة كان يقوم إلى الإبريق والحوض ويضع على رأسه كساء رطباً بالغ الغرابة تعجز الكلمات عن وصفه وكان في سيما الوقار التي غلبت على محياه مما جعل هينته ادعى إلى السخرية والاضحاك.

وأخيراً وفق ابن آوى إلى أن يعد للأسد وجبة متماسكة، وقدمه إليه فتناولها الأسد في عناية واحتراس وتخير منها ما حلا له مبدئياً ملاحظته عليها، يعينه ابن آوى على ذلك كله حتى إذا قتلت الوجه درساً وضع الأسد يديه في الرباط المطوق خصره، مرة ثانية، واستلقي ابتغاء التأمل والتفكير وعندئذ أنعش ابن آوى نفسه بكأس مترعة خص بها حنجرته، ومنشفة ندية خص بها رأسه، وأفرغ همته في إعداد وجبة أخرى.

ولقد قدمت هذه الوجبة بالطريقة نفسها إلى الأسد، ولم ينفض اليد منها إلا بعد أن أعلنت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل

وقال مستر سترافير : أما وقد اتممنا عملنا، ففي استطاعتك أن تصب ملء قذح من هذه الخمر يا سيدني نزع ابن آوى المنشفتين عن رأسه، الذي انبعث منه البخار أيضاً وهز أعطافه، وتثائب ؛ وارتعد، وامتلل للأمر.

أنا بارع دائماً، ألسنت كذلك؟ أنا لا أنكر ذلك ولكن ما الذي أغضبك؟ في خير اعتذاري، امثل ابن آوى أمر الأسد كرة أخرى وقال سترافير وهو يهز رأسه ويقارن ما بين حاضر زميله وماضيه أنت لا تزال سيدني كارتون القديم الذي عرفناه في مدرسة شروزبور العتيقة سيدني يا طالعة يا نازلة فأجابه كارتون متتهداً : آه، أجل أنا سيدني القديم بعينه وها هو النحس نفسه الذي لازمني في ما مضى يلازمني اليوم حتى في ذلك الحين كنت أكتب الفروض المدرسية لزملائي، مهم؟ فروضي أنا إلا في القليل النادر ولم تكن تكتبها؟ الله اعلم تلك كانت طريقتي في ما أظن وقعد واضعاً يديه في جيوبه، باسطة رجله أمامه، ناظرة إلى النار.

وقال صديقه منعطفا نحوه في تحد وتوعد، وكان الموقد هو ها الفرن الذي يصاغ فيه الجهد الدؤوب، وكان خير ما يفعل بسيدني كارتون القديم، سيدني كارتون مدرسة شروزبوري العتيقة، هو قذفه في النار تطهيراً له من داء الإهمال : كارتون، لقد كانت طريقتك تلك، ولا تزال، طريقة عرجاء إن عملك تعوزه الهمة والهدف أنظر إلي فأجاب سيدني في ضحكة أرق وأدل على انشراح الصدر : أوه كفى إضجارة، ولا تلبس ثوب الواعظ الأخلاقي.

فقال سترايفر : كيف وفق إلى ما وفق إليه من نجاح؟ كيف أعمل ما أعمله ؟
-يخيل إلى أن بعض ذلك راجع إلى أنك تستأجرنى لأساعدك ولكنك لا تضيع
وقتك بالالتفات إلي في هذه الأمور، فأنت تفعل ما تري أن تفعله لقد كنت دائماً
في الصف الأمامي، وكنت أنا دائماً في المؤخرة لقد كان علي أن أشق طريقي
إلى الصف الأمامي شقة أنا ل أولد هناك أليس هذا صحيح؟ أنا لم أشهد الاحتفال
بمولدك، ولكني أعتقد أنك ولدت هناك قال كارتون ذلك وضحك كرة أخرى، ثم
ضحكاً معاً وتابع كارتون كلامه: لقد احتللت مكانك، واحتللت مكاني أيا منا في
شروزبوري، وخلال أيامنا في شروزبوري، ومنذ أيامنا في شروزبوري حتى
الآن وحتى حين كنا زميلين في حي الطلاب بباريس نقف نص اللغة الفرنسية
والقانون الفرنسي، وغير ذلك من الفئات الفرنسي الذي لم نفد منه شيئاً كثيراً،
كنت أنت دائماً في مكان ما، وكنت أنا دائماً في لا مكان.
وغلطة من كانت تلك ؟ أقسم إنني غير واثق من أنها ليست غلطتك كنت لا تفتأ
تناضل وتزاحم وتدافع حتى سددت على المنافذ وحملتني على أن أقنع من الحياة
بالترهل والراحة ولكن مما يقبض الصدر أن يتحدث المرء عن ماضيه والصبح
يوشك أن ينبج وجه الحديث وجهة أخرى قبل أن نفترق فقال سترايفر رافعاً
كأسه : حسن إذن، فلنشرب نخب الشاهد المليحة هل اتجه بك وجهة عذبة؟ وغمغم
خافضاً بصره إلى كأسه: شاهدة مليحة لقد سمعت كثيراً من الشهود هذا النهار
وهذا المساء من هي شاهدتك المليحة؟ مس مانيت، ابنة دكتور الأسرة الجمال
اتعدها جميلة؟ أليست كذلك؟ لا ولكن، يا إلهي، لقد كانت موضع إعجاب
المحكمة كلها تبا لإعجاب المحكمة كلها

من الذي جعل أولد بيلي ممكناً في قضايا الجمال؟ إن هي إلا دمية ذهبية الشعر فقال مستر سترافير ، ناظراً إليها بعينين ثاقبتين، ماسح بيده، فى تودة، على وجهه النضر : أتعرف يا سيدني، أتعرف أني حسبت في تلك اللحظة أنك تهفو إلى تلك الدمية الذهبية الشعر، وكنت سريعة إلى رؤية ما حدث للدمية الذهبية الشعر؟ كنت سريعة إلى رؤية ما حدث ولكن إذا ما أصيبت فتاة، سو أكانت دمية أم لم تكن دمية، بالإغماء على بعد ياردة أو ياردين من أنف الرجل، فالذي أعتقده أن في ميسوره أن يراها من غير حاجة إلى تلسكوب سوف أشرب نخبها ولكني أنكر الجمال والآن لن احتس الخمر أكثر مما فعلت، ويتعين علي أن أوي إلى الفراش وحين تبعه مضيفه إلى السلم، وبيده شمعة تنير السبيل، كان النهار يطل بارداً من خلال النوافذ القذرة وحين غادر المنزل كان الهواء بارداً حزيناً، والسماء الكليّة ملأى بالسحب، والنهر مظلم قاتم، والمشهد كله أشبه بببدا لا حياة فيها وكانت أكاليل من الغبار تلتفت ههنا وهناك، قبل ربح الصباح، وكأن رمال الصحراء قد ثارت في مكان وفي جنبات نفسه قوى ضائعة، ومن حوله صحراء مترامية، وأجال النظر لحظة في الفقر الممتد أمامه فبشر بسرّاب من الطموح المشرف، وإنكار الذات، والجهد الدؤوب وفي مدينة رؤياه الجميلة كانت شرفات الدرك باللمس، أطلت منها عليه ملائكة الحب والرحمة، وجنائن تدله فيها ثمرات الحياة يانعة، وعيون الأمل التي أومضت في ناظريه وما هي إلا لحظة حتى تلاشي ذلك كله وارتقى هو سلمة مظلمة قادته إلى عالية، وسط مجموعة من البيوت الغائرة، وانطرح بثيابه على فراش مهمل، مبلل؟ الوسادة بدموعه المضيق.

أشرقت الشمس محزونة ملتاعة إنها لم تشرق قط على مشهد ادعي إلى الحزن من مشهد ذلك الرجل في المواهب النادرة والعواطف السامية، العاجز عن توجيهها وجهة فيها خيره وسعاده، الشاعر يثق ببلائه، المسلم نفسه لهذا البلاء يتأكله حتى يأتي عليه.

- ٦ -

مئات من الناس

كان البيت الهادئ الذي يسكنه الدكتور مانيت قائمة عند زاوية شار هادئ، غير بعيد عن ساحة سوهو وذات أصيل يوم من أيام الأح الجميلة، بعد أن تعاقبت على قضية الخيانة أمواج أربعة أشهر بطوله قاذفة بها في عرض اليم، طامسة على ذكراها واهتمام الناس بها، مستر جارفيس لوري من حي كلاركفيل حيث يقطن، وأنشأ يسير في الشوارع المشمسة، قاصدا إلى منزل الدكتور مانيت ليتناول طعام العشا معه وكان مستر لوري قد أمسى إثر عود متكرر إلى المصالح التجارية القديمة صديقة للطبيب وبذلك انتهى البيت القائم عند زاوية الشارع إلى أن يصبح هو الجزء المشرق في حياته في يوم الأحد الجميل ذاك اتخذ مستر لوري سبيله، عند صد الأصيل، نحو ساحة سوهو لثلاثة أسباب مألوفة أولا، لأنه كثيرة كان يخرج، في أيام الأحد صاحبة، فيتمشى قبل العشاء مع الطبيب ولوسي وثانيا لأنه تعود أن يقضي أيام الأحد العاصفة إلى جانبهما بوصفه صديق الأسرة، فهو يتحدث، ويقرأ، وتطل من النافذة

ثالثاً لأنه اتفق أن كانت بعض الشكوك الصغيرة المزعجة تخامره، وكان هذا الوقت هو أنسب الأوقات لحلها ولم يكن في لندن كلها مكان أعجب من تلك الزاوية التي كان منزل الدكتور مانيت قائماً فيها كانت مسدودة لا ينفذ المرء إلى شيء وراءها وكانت نوافذ منزل الدكتور الأمامية تشرف على رتل من الأشجار العذبة، الساجية، المرفرفة حولها ظلال العزلة الأنيسة ولم يكن آنذاك غير بضعة مبان، شمالي طريق أوكسفورد، فكانت الغابات تنمو كثيراً ملتفة وهكذا كانت نسائم الريف تطوف في سوهو بحرية وكان ضياء الصيف ينصب على الزاوية، مشرق متألق في النهار ولكن ما إن تغدو الشوارع قائضة حتى تنعم الزاوية بالظل، وفي ميسورك أن ترى من ورائه وهج الضياء كان بقعة خصرة وارفة، ساجية ولكنها بهيجة، وموطنا عجيب الأصداء، يفر إليه الناس من الشوارع الصاخبة.

وكان ذلك المرسى خليقا بأن ينعم بزورق هادئ؛ ولقد نعم بهذا الزورق حقاً، وكان الطبيب يحتل دورين من بيت ضخم واسع وكانت تمارس في النهار مهن متعددة، ولكن من غير أن يسمع أصواتها، في أي يوم، إلا النزر القليل، حتى إذا هبط الليل أمسى المكان قفر موحشاً وفي أحد المباني الخلفية التي يفضي إليها فناء تصطفق فيه أوراق شجرة من شجرات الدلب، وبين الفينة والفينة كان يجئ الرواق عامل تائه يرتدي معطفاً، أو غريب يجيل الطرف في ما حوله وكان يسمع رنين قصي عبر الفناء، أو لطمة من العملاق الذهبي وعلى أية حال، لم تكن هذه غير شواذ ضرورية لاثبات القاعدة، وهي أن الاطيار التي تحفل بها شجرة الدلب القائمة خلف المنزل والأصوات المنبعثة من الزاوية أمامه، كانت تنطلق على هواها منذ صباح الأحد حتى مساء السبت.

وكان الدكتور مانيت يستقبل المرضى وهنا على قدر ما تسوقهم شهرته القديمة، وانبعاثها في همسات القوم السائرة بقصته وكانت يقظته ، وبراعته في القيام بالتجارب البارعة قد حملت قوم كثيرين على أن يفزعوا إليه، يلتمسون الشفاء، فهو يكسب من وراء ذلك دخلاً يتكافأ مع حاجاته كانت هذه الأشياء غير غائبة عن علم مستر جارفيس لوري وأفكاره وملاحظته حين قرع جرس المنزل الهادئ القائم عند الزاوية، أصيل ذلك الأحد الرائق الجميل.

-هل الدكتور مانيت في المنزل؟ لما يأت بعد هل الأنسة لوسي في المنزل؟ لما تأتي بعد هل الأنسة بروس في المنزل؟ جائز أن تكون في المنزل لأن الخادمة ما كانت متأكدة من مقاصد الأنسة بروس: أراغبة هي في الاقرار بالحقيقة أم في إنكارها.

وعلى الرغم من أن ابنة الطبيب لم تكن تعرف شيئاً عن البلاد التي أبصرت فيها النور فقد بدت وكأنها استمدت منها، بالفطرة، تلك البراء التي تمكن المرء من أن يفيد إلى أبعد الحدود مما في متناوله من وسائل طفيفة وأسباب قليلة، وهي خصلة من أنفع خصال الفرنسيين وأحبها إلى الفؤاد فقد كان أثاث المنزل ساذج بسيط، ولكنها عرفت كيف تحل بعدد من الزخارف الصغيرة التي تنهض قيمتها على سلامة الذوق وحسد التنسيق ليس غير، فإذا هو بهيج يوقع في النفس الرضا وكان كل ما في الغرف، من أكبر الأشياء إلى أصغرها، وتوزيع الألوان، والتنوع الأنيق والمغايرة الناشئة عن الاهتمام بالصغائر والدقائق كان كل ذلك ينبئ عن يد صناع، وكان مستملحاً سائغاً في ذاته معبراً أحسن تعبير عن براعة مبدعته، بحيث ما كاد مستر لوري يقف مجيل الطرف في ما حوله حتى تراءى له

وكان الكراسي والطاولات نفسها تسائله، بشيء من ذلك الانطباع الخاص الذي انتهى الآن إلى أن يعرف أحسن المعرفة ما إذا كان ذلك يعجبه ويرضيه؟ وكانت في كل دور من أدوار ذلك المنزل ثلاث غرف وإذ كانت الأبواب التي تصل ما بينها مشرعة بحيث يتسرب الهواء إليها كلها في حرية، فقد راعه ذلك التشابه البارع الذي أحاط به من كل جانب فابتسم وانشأ ينتقل من غرفة إلى أخرى كانت الغرفة الأولى خير الغرف، فيها أطيّار لوسي، وازهار ، وكتب، ومنضدة، وطولة عمل وصندوق ألوان مائية وكانت الغرفة الثانية بمثابة عيادة للدكتور مانييت وكانت الأسرة تتناول فيها الطعام أيضاً وأما الغرفة الثالثة المرقطة على نحو غير مستقر بأوراق شجرة الدلب المصطفقة فكانت حجرة نو الطبيب، وهناك، في إحدى زواياها، انتصبت منضدة صانع الأحذية المهجور وطبق أدوات العمل كما انتصبت في الدور الخامس من ذلك.

الأعجب له كيف يبقي في متناوله هذه الأشياء التي تذكره بآلامه ولم تعجب لهذا؟ كذلك فاجأه تساؤل جعله يجفل وكان هذا التساؤل صادراً عن مس بروس، المرأة الحمراء الجلقة المفتولة التي تعرف إليها في اوتيل رويال جورج في دوفر، وتحسنت صلاته بها منذ ذلك الحين وقال مستر لوري: كان ينبغي أن أفكر فقالت مس بروس: بووه كان ينبغي أن تفكر وكف مستر لوري عن الكلام.

وهنا تساءلت تلك السيدة : كيف حالك؟ وكان في صوتها قسوة ومع ذلك، فكأنما أرادت بهذا السؤال أن تظهر أنها لا تضمّر له حقّ فقال مستر لوري، في وداعة: أنا في خير حال، أشكرك، وكيف أنتم؟

فأجابت مس بروس: لست في حال يمكن الاعتزاز بها حقاً؟ فقالت مس بروس:
آه ، حقاً أنا شديدة القلق على عصفورتى الحبيبة حقاً؟

فقالت مس بروس: إكراما لله قل شيئاً غير كلمة حق وإلا أثرت أعصابي حتى
الموت وعندئذ قال مستر لوري، معدلاً أسلوبه في الكلام فعلاً، إذن؟
فأجابت مس بروس: إن كلمة فعلاً رديئة جداً، ولكنها أفضل من سابقتها أجل،
إني شديدة القلق عليها هل أستطيع أن أسأل عن السبب؟

وهل يفد عشرات من الناس لهذا الغرض؟ فقالت مس بروس :بل مئات
وكان من دأب هذه السيدة شأن بعض الناس قبل عصرها وبعده أن تعتمد إلى
توكيد قولها الأصلي، عن طريق المغالاة فيه، إذا ما أنست من المخاطب شكاً أو
تردداً

-اعجبة وقد قال مستر لوري هذه الكلمة بوصفها آمن ملاحظة استطاع أن يفكر
فيها

فقالت مس بروس: لقد عشت مع الحبيبة - أو لقد عاشت الحبيبة معي، ودفع إلى
أجرة على ذلك وهو أمر كان لها أن تفعله من غريب، وتستطيع أن تقسم على
ذلك يميناً مغلظة، لو كان في طاقتي أن أقيم أودي وأودها بالمجان منذ أن كان
عمرها عشر سنوات وإن ذلك في الواقع لعسير جداً وإذ لم ير مستر لوري، على
وجه الضبط، أي شيء هو العسير جداً فقد هز رأسه، مستعملاً ذلك الجزء الهام
من نفسه كضرب من العبادة السحرية التي تتلاءم وكل ما توضع عليه

وقالت مس بروسن: إن مختلف صنوف الناس الذين لا يليقو بطفلي المدللة لا
يفتأون يختلفون إلى هذه الدار فحين بدأت أنه ذلك أنا بدأته ، يا مس بروس؟

ألست أنت الذي بدأته من الذي أعاد أباهما إلى الحياة؟ فقال مستر لوري: أوه إذا كان هذا هو بدايته إنه لم يكن خاتمته ، في ما أظن؟ أقول، عندما بدأت ذلك الأمر كان في غاية العسر ولست أزعم ذلك لأنني أجد في الدكتور ماني أي عيب، خلا أنه غير جدير بمثل هذه البنت وليس في هذا ما يضير حشود الناس عليه سامحه الله ابتغاء حرمانني محبة عصفورتي الجميلة وحنانها

وكان مستر لوري يعلم أن مس بروس غيور إلى أبعد الحدود، ولكن أدرك، الآن، أنها تخفي خلف عصبيتها و غرابة أطوارها، مخلوقة من تلك المخلوقات الخيرة، اللواتي يتصفن بالخيرية والايثار وهما صفتان لا تقع عليهما إلا عند النساء واللواتي لا يحجمن بسائق من الحب والاعجاب الخالصين، عن أن يجعلن من أنفسهن، طوعا واختيار، أما للشباب الذي فقدنه، وللجمال الذي لم يملكه في يوم، وللأمان الذي لم يسعدهن الزمن بتحقيقها، وللآمال التي لم تشرق شمسها قط على حيويتهن القائمة وكانت الأيام قد عركت مستر لوري بحيث صار يعرف أن ليس ثمة في العالم شيء أسمى من الخدمة الصادقة الصادرة من القلب وإذ كانت تلك الخدمة سدى على ذلك النحو، من غير أن تشوبها شائبة المنفعة، فقد أعجب بها مستر لوري وأحاطها بأعظ الاكبار، حتى لقد أنزل مس بروس في مراتب الصالحين والطالحين التي أقامها في ذهنه - وكلنا يقيم مثل هذه المراتب قليلا أو كثيرة - منزلة هم أقرب إلى الملائكة الدنيا من منازل كثير من السيدات اللواتي يمتزن علي بالفطرة والاكتساب، واللواتي لهن رصيد في مصرف تلسون.

وقالت مس بروس: لم يكن، ولن يكون غير رجل واحد لعصفورتي الصغيرة، وما ذلك الرجل غير أخي سليمان لو لم يرتكب خطأ في حياته وهنا أيضا كانت التحقيقات التي قام بها مستر لوري حول تاريخ مس بروس الشخصي قد كشفت عن أن أباها سليمان كان وغدة قاسي الفؤاد سلبها كل شيء تملكه ليقامر به في المضاربات، وغادرها في وهـد الفقر، إلى الأبد، من غير أن يستشعر شيئاً من وخز الضمير وحين رجعا إلى حجرة الاستقبال وجلسا هناك في جو من الود قال مستر لوري : ما دامت المصادفة قد جمعتنا في هذه اللحظة عل انفراد، وما دمتنا كلانا من أرباب الأعمال فاسمحي لي أن أوجه إليه سؤالاً : هل يشير الطبيب، في أحاديثه مع لوسي، أي إشارة إلى ذلك الزمن حين كان يصنع الأحذية؟ لا، إنه لا يشير إلى ذلك أبداً ومع ذلك فهو لا يزال يحتفظ بمنضدة العمل وهذه الأدوات إلى جانبه؟ فأجابت مس بروس هازة رأسها : آه،

-هل تعتقدين أنه يفكر فيه كثيراً؟ فقالت مس بروس: أعتقد ذلك ولم يكـد مستر لوري يوجه إليها سؤالاً جديدة قائلاً: ها تتخيلين حتى قطعت عليه مس بروس الطريق بقولها: أنا لا اتخيل أي شيء أنا لا أملك أي خيال البتة.

سأصحح هذا الخطأ : هل تحسبين أيذهب بك الأمر إلى حد أن تحسبي، في بعض الأحيان؟ فأجابته مس بروس : بين الفينة والفينة فتابع مستر لوري كلامه ، وقد أشرق في عينيه الساطعتين، فيما نظر إليها في رفق، بريق ضاحك هل تحسبين أن الدكتور مانيت يعرف شي عن سبب ما حل به من ظلم أو ربما عن اسم غريمه ؟ أنا لا أحسب شيئاً حول ذلك غير ما تقوله لي عصفورتي.

الجميلة أرجو أن لا تغضبي لتوجيهي هذه الأسئلة كلها إليك، لأنني مجرد رجل أعمال غبي، وأنت امرأة أعمال أيضا فتساءلت مس بروس في أناة : غبي؟ فأجابها مستر لوري، راغبة في أن يزود تلك الصفة المتواضعة عن نفسه : لا، لا، لا ولنعد الآن إلى العمل : أليس من العجيب أن يشير الدكتور مانيت وهو البريء براءة لا يتطرق إليها الشك من أي جريمة من الجرائم كما نعرف جميعا أحسن المعرفة إلى ذلك الأمر إشارة ما؟ أنا لا أعجب لعدم إثارته هذه المسألة معي، برغم العلامة التجارية التي شدتني إليه منذ سنوات بعيدة وبرغم أنا الآن صديقان حميمان ولكني أعجب لعدم إثارته إياها مع ابنته الجميلة التي يحبها حبا جمّة وتحبه حبا جما صدقيني، يا مس بروسن، أنا لا أفاتحك في هذا الموضوع، بدافع من الفضول، ولكن بدافع من الاهتمام البالغ به فقالت مس بروس وقد رقق حاشيتها الاعتذار الذي صدر عنه حسنا؛ يخيل إلي بعد التفكير العميق وقد تقول لي إن تفكيري العميق هذا سطحي أنه يخشى الموضوع كله.

-يخشى الموضوع؟ ليس عجيباً، في ما أظن، أن يخشاه إنها ذكرى رهيبة وإلى ذلك فقد نشأ فقداؤه نفسه عن ذلك وإذ كان لا يعرف كيف فقد نفس فمن الجائز أن يظل على خوف مقيم من أن يفقد نفسه كرة أخرى وها وحده كافي لأن يجعل الموضوع بغیضة إليه، في ما أرى كانت ملاحظة أعمق مما توقعه مستر لوري فقال : هذا شيء صحيح، ومن المروع أن يفكر المرء فيه ومع ذلك، فثمة شك يخامرنا با مس بروس ، وهو هذا : أليس خطرة أن يواصل الدكتور مانيت كبد فأجابت مست بروس : لا حيلة لنا في ذلك حاول أن تمس ذلك الوتر ينقلب في الحال إلى ما هو أسوأ من الخير أن ندعه وشأنه وعل الجملة.

إن علينا أن ندعه وشأنه سواء أحببنا أم كرهنا وقد ينهض أحياناً، في منتصف الليل، فنسمعه، فوق رأسينا هناك، يذرع غرفته جيئة وذهوبا، ويذرعها ذهاباً ورجيئة وقد أدركت عصفورتي الجميلة بعد ذلك أن عقله كان يذرع حجبرته جيئة وذهاباً ، ويذرعها ذهوبة و جيئة ، هناك في سجنه القديم فهي تهرع إليه ، وتذرع معه الغرفة جيئة وذهاباً وتذرع معه حتى تعاوده الطمأنينة ولكنه لا يقول لها أي كلمة عن سر هذا القلق وسببه الحقيقي، وهي ترى أن من الخير أن لا تسأله عن ذلك ولو تلميحا فقط تذرع الغرفة و إياه، في صمت، وتذرعها وإياه ، حتى يرده حبها ويرده الانس بها إلى نفسه.

وبرغم إنكار مس بروس أن تكون لها مقدرة على الخيال فقد كان في تكرارها لعبارة يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ما يؤذن بأنها تعاني آلام ناشئة عن استحواذ فكرة محزونة وحيدة على عقلها، فهي ما تفتأ تعاوده على نحو رتيب وهذا يدل على أنها تملك القدرة على الخيال ولقد سبق القول إن تلك الزاوية كانت موطناً عجيباً للاصداء وها هي الآن شرعت تردد على نحو رنان صدى وقع الأقدام المتخذة سبيلها إلى المنزل، حتى لكان مجرد الإشارة إلى ذرع الغرفة جيئة وذهاباً قد أطلق تلك الأقدام من عقالها قالت مس بروس وقد نهضت لتختتم ذلك الاجتماع ها قد أقبلنا ولسوف يفد علينا مئات الناس عما قريب كانت زاوية بالغة الغرابة، في خصائصها السمعية، بل كانت أذن ضخمة عجيبة تنقل كل صوت ونأمة فما إن وقف مستر لوري أمام النافذة المشرعة مترقباً الأب وابنته بعد أن سمع وقع أقدامهما، حتى خيل له أنها لم تصل قط ، ثم تتلاشى إلى الأبد لحظة يتراءى للمرء أنها أمست على قيد شعرة منه.

وأيا ما كان، فقد أطل الأب وابنته آخر الأمر، وهرعت معه بروس إلى الباب الخارجي المنفتح على الشارع لكي ترحب بهما كان مشهد مس بروس، برغم جلافتها واحمرارها وتقطيبيها، مشهداً ظريفاً، إذ أقبلت على قبعة حبيبته، حين ارتقت السلم، فنزعتها عن رأسها وانشأت تلامسها بأطراف منديلها، وتنفخ الغبار عنها، وتطو برنسها استعداداً لحفظها، وتداعب شعرها الخصب في مثل الاعتزاز الذي كان يمكن أن يغمرها لو كان ذلك الشعر شعرها، ولو كانت هي أجم النساء وأكثرهن محجبا وكان مشهد حبيبته ظريفاً أيضاً، وقد عانقتها وشكرتها، واحتجت على تجشيمها نفسها هذا العناء كله من أجلها وإنما فعلت ذلك، أعني الاحتجاج، على سبيل المزاح، خشية أن تجر عواطف مس بروس، وعندئذ تنقلب إلى غرفتها وتستسلم للبكاء وكان مشهد الطبيب ظريفاً أيضاً، وقد نظر إليهم جميعاً وقال لمس بروس إنه قد أفسدت لوسي بتدليلها إياها، وإن تكن نبراته ونظراته لا تقل افساداً لابنته أو تزيد إذا كان ثمة سبيل إلى الزيادة وكان مشهد مستر لوري هو الآخر ظريفاً كذلك وقد ابتسم لهذا كله، وعلى رأسه لمتة المستعار الصغيرة، شاكراً نجوميته التي هدته في أواخر أيامه إلى منزل يفيء إليه بيد أن مئات الناس لم تفد على المنزل لترى هذه المشاهد وبحث مستر لوري عن مصداق لنبوءة مس بروس، ولكن على غير طائل وحن وقت العشاء، ومع ذلك فلم تفد على المنزل مئات من الناس وفي تدبير ذلك المنزل الصغير نهضت مس بروس بعبء الدور السفلي نهوضاً بارعاً كان موضع الإعجاب دائماً كانت موائد العشاء التي تعدها من نوع متواضع جداً ولكنها كانت من سنن الطبخ، وبراعة السكب فهي ليست إنجليزية خالصة، وليست فرنسية خالصة.

لكن ما من مكان من المواطن المجاورة إلا قصدت إليها بحثاً عن فرنسي معدم تستطيع أن تغريه ببضعة شلنات فيدلي إليها بأسرار صناعة الطبخ ومن أبناء بلاد الغال المتهربين هؤلاء وبناتها اكتسبت فنوناً بارعة إلى درجة جعل المرأة والفتاة اللتين تشكلان هيئة الخدم في المنزل تنظران إليها وكأنها ساحرة، أو عرابة من عرابات ساندريلا: تطلب دجاجة، أو ديكاً، أو أرنبية، أو بعض الخضر من الحديقة، وتحيلها إلى أي شيء تريد وفي أيام الأحد كانت مس بروس تتناول طعام العشاء على مائدة الطبيب، أما في الأيام الأخرى فكانت تصر على أن تتناول وجباتها في فترات مجهولة، إما في الدور السفلي أو في غرفتها الخاصة في الدور الثاني وهي غرفة كئيبة لم يوفق لدخولها أحد غير عصفورتها الجميلة، وفي مثل هذه المناسبات، كانت مس بروس تهش وتبش إلى حد مغالى فيه استجابة لوجه عصفورتها الجميلة العذب وجهودها البهيجة لإرضائها وهكذا كان مشهد العشاء ظريفاً جداً، أيضاً.

كان نهاره قائظاً، وبعد العشاء اقترحت لوسي أن تحمل أنية الشراب إلى شجرة الدلب، فيحتسوا الخمر في ظلها، في الهواء الطلق وكانت هي محور حياة الأسرة فقد نزلوا عند رغبتها وحملت هي كأس مستر لوري وخمره، وكانت قد أقامت من نفسها، منذ حين، ساقى للجماعة حتى إذا فاءوا إلى ظل الشجرة وأخذوا بأطراف الأحاديث عنيت بأن تبقى كأسه مترعة واختلست ظهور مساكن غامضة وأطرافه النظر إليهم وهم يتسامرون؛ ومن فوقهم همست شجرة الدلب في آذانهم على طريقتهما الخاصة وتصرمت فترة صالحة، ولكن مئات من الناس لم تفد على المنزل لقد وفد مستر دارني عليهم بينا كانوا ينعمون بظل الشجرة.

ولكن دارنى لم يكن غير رجل واحد فى هذا المنزل كانت كثيرا ما تقع ضحية هذا الاضطراب، وكانت تدعوه، في الحديث العادي نوبة الانتفاضات كان الطبيب في أحسن أحواله، فهو يبدو شابا نضر العود وكان الشبه بينه وبين لوسي قويا جداً في مثل هذه الفترات وكان مما يبهج النفس أن يتأمل المرء هذا الشبه حين جلس الأب وابنته جنباً إلى جنب فأما هي فقد انحنت فوق كتفه، وأما هو فقد أراح ذراعه على ظهر كرسيها كان قد تحدث سحابة النهار في موضوعات متعددة، وفي أمر نادر وإذ انتهوا إلى الكلام على مباني لندن العتيقة فقد قال مستر دارنى وهم يستظلون بشجرة الدلب: هل لي أن أسأل الدكتور مانيت ما إن كان قد رأى شيئاً كثيراً من برج لندن؟ لقد ذهبت أنا ولوسي إلى هناك، ولكن في فترات قليلة متباعدة وشاهدنا منه ما أعلمنا أنه ممتع ظريف فقال دارنى في ابتسام، وإن يكن دم الغضب قد شاع في وجهه بعض الشيء: لقد كنت أنا فيه كما تذكر ، ولكن في حال غير حالكما، وفي وضع لم يكن ليساعدني على أن أرى شيئاً كثيراً منه لقد حدثوني وأنا هناك حديثاً عجباً فسألته لوسي: وما ذاك؟ بينا كان العمال يحدثون بعض التعديل هناك، عثروا على حجر أرضية قديمة بنيت منذ سنوات عديدة ثم نسيت كان كل حجر ما حجارة جدارها الداخلي مغطى بنقوش نقشها السجناء فيه : تواريخ واسماء، وشكاوى، وأدعية وعند أحد أحجار الزاوية نقش سجين يبدو أنه سيق إلى المشنقة فيما بعد، ثلاثة أحرف هي آخر عمل قام به في حياته وإنما فعل ذلك بأداة كليلة جدة، وعلى نحو متعجل، وفي يد قلة السجناء من تشكل هذه الأحرف أوائل اسمه الكامل فقد ذهبوا في تأويل مذاهب شتى لم يحالفها التوفيق وأخيراً ألمح بعضهم إلى أن تلك الأحرف ليست أوائل اسم من الأسماء

لكن كلمة تامة إحفر ونقبوا ما وراء النقش فإذا هم يجدون في باطن الأرض، خلف حجر أو قرميد أو قطعة من بلاط، رماد ورقة مختلطة برماد محفظة جلد صغيرة إن ما كتبه ذلك السجين المجهول سوف يظل أبد الدهر لغزاً لاسبيل إلى قراءته، ولكنه كتب شيئاً ما وخبأه لكي يظل في نجو من عيني السجناء وصاحت لوسي: بابا ، إنك مريض كان قد نهض فجاءة، واضعاً يده على رأسه وكان في مسلكه والانطباع الذي ران على وجهه ما روعهم جميعاً وقال: لا ، يا عزيزتي ، أنا لست مريضاً إن ثمة قطرات مطر كبير تهطل، ولقد جعلتني وأحسب أن من الخير أن ندخل المنزل وفي مثل لمح البصر تقريباً استعداد وضعه السوي كان المطر يهطل في قطرات كبيرة حقاً، ولقد أراهم ظاهر كفه وعليها حباً منه ولكنه لم يشر ولو بكلمة واحدة إلى الكشف الذي حدث حديثه وفيما هم يتخذون سبيلهم إلى الدار تبينت عين مستر لوري التجارية اليقظة، أو خيل إليه أنها تبينت، على وجه الطبيب، لحظة التفتت إلى تشارلز دارني، ذلك الانطباع الغريب نفسه الذي ران عليه يوم التفت نحوه في ممرات محكمة الجنايات بيد أن الطبيب استرد نشاطه في سرعة بالغة جعلت مستر لوري بعينه التجارية اليقظة ولم تكن ذراع العملاق الذهبي أكثر منه ثبات ورباطة جأش، عندما وقف تحتها ليقول لهم إنه لم يكن بعد المناء الكافي ضد المفاجآت الطفيفة إذا كان مقدراً له أن يكونه في يوم من نوبة أخرى من الانتفاضات، ومع ذلك لم تفد على الدار مئات من الناس كان مستر كارتون قد أقبل في خطى وثيدة متكاسلة، ولكنه جعل عدد الوافدين يرتفع من واحد إلى اثنين، ليس غير.

كانت الليلة حارة ثقيلة الهواء إلى حد جعلهم يستشعرون وطأة الحرارة على الرغم من فتحهم الأبواب والنوافذ على مصاريعها حتى إذا فرغوا من احتساء الشاي انتقلوا جميعاً إلى إحدى النوافذ وأطلوا من على الغسق الكئيب لقد جلست لوسي إلى جانب أبيها، وجلس دارني إلى جانبها، واتكأ كارتون على نافذة كانت الستائر طويلة بيضاء والرياح الراجعة التي دوت في الزاوية قد فاجأتها فرفعتها إلى السقف وموجتها مثل أجنحة قال الدكتور مانيت: إن قطرات المطر لا تزال تهطل ضخمة ثقيلة، قليل إنها تسقط في ببطء فقال كارتون: إنها تسقط من غير ريب وتحدثوا في صوت خفيض، كما يتحدث في معظم الأحوال كما يراقبون شيئاً أو ينتظرون شيئاً كما يتحدث دائماً أناس انتظمتهم غره مظلمة فهم يراقبون البرق وينتظرونه إن الناس في الشوارع ليهرعون إلى منازلهم يعتصمون بها أمام العاصفة المؤذنة بالانطلاق وضجت زاوية الأصداء العجيبة بأصداء أقدام تروح وتجيء، ومع ذلك فلم يروا قدماً البتة وقال دارني بعد أن أصاخوا لحظة : جمهرة من الناس، ومع ذلك فثمة وحدة موحشة وتساءلت لوسي: أليس هذا مثيراً لقد جلست هنا في بعض الأمسيات واسترسلت في الخيال ولكن حتى ظل وهم أحرق يجعلني أرتعد الليلة، حيث كل شيء أسود مهيب تثير صاحبها حين تراوده ، ومن المتعذر نقلها إلى الآخرين لقد قعدت وحيد، ههنا، في بعض الأمسيات، وأنشأت أصغي حتى تبدى لي أن تلك الأصداء هي أصداء جميع الخطوات التي سيدخل أصحابها في حياتنا فاندفع سيدني كارتون إلى القول، على طريقته النكدة : إذا كان ذلك كذلك فسيدخل إطار حياتنا في يوم من الأيام حشد كبير من الناس وتعاقبت الخطى، وازدادت سرعتها تعاضماً وقع الأقدام على نحو موصول.

وكان بعضها فيما تراءى لهم تحت النوافذ، وكان بعضها فيما تراءى لهم أيضاً في الغرفة نفسها كان بعضها يغدو، وكان بعضها يجيء كان بعضها ينقطع فجأة، ثم يستأنف السير، وكان بعضها يقف نهائياً كانت كلها تضح في الشوارع القصية ولكن أياً منها لم يقع في مدى النظر أتحيين يا مس مانيت أن جميع هذه الأقدام مقدر لها أن تقد علينا جميعاً أم أننا سنتوزعها في ما بيننا؟ لست أدري يا مستر دارني لقد قلت لك إن ذلك وهم أحمق ولكنك سألتني أن أحدثك عنه فحين استسلمت لذلك الوهم كنت وحيدة، ثم تخيلت أن تلك الخطى تنطلق بها أقدام الناس الذي سيطرأون على حياتي وحياة أبي فقال كارتون: أنا ارتضيها لحياتي أنا لا أوجه أسئلة ولا اشتراط شروطاً إن ثمة حشوداً ضخمة تقبل نحونا يا مس مانيت، وأنا أرى هذ الحشود على ضوء البرق وإنما أضاف الكلمات الأخيرة بعد أن أومضت السماء ومضة ساطعة أظهرت كيف كان يتكئ مسترخياً على النافذة وإنما صور بهذه الألفاظ انهمار المطر وهديره وأسكنه الوابل المنسكب، إذ لم يكن في الإمكان أن يسمع معه أي صوت ما الأصوات ومع ذلك الغيث المدرار انفجرت عاصفة من الرعد والبرد تاريخية، ولم تنقض لحظة من غير قصف ولا وميض ولا تهطل إلى أن طلع القمر عند منتصف الليل كان الناقوس الكبير يدق الواحدة، في كنيسة القديس بولس وكان الهواء قد صفا عندما انطلق مستر لوري، يصحبه جيرري منتعلاً حذاء عال الساق حاملاً بيده فانوس، عائداً إلى كلارك نويل كانت ريح منعزلة من الطريق تقوم ما بين سوهو وكلارك نويل، وإذ كان مستر لوري يخشى قطاع الطرق فقد كان يستبقي جيرري لحمايته.

وإن تكن العادة قد جرت بأن تتم هذه الحماية قبل ساعتين اثنتين من ذلك الموعد قال مستر لوري :يا لها من ليلة مروعة يخيل إلي يا جيرى إنها أشبه ما تكون بالليلة التي بعث فيها الموتى من قبورهم فأجابه جيرى: أنا لم أشهد بنفسى قط، أيها المعلم، تلك الليلة ولا أتوقع أن أشهدها وقال رجل الأعمال :طاب مساؤك ، يا مستر كارتون طار مساؤك، يا مستر دارني ترى هل سنشهد مع مثل هذه الليلة كرة أخرى؟ ربما ربما يشهدون حشود الناس الضخمة قبل نحوهم منهم هدارة، أيضاً.

-٧-

مولانا في المدينة

كان مولانا - وهو أحد كبار النبلاء ذوي السلطان في البلاط - يقيم حفلة استقبال نصف شهرية في قصره الفخم بباريس وكان مولانا في غرفته الداخلية، وهي هيكل الهياكل، وقدس الأقداس في أعين الجموع المتعبدة له في الغرف الخارجية كان على وشك أن يتناول شراب الشوكولا وكان في استطاعته أن يزدرد أشياء كثيرة في يسر ، بل لقد زعمت بعض العقول القليلة المتبرمة أنه شرع يزدرد فرنسياً في سرية بالغة ومع ذلك فما كان شراب الشوكولا الصباحي ليستطيع أن يبيل حلقومه من غير مساعدة أربعة من الرجال الأشداء، بالإضافة إلى الطاهي أجل، لقد احتاج إيصال الشوكولا السعيدة إلى شفتي مولانا الأربعة رجال يتوهج كل منهم بالحلي والزخارف، ويعجز رئيسهم عن العيش إن كان في جيبه أقل من ساعتين ذهبيتين، وفقاً للسنة النبيلة الطاهرة التي أقامها

لقد حمل أحدهم وعاء الشوكولا إلى الحضرة المقدسة وشرع ثاني يضرب الشوكولا ويرغيها بأداة صغيرة كان يحملها لهذا الغرض وقدم ثالث المنشقة المحظوظة، وصب رابع هو صاحب الساعتين الذهبيتين الشراب وكان من المتعذر على مولانا أن يستغني عن واحد من هؤلاء المعنيين بتقديم شراب الشوكولا إليه ثم يحتفل بمكانته الرفيعة تحت قبة السماء المعجبة ولو نهض بعبء خدمته وهو يتناول شراب الشوكولا ثلاثة رجال ليس غير إذن لأصابته صفة شرف وصمة ليس إلى محوها من سبيل أما إذا اضطر إلى الاكتفاء برجلين اثنين فعندئذ تحين منيته من غير ريب وكان مولانا قد شهد أمس حفلة ساهرة صغيرة قدمت فيه الكوميديا والجران أوبرا برامج فاتنة وكان من دأب مولانا أن يشهد في معظم الليالي حفلات ساهرة صغيرة مع رفاق له ظرف مختارين ولقد كان جنابه من اللطف ورقة الطبع بحيث كانت الكوميدي والجران أوبرا أرجح عنده في شؤون الدولة وأسراره المتعبة من حاجات فرنسا كلها وكان ذلك من حظ فرنسا حقاً، شأن جميع البلاد التي خصها الله بمثل هذه النعمة وشأن بريطانيا دائماً على سبيل المثال في الأيام المأسوف عليها التي شهدها عهد ملكها الذي باعها، وكان من أسرة ستيوارت ولم تكن لمولانا غير فكرة واحدة نبيلة حقاً في ما يتصل بشؤون البلاد العامة، وهي أن يدع كل شيء يتخذ سبيله كيفما شاء أما في شؤون البلاد الخاصة فكانت له كذلك تلك الفكرة النبيلة حقاً، وهي أن يجري كل شيء كما يريد هو، مضخمة بذلك سلطانه الخاص وجيوبه الخاصة وأما مباهجه، سواء أكانت عمومية أم خصوصية، فكان لمولانا في أمرها فكرة نبيلة أخرى، وهي أن العالم كله لم يخلق إلا لإرضائه وكانت آية مذهبه.

وليس هذا شيئاً خطيراً تجري هكذا : إن الأرض وما عليها ملالي، كذلك يقول مولانا ومع ذلك فقد اكتشف مولانا، في بطن، أن بعض عوائق السوق المبتذلة أخذت تعترض سبيل مصالحه الخاصة والعامة فما كان منه إلا أن صاهر، ابتغاء الحفاظ على مصالحه الخاصة والعامة جميعاً، رجا أمرها إلى خبير ، وأفاد منه في شؤونه المالية الخاصة لأن ملتزمي جباية الضرائب كانوا أثرياء، وكانت ثروة مولانا قد تضاعفت بعد أجيال من البذخ والإسراف وهكذا أخرج مولانا أخته من أحد الأديرة قبل أن تترهب نهائياً وقدمها هدية إلى ملتزم ضرائب بالغ الثراء، وضيع النسب وكان صاحبنا هذا جالساً للحظة مع الجالسين في الغرف الخارجية، حاملاً خيزرانة في رأسها كرة من الذهب، وكان موضع إجلال الجنس البشري، باستثناء أولئك البشر الممتازين الجاري في عروقهم دم مولانا، الذي كان هو وزوجته نفسها بنظران إليه في ازدراء متقززاً وكان ملتزم جباية الضرائب هذا رجلاً مترفاً كان في أسطبله ثلاثون جواداً وفي أروقة قصره أربعة وعشرون خادماً ذكراً، على حين كان يخدم زوجته ست من النساء وإذا كان لا يتظاهر بعمل شيء غير السلب والنهب، حيث وُقِّق إليهما، فقد كان ذلك الملتزم بصرف النظر عن مدى الحصانة الاجتماعية التي تمت له إثر زواجه أقرب إلى الواقع وأبعد عن الزيف من جميع تلك الوجوه التي اجتمعت في قصر مولانا ذلك اليوم فغرف القصر، برغم مظهرها الفاتن وبرغم ازدهائها بمختلف أسباب الزخرف التي استطاع ذوق العصر وبراعته استنباطها، كانت في الحقيقة غارقة في الزيف ولو نظر إليها على ضوء الفقراء ذوي الأسمال البالية المنتشرين في كل مكان ولم يكن مشهدهم بعيداً عن المحتشدين في قصر مولانا.

فقد كان في وسع المطل من أحد أبراج كنيسة نوتردام القائمة في مكان وسط بين الطرفين المتباعدين أن يرى الفريقين جميعاً لكانت تلك الحجرات أبعد ما تكون عن الرقة والراحة، لو أن تلك المقارنة تهم أحداً من زائري قصر مولانا وأيا ما كان فقد كانت الشؤون الإدارية شيئاً ، ورجال دين خلعاء منغمسين في الملذات الدنيوية ذوي أعين ترشح بالشهوة، وألسن سليطة، ومسالك ممعنة في التحرر من كل قيد من قيود الأخلاق كان كل منهم غير جدير بالمهمة المسندة إليه وكان كل منهم يكذب على الناس أفحش الكذب إذ يتظاهر بالتعلق بسلكه، ولكنهم كانوا جميعاً على صلة قريبة أو بعيدة بمولانا، فهم من أجل ذلك يفرضون على كل مصلحة من المصالح العامة التي تدر رزماً وكان هؤلاء كثيرون يعدون بالعشرات وكان إلى جانب هؤلاء جمهرة أخرى من الناس غير المتصلين اتصالاً مباشراً بمولانا أو بالدولة ولكنهم لا يقلون عن الفئة الأولى ابتعاداً عن أي شيء حقيقي، أو أي ماض أنفق في انتهاج أي سبيل مستقيمة إلى هدف دنيوي صالح فمن أطباء جمعوا ثروات ضخمة من أدوية لذیذة الطعم لأمراض وهم لم توجد قط كانوا يبتسمون لمرضاهم الدمثي الأخلاق في غرف الانتظار من قصر مولانا ومن واضعي برامج وتصاميم اكتشفوا كل صنف من أصناف الدواء للآفات الصغيرة التي تصيب الدولة، خلا العلاج الذي مكنهم من الانصراف إلى العمل الجاد لاستئصال إثم واحد ليس غير كانوا يصمون ثرثرتهم المشوشة في أي أذن وقعت في متناولهم، في سهرة مولانا تلك ومن فلاسفة ملحدین یعيدون تنظیم الكون بالكلماد ويشيدون من الورق أبراجاً كمثل برج بابل يرتقون بها إلى أسباب السماء

كانوا يتحدثون إلى كيميائيين ملحدين يؤمنون بإمكان تحويل المعادن العادية إلى معادن نفيسة، وسط ذلك الحشد الرائع الذي جمعه مولانا حوله ومن سادة متأنقين نالوا أعظم قسط من التهذيب الذي كان يعرف في ذلك العصر الرائع وفي جميع العصور التي تلتها بما ينتجه من لامبالاة بكل موضوع ذي صبغة إنسانية، كانوا في أشد حالات الاعياء النموجية، في قصر مولانا وكان هؤلاء السادة قد خلفوا وراءهم في المجتمع هناك أن يكتشفوا بين ملائكة تلك الدائرة زوجة واحدة يؤذن مظهرها ومسلكتها بأنها أم والواقع أن شيئاً مثل ذلك لم يكن شأن آنذاك ، فقد كان معنى الأمومة قاصراً على مجرد الإتيان بمخلوق مزعوم إلى هذا العالم، وهو أمر لا يؤهل المرأة كثيراً لأن تحمل اسم الأم وكانت النسوة الريفيات يتعهدن هؤلاء الأطفال غير المنسجمين كان جذام الكذب والزيف يشوه وجه كل كائن بشري شهد حفل مولانا وكان في الغرفة القصوى ستة نفر استثنائيين ساورتهم منذ بضع سنوات هواجس غامضة أشعرتهم بأن الأوضاع كانت على العموم معوجة وكان نصف هؤلاء الستة نفر قد التحقوا، ابتغاء تقوى الاعوجاج، بأهل الانجذاب، وكانوا حتى في تلك اللحظة يتساءلون في ما بينهم وبين أنفسهم ما إذا كان من واجبهم أن يرغوا الآن ويزيدو ويحتاجوا ويهدروا وتقبض عضلاتهم ويغيّبوا عن الوعي وبذلك يقيموا معلماً عالياً يهدي مولانا سبيل المستقبل أما الثلاثة الآخرون، زملاء هؤلاء الدراويش فقد آثروا الالتحاق بفرقة أخرى تحاول إصلاح الأوضاع برطانة تديرها حول مركز الحق، ذاهبة إلى أن الإنسان قد خرج على مركز الحق وهو أمر لا يحتاج إلى دليل ولكنه لم ينأ عن محيط الدائرة

ليس هذا فحسب، فقد ذهبت هذه الفرقة إلى القول بأن الإنسان يجب أن يمنع من الابتعاد عن محيط الدائرة، بل يجب أن يرد إلى المركز عن طريق الصوم ورؤية الأشباح ومن هنا كانت تجري بين هؤلاء النفر وبين الأرواح محاورات كثيرة نتجت عنها دنيا من الخير ظلت طي الكتمان سوف يكون يوماً تستعرض فيه الملابس إذن لدخل كل من أفرادها الجميع جنة الخلد والواقع أن تلك الشعور المعقوفة المعالجة بالذرو والمستحضرات المثبتة، وتلك البشرات الناعمة المصانة بالأساليب الصناعية، وتلك السيوف الماجدة الفاتنة، وذلك التشريف الرقيق لحام الشم كانت خليفة كلها بأن تمهد سبيل البقاء أمام كل شيء أبد الدهر وكان السادة المتأنقون المنشأون أحسن تنشئة يتحلون بأساور صغيرة توسوس كلما تحركوا في استرخاء، وسوسة أشبه بجلجلة الجراه الصغيرة وقد أحدث ذلك الرنين، يردفه حفيف الحرير والوشي والكتان الناعم، دذبذة أقصت حي سان انطوان وجوعه المفترس إلى بغير بعيد كان اللباس هو وحده التميمة الفعالة التي اصطنعت لإبقاء كل شيء في مكانه، وكان كل امرئ يرتدي الملابس التي يرتديها الناس في حفلات رسمية راقصة لن ينفرد عقدها أبد الدهر ومن قصر التويلري، إلى مولانا وسائر رجال البلاط، إلى المحامين وأساطين القضايا، وجميع فئات المجتمع باستثناء الفزاعات ذات الأسمال البالية انحدرت الحفلات الراقصة انسجاماً مع منطق التميمة، أن يشهد الحفلة معقوص الشعر، منضوح الوجه بالذرور، مرتدياً ستر موشاة بالذهب، وحذاء للرقص خفيفاً منخفض الكعب، وجورب حرير أبيض فأمام المشنقة ودولاب التعذيب - فقد كانت الفأس شيئاً نادرة كان مسيو باريس.

كما تعود زملاؤه، جلاذو المناطق الأخرى وأساتذتها من مثل مسيو أورليانز وغيره أن يدعوه، يرئس الاحتفال بهذه الملابس الأنيقة ومن ذا الذي كان يمكن أن يشك، من بين أولئك القوم الذين شهدوا حفلة مولانا في العام الثمانين والسبعمئة بعد الألف من ميلاد سيدنا المسيح، في أن نظام تستند دعائمه إلى جد معقوص الشعر، منضوح الوجه بالذرور، يلبس ثوباً موشي بالذهب ونعلاً راقصاً حتى إذا حرر مولانا رجاله الأربعة من أعبائهم واحتسى شراب الشوكولا أصدر أمره بأن يفتح باب قدس الأقداس على مصراعيه وخرج ولا تسلم عندئذ عن الخضوع والتذلل والتملق والضراء والاتضاع التي تكشف عنها القوم أما سجود الجسد والروح فقد بالغوا فيه حتى لم يتركوا شيئاً للعين الإلهية ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت المتعبدین لمولانا يزعمون تلك العزة على الإطلاق وطاف مولانا بالحجرات منطلق الأسارير، يعد هذا، ويبتسم لذلك ويهمس في أذن عبد من عبيده المبتهجين، ويلوح بيده لآخر حتى انتهى إلى أقاصي محيط دائرة الحق ثم إن مولانا استدار، وارتد إلى هيكله حيث أوصد الباب على نفسه وخلا إلى شياطين الشوكولا فليس في ميسور أحد أن يراه حتى إذا انتهى العرض انقلبت ذبذبة الهواء إلى عاصفة صغيرة وأنشأت الأجراس النفيسة الصغيرة تجلجل فيما هبط أصحابها السلم وما هي إلا لحظات حتى ولى الجمع كلهم ما خلا رجلاً واحداً ما لبث أن اتخذ سبيله على مهل، متأبطاً قبعته ، حاملاً بيده علبة سعوطه في طريقه إلى الخارج وحين انتهى إلى الباب الأخير، وقف واستدار نحو الهيكل قائلاً أستودعك الله.

قال ذلك ونفض السعوط عن أصابعه كما نفض الغبار عن قدميه ثم هبط السلم في سكون كان الرجل في نحو الستين، أنيق الملبس، متغطرساً، ذا وجه أشبه بالقناع البارح - وجه ذي شحوب شفاف، وأسارير واضحة المعالم وانطباع مفرد لا يتغير أما الأنف فكان جميل التكوين على العموم لونهما لا يفتأ يتحول ويتبدل بعض الأحيان وكانتا تنبسطان وتنقبضا بين الفينة والفينة بمثل نبض واهن؛ ثم تخلعان على الوجه كله سيما غدر وقسوة ولو قد ألقى المرء نظرة فاحصة مروية على تينك النقرتين، إذا لتجلى له أن الذي يساعدهما على خلع تلك السيمة على الوجه هو شكل الفم ومحجري العينين إذ كان أفقياً أكثر مما ينبغي، رقيقاً أكثر مما ينبغي ومع ذلك فقد كان الوجه، برغم ذلك كله، مليحاً، وكانت رائعة هبط صاحب ذلك الوجه ولم يكن غير مولانا نفسه - درجات السلم إلى فناء القصر، وامتنى متن عربته، وانطلق إن عدد الذي تحدثوا إليه في حفلة استقباله تلك لم يكن كبيراً، إذ وقف بعيداً عن القوم، وكان في ميسوره أن يسلك مسلكاً أكثر حرارة وصدقاً ولقد بات الآن وكأنما يروق له أن يرى العامة تتفرق أمام جياده فلا تكاد تنجو من تحت سناكبها إلا بشق النفس وأطلق السائق العنان لعربته وكأنه يهجم على عدو من الأعداء، فلم يحدث تهوره الضاري اعتراضاً لدى سيا تبو آثاره على وجهه وشفتيه وكان الناس قد تسامعوا، حتى في تلك المدينة الصماء والعصر الأبكم، بشكوى تقول بأن اندفاع عربات النبلاء اندفاعاً عاتياً في الشوارع الضيقة التي لا أرصفة لها كان يتهدد أحياء الفقراء بالخطر على نحو بربري ولكن قليلون هم أولئك الذين كانوا يعون هذا الأمر، بحيث يفكرون فيه مرة ثانية وفي هذه القضية، كد في القضايا الأخرى جميعها.

كان على البؤساء المعلمين أن يعملوا على إنقاذ أنفسهم من ذلك البلاء بأنفسهم وفي جلجلة وقرقعة ضاريتين، وفي استهتار غير إنساني ليس من اليسير فهمه في هذه الأيام، اندفعت العربية تجوس خلال الشوارع وتستدير كالسيل الجارف حول المنعطفات، والنسوة يولين من أمامها مولولات، والرجال يتعلق بعضهم بتلابيب بعض وينتزعون الأطفال من عدد من الأفواه صيحة مدوية، وأجفلت الجياد واقفة على قوائمها الخلفية ولولا هذه الظاهرة الأخيرة لكان من الجائز أن لا تكفت العربية عن السير فكثيرا ما كانت العربات تواصل طريقها مخلفة جرحاها وراءها ولم لا؟ ولكن المرافق المروع كان قد ترجل من العربية في سرعة بالغة وأخذت عشرون يداً بأزمة الجياد قال المركيز وهو يطل من عربته في هدوء: ما الذي حدث؟ وكان رجل فارح الطول يرتدي قلنسوة من قلانس النوم قد التقط صرة ما من بين قوائم الجياد، ووضعها عند أسفل الفوارة، وانطرح في الوحل والماء يجأر فوقها وكأنه حيوان ضار وفي نبرة ذليلة قال رجل يرتدي أسمال ممزقة: عفوك، يا سيدي المركيز إنه طفل ولماذا يحدث كل هذه الضجة المنكرة؟ أهو طفله؟ عفوك، يا سيدي المركيز هذا شيء مؤلم نعم، إنه طفله كانت فوارة الماء بعيدة بعض الشيء ذلك بأن الشارع انفتح، حيث كانت، على فسحة تبلغ مساحتها عشرة أقدام أو اثني عشر قدم مربعة حتى إذا نهض الرجل الفارع الطول عن الثرى، في سرعة، وأنشأ يدعو نحو العربية، وضع حضرة المركيز يده على مقبض سيفه وفي يأس ضار، صاح الرجل باسط ذراعيه فوق رأسه محدقاً إلى المركيز لقد قتل لقد مات وأطبق القوم على حضرة المركيز وأنشأوا ينظرون إليه.

ولم تتكشف العيون الكثيرة التي حملت فيه عن شيء غير الفضول والتلهف إنها كانت لتتطرق بالموجدة أو الغضب بل إن القوم لم ينطقوا بشيء فقام حضرة المركز بصره فيهم جميعاً وكأنهم مجرد جرذان انطلقت من جحورها وأخرج محفظة نقوده وقال: الشيء الذي أعجز عن فهمه، أنكم، أيها الناس، لا تعنو بأنفسكم وأطفالكم إنكم تعترضون سبيل مركباتنا كل يوم ومن يدري أي أذى أنزلتموه بجيادي؟ إسمع أعطه هذه وألقى إلى المرافق بقطعة نقد ذهبية ، فاشترأت الأعتاق كلها ليكون في ميسور جميع العيون أن تنظر إليها وهي تسقط على الأرض وصاح الرجل الفارع الطول صيحة عجيبة مروعة : لقد مات عندئذ تقدم نحوه رجل آخر ما لبث الحشد أن أفسحوا الطريق له حتى إذا رآه المخلوق البائس طرح رأسه على كتفه، وأنشأ يبك وينتحب، ويشير إلى فوارة الماء حيث كانت بعض النسوة منحنيات على الصرة الجامدة ، متحركات حولها في لطف لقد كن معتصمات بالصمت كالر جال سواء بسواء قال الوافد الأخير :أنا أعرف كل شيء، أنا أعرف كل شيء كان رجلاً شجاعاً يا جاسبار إن موت الطفل الصغير على هذا النحو خير من حياته لقد مات في لحظة واحدة فلم يحس بألم ما هل كان في ميسوره أن يحيا ساعة واحدة في سعادة؟.

وقال المركز مبتسماً: أنت فيلسوف حقا ماذا يدعونك؟ إنهم يدعونني دوفارج ما حرفتك؟ بائع خمر، يا حضرة المركز فقال المركز قاذفاً إليه بقطعة ذهبية أخرى: إنلقت هذه، أيه ومن غير أن يتنازل وينظر إلى الحشد كرة أخرى استوى المركز في مقعده، وأصدر إلى السائق أمره بالمسير

ولم تكذ العرببة تنطلق به وعلى وجهه سيما سيد حطم، غير عاملين، شيئاً من الأشياء المبتذلة ودفع ثمنه، في سهولة ويسر، حتى كدرت عليه صفوه فجأة قطعة نقد طارت إلى عربته ثم حطت مرنة على أرضها قال حضرة المركيز : إكبح إكبح جماح الخيل من الذي رمى هذه؟ ونظر إلى حيث كان دوفارج بائع الخمر واقفاً منذ لحظة ولكن الأب المسكين كان فوق حصباء تلك البقعة يستقبلها بوجهه، وكان الطلعة الواقفة إلى جانبه هي طلعة امرأة بدينة داكنة تحبك الصوف قال المركيز، في رفق، ومن غير أن يطرأ على صفحة وجهه تغير ما، خلا تينك النقرتين اللتين فوق أنفه: أيها الكلاب لشد ماأتمنى أن أدوسكم بسنابك جيادي، وأن أستأصل شأفتكم من الأرض ولو أعرف الوغد الذي قذف العرببة بهذه القطعة، ولو قد كان ذلك اللص قريباً منها إذن لوجب أن يسحق تحت العجلات كانوا في حال من الذعر الماحق ومن تجارب طويلة قاسية أدركو أي شيء يستطيع مثل هذا الرجل أن يفعله بهم ضمن نطاق القانون وخارج نطاقه بحيث لم يرتفع لأي منهم صوت أو يد، بل بحيث لم ترتفع لأي منهم عين هذا بين الرجال ولكن المرأة التي وقفت تحبك الصوف رفعت بصرها على نحو موصول ونظرت إلى المركيز في وجهه ولم يكن مما يتفق وكبرياءه أن يلاحظ ذلك لقد مرت عيناه المستخفتان من فوق تلك المرأة، ومن فوق الجرذان الأخرى جميعها ثم استوى في مقعده من جديد، وأصدر أمره إلى السائق : إنطلق مضت العرببة به، وعلى أثرها أقبلت عربات أخرى والحفلة الراقصة الرسمية كلها وكانت الجرذان قد خرجت من جحارها لتشهد الموكب، ولقد ظلت تشهده ساعات طوالاً.

وكان الجنود ورجال الشرطة كثيرين ما يحولون بينهم وبين متابعة المشهد، مقيمين حاجزاً كان الناس يدبون خلفه ويختلسون النظر من خلاله وكان الأب قد حُكم صرته منذ فترة طويلة، وتوارى بها عن الأنظار عندما جلست النسوة على قدم الفوارة ورحن يراقبن المياه الجارية وعربات الحفلة الراقصة المتدفقة، في حين كانت المرأة الوحيدة التي سبق لها أن وقفت تحبك الصوف لا تزال تحبكة بمثل ثبات القدر ورسوخه واتخذت مياه الفوارة سبيلها، واتخذ النهر السريع سبيله، واتخذ النهار سبيله نحو الليل، واتخذ كثير من مظاهر الحياة في المدينة سبيله إلى الموت تبعاً للقاعدة، ولم ينتظر الدهر وصروفه رجلاً ما، ونامت الجرذان متلاصقة في جحورها المظلمة وتوهج قصر مولانا بالأنوار عند تناول العشاء، وجرى كل شيء عادياً.

- ٨ -

مولانا في الريف

كان مشهداً طبيعياً جميلاً تومض فيه الحنطة ولكن على غير وفرة فقد كانت قطعة من القطاني السقيم تقوم حيث كان ينبغي أن تنهض الحنطة، وكان ثمة قطعة أخرى من الحمص والفل السقيمين، ورقع من أغلظ البقول بدلاً من القمح وعلى وجه الطبيعة الخاملة، كما على وجوه الرجال والنساء الذين حرثوها، رانت سيما الخمول القسري وطفا انطباع كئيب يؤذن بالذبول واليأس.

وبعربته التي يقودها أربعة جياذ يمتطي رجلان اثنين منها، والتي كان في الإمكان أن يخفف من ثقلها بعض الشيء، صعد حضرة المركز في مرتفع شديد الانحدار ولم يكن في الحمرة التي غلبت على محيا المركز ما يطعن في رفيع تهذيبه، فهي ما كانت منبعثة من داخل لقد سببها ظرف خارجي لا سلطان له عليه، هو الشمس الجانحة إلى المغيب.

ذلك بأن الغروب انعكس على العربة حين بلغت أعلى الكثيب انعكاسا وهاجا إلى حد يقع معه ممتطيها بالقرمز وقال حضرة المركز ناظراً إلى يديه : إنها سوف تموت في الحال والواقع أن الشمس كانت شديدة الانخفاض، فما هي إلا لحظة حتى احتجبت عن الأبصار وحين أحكم وضع المكبح الثقيل على.

العجلات وشرعت العربة تنزلق هابطة الكثيب، وقد انبعثت منها رائحة احتراق، وسط غمامة من الغبار، زال الوهج الأحمر بسرعة وكانت الشمس والمركز يهبطان معاً فلم يبق أي وهج عندما رفع المكبح عن الدواليب ولكن بقي ثمة ريف مهيبض الجناح، صارخ منفتح الرحاب صغيراً عند سفح الكثيب؛ منعطف عريض يعقبه مرتع ؛ برج كنيسة وطاحونة هوائية، وأجمة للصيد، وهضبة صخرية سامقة تعلوها اتخذت سجناً حول هذه الأشياء المكفهرة شيئاً بعد شيء فيما كان الذي يهبط، أجال المركز بصره وعلى وجهه سيما الرجل الموشك أن يصل إلى بيته وكان للقرية شارعها الأوحـد الفقير المشتمل على مصنع جعة فقير وفندق فقير، وفناء إسـطبل فقير لاستبدال جياذ البريد، وعين ماء فقيرة، مختلف المرافق المألوفة الفقيرة وكان لها أهلها الفقراء أيضاً وفي الحق إن أهلها كلهم كانوا فقراء، وكان كثير منهم جالسين على عتبات بيوتهم يقطعون بعض البصل الهزيل

وما شابه لطعام العشاء، بينما كان آخرون عند العين يغسلون أوراقاً وأعشاب، وغير ذلك مما تنبته الأرض من أشياء يمكن أن تؤكل ولم تكن الأمارات الناطقة بالذي جعلهم فقراء مفقودة فقد كانت ضرائب الدولة، وضرائب الكنيسة، وضرائب النبلاء والضرائب العامة والضرائب الخاصة - كلها يجب أن تدفع هنا، أو يجب أن تدفع هناك، وفقاً لقانون مقدس في القرية الصغيرة، حتى لقد كان ما حق المرء أن يعجب كيف بقيت أي قرية من القرى سالمة لم تبتلع بعد ولم يكن المرء ليري في تلك القرية غير قليل من الأطفال، على حين لم يكن ليري فيها كلاباً قط أما الرجال والنساء، فكان عليهم أن يختاروا لأنفسهم إحدى خطتين : الحياة بأدنى الشروط التي تسد الرمق وازداد حضرة المركز اقتراباً من اصطبل خيل البريد، يبشر بقدم أحد الرسل، وفرقة سوطي الدليلين المرافقين للعربة، وكانا يلتقيان في هواء المساء كما تلتفت الأفاعي، فكأنما كانت الهامات الانتقام تحف بموكبه كانت العربة على مقربة من العين، فعطل الفلاحين عن أعمالهم وطفقوا ينظرون إليه ونظر هو إليهم فرأى على وجوههم، من غير أن يشعر، آثار الضنك والبؤس التي جعلت الهزال الفرنسي مضرب المثل عند الإنجليز إلى ما بعد مئة عام انقضت على تخلص الفرنسيين من تلك الآفة وحق المركز إلى الوجوه الخاشعة أمامه، خشوع أفراد طبقته أما مولانا في قصره، مع فارق وحيد هو أن هذه الوجوه تكست لتقاسى الآلام لا لكي تسترضي وتستعطف وما هي إلا لحظة حتى انضم إلى الجمع مصلح طرق أشيب قال المركز موجه الخطاب إلى الرسول : إيت بذلك الرجل إلى هنا وجيء بالرجل، وقلنسوته في يده، وتحلق القوم حول العربة ليرو ويسمعوا، فعل الناس أمام فوارة الماء بباريس لقد مررت بك في الطريق ؟

هذا صحيح، يا مولاي لقد أولي شرف مرورك بي في الطريق لقد مررت بك وأنا أرتقي الكتيب وحين بلغت أعلاه؟ هذا صحيح يا مولاي ما الذي كنت تحقق إليه ذلك التحقيق الموصول؟ لقد نظرت إلى الرجل يا مولاي أي رجل هذا، أيها الخنزير؟ ولم تنظر إلى هناك؟ عفوك يا مولاي كان متعلق بسلسلة المكبح فسأله المركز : من كان متعلق؟ الرجل، يا مولاي ليخطف الشيطان هؤلاء المعتوهين ما اسم ذلك الرجل؟ أنت تعرف جميع الرجال في هذا الجزء من الريف من كان ذلك الرجل؟ رحمتك، يا مولاي إنه لم يكن من أبناء هذه المنطقة أنا لم أراه في أي يوم من أيام حياتي تقول إنك رأيته متعلقاً بالسلسلة، فهل كان يريد أن يشنق نفسه؟ عفوك يا مولاي، فقد كان ذلك هو موضع العجب كان رأس متدلية - هكذا وارتد، على نحو جانبي إلى العربية، وانحنى إلى الوراء، مستقبلاً السماء بوجهه، مدلي رأسه إلى جانب ثم إنه قوم وضعه، حاملاً قلنسو في غير لباقة، وانحنى احتراماً كيف كان شكله؟ كان يا مولاي أشد بياضاً من الطحان كان مغطى كله بالغبار أبيض كالشبح، طويلاً كالشبح وأحدثت الصورة انفعالا عميقا في الحشد الصغير، ولكن العيون كلها تطلعت من غير أن يستجلي بعضها انطباعات بعض، إلى حضور المركز ولعلها فعلت ذلك لكي ترى ما إذا كان ثمة شبح ما في ضميره وقال المركز، شاعراً بأن مثل هذه الدودة أعجز من أن تكدر صفوه: حقا، لقد أجدت صنعا إذ رأيت لصاً يتعلق بعربتي ولم تفتك جبابة الضرائب في الوقت نفسه وكان قد خرج في ذلة بالغة ليشهد ها التحقيق، ممسكاً بالمستنطق من كفه، على نحو رسمي وقال مسيو جابيل: تباً لك تنح جانبا أقبض على ذاك الغريب

إذا حاول النزول في قرينتك الليلة ، جابيل : يشر فني يا مولاي أن أقف نفسي لتنفيذ أمرك هل فر ، يا رجل؟ أين ذلك الملعون؟ وكان الملعون قد دخل منذ برهة تحت العربة، تصحبه نصف دزينه من أصدقائه المقدمين، وأنشأ يشير إلى السلسلة بقلنسوته الزرقاء ولك نحواً من نصف دزينة أخرى من أصدقائه المقربين نادوه في الوقه المناسب، وقدموه مبهوراً منقطع النفس إلى حضرة المركيز هل فر الرجل، أيها الأبله، عندما توقفنا لنضع المكبح على العجلات؟ مولاي، لقد قذف بنفسه من أعلى الكتيب ركباً رأسه في الغاطس في النهر تدبر الأمر، يا جابيل إنطلق كان نفر الستة المحدقون إلى السلسلة لا يزالون بين العجلات كالخراف ودارت العجلات على نحو مفاجئ جداً يجعلهم يسعدو باستنقاذ جلودهم وعظامهم، ولم يكن عندهم ما ينقذونه غير ذلك، وإلا لما كانوا محظوظين إلى هذا الحد وما لبث ارتفاع الكتيب وشدة انحداره أن وضعا حدة للاندفاع الذي انطلقت بها العربة من القرية وارتقت بها المرتفع الذي يليها وشيئاً فشيئاً تباطأ تقدمها حتى غدا أشبه بالسعي على القدمين، وراحت تطن حولهما آلاف من البعوض حلت محل آلهة الانتقام التي حفت بهما من قبل ومشى المرافق في محاذاة الجياد وسمع صوت الرسول وهو في المدى البعيد المظلم وعند النقطة الأكثر انحداراً من الكتيب كانت مقبرة وصليب على تمثال جديد ضخم لمخلصنا يسوع المسيح كان تمثالاً خشبياً سقي نحتته يد مثال جلف غير صناع بيد أن ذلك المثال انتزع صورة المخلص من صميم الحياة وربما من صميم حياته هو فقد كانت نحيلة مهزولة على نحو مرقع وكانت إحدى النساء راكعة عند هذا التمثال التعس الرامز إلى بؤس عظيم يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

ولما ينته بعد إلى أسوئه فلم تكد العربية تقترب منها حتى التفتت، وسارعت إلى النهوض، واقفة لدى بار العربية هذا أنت يا مولاي إن لي عندك حاجة، يا مولاي وفي صيحة تؤذن بالتضايق ونفاد الصبر ، ولكن من غير أن يطراً على صفحة وجهه تغير ما، أطل مولانا من العربية وقال، وما ذاك؟ أي شي تريدين؟ أليس هناك غير الحاجات والمطالب؟ مولاي، أستحلفك بمحبة الله العظيم زوجي، الحطاب ما بال زوجك، الحطاب؟ ذاك هو شأنكم دائماً، أيها الناس ألا يستطيع أن يدفع شيئاً؟ لقد دفع كل شيء، يامولاي لقد مات حسناً إنه يتمتع بالطمأنينة هل أستطيع أن أبعثه لك حياً من جديد؟ لا ، وأأسفاه، يا مولاي ولكنه يثوي هناك تحت كومة صغيرة يامولاي، إن ثمة كثير من أكوام العشب السقيم الصغيرة؟ وماذا بعد أيضاً ؟ لقد بدت عجوزة، ولكنها كانت في ريعان الشباب وكانت تعصف بها لوعة ثاقبة، فهي تضم يديها البارزتي العروق الكثيرتي العقد ضد عنيفة ثم تضع كلا منهما بدورها على باب العربية في لطف وحنان وكأنما هو صدر بشري يتوقع منه أن يهتز للمسمة المستغيثة إسمع لي يا مولاي إستمع إلى شكواي يا مولاي لقد مات زوجي من الفاقة كثيرون هم الذين يموتون من الفاقة ولسوف يموت أضعافهم من الفاقة أيضاً وماذا بعد؟ هل أستطيع أن أطعمهم؟ - الله أعلم، يا مولاي ولكني لا أسألك ذلك كل ما أسألك أن تقام على قبر زوجي قطعة من حجر أو من خشب تحمل اسمه لتكون دليلاً على المكان الذي يثوي فيه وإلا فإن مثواه سوف ينسى عما قريب، ولن يعثر عليه أحد عندما أموت أنا بالداء نفسه، وعندئذ أدفن تحت كومة أخرى من العشب السقيم مولاي، إن ثمة أكواما كثيرة من العشب السقيم إنها تتعاضم في سرعة بالغة إن ثمة فقراً كثيراً مولاي مولاي

ونحاهما المرافق عن الباب واندفعت العربية تخب في رشاقة وألهب الدليلان ظهور الجياد بسوطيهما فازدادت اندفاعاً، وغودرت المرأة خلفهم، وأنشأ مولانا، وقد حفت به آلهة الانتقام من جديد ينهب بضعة أميال التي تفصله عن قصره، في سرعة خاطفة وانطلقت روائح ليلة الصيف الفاعمة من حوله انطلقت، فيما كانت المطر يهطل، انطلاقاً لا يشوبه تمييز أو تعصب من حول الجماعة المغبرة مستعيناً بقلنسوته الزرقاء التي ما كان يصلح بدونها لشيء، حديث الرجل الشبح الذي رآه، ما أطاقوا الاستماع إلى كلامه المسهب وشيئاً فشيئاً انفضوا من حوله، واحداً إثر واحد وأومضت الأضواء في النواحي الصغيرة حتى إذا أظلمت تلك النوافذ وتكاثرت النجوم، بدت الأضواء وكأنها لم تطفأ بل قذف بها إلى كبد السماء وكان حضرة المركيز قد دخل في ظل بيت ضخم، عالي السماء وظلال كثير من الأشجار السامقة ثم استعيض الظل بضوء أحد المشاعل، فيما وقفت العربية وفتح باب القصر الكبير له مسيو شارل الذي أترقبه، هل وصل من إنجلترا؟ لا، يا مولاي، إنه ما وصل بعد.

٩

رأس الغول

كان قصر المركيز ذاك بناء بالغ الضخامة وغادر حضرة المركيز عربته، يتقدمه المشعل، وراح يرتقي درجات السلم العريضة الضحلة، مزعجا دجنة الليل إزعاجاً حمل إحدى اليوم على أن تطلق احتجاجاً عالياً من سقف الإسطبل القائم بعيداً وسط الأشجار

وفي ما خلا ذلك، كان كل شيء ساكناً إلى حد أن المشعل الذي يتقدم المركز على السلم والمشعل المعلق فوق الباب الكبير كانا يضيئان وكأنهما في حجرة نوم صغيرة موصدة على ظهر باخرة أو قطار الا في فضاء العشية الطلق وغير نعيق البوم، لم يكن هناك صوت آخر باستثناء خرير الفوارة الساقطة مياهها في حوضها الحجري ذلك بأ الليلة كانت من تلك الليالي التي تحبس نفسها ساعة بطولها، ثم تطل تنهيدة طويلة خفيفة، وتحبس نفسها من جديد وقع الباب الكبير خلفه، واجتاز المركز رواقات بحراب الخنازير العتيقة، والسيوف، ومدى الطرد رواقاً كانت تزين قتامة قضبان فروسية ثقال، وسياط جياذ استشعر وطأتها كثير من الفلاحين،الذين غضب عليهم سيدهم ففرعوا إلى الموت من ذلك البهو العظيم اجتنب المركز، يتقدمه حامل المشعل، غرف القصر الكبرى التي كانت مظلمة بعد أن أوصدت إثر هبوط الليل، وارتقى سلمة أفضت إلى مجاز قاده بابه إلى جناحه الخاص المؤلف من ثلاث غرف: حجرة نومه، وحجرتين أخريين غرف عالية العقود ذات أرض باردة غي مفروشة بالسجاد، وأثافي ضخمة فوق الموقد لإضرام النيران في الشتاء ومختلف ضروب الترف اللاتقة بمركز يعيش في عصر مترف وبلا مترفة وكان الري الذي درج في عهد لويس الرابع عشر آخر ما حكم فرنسا قبل الملك الحالي، باستثناء لويس الخامس عشر ، من تلك السلالة التي بدت وكأن رجالها سوف يرثون العرش إلى آخر الدهر كان ذلك الزي بارزاً في الرياش النفيس المنتثر في تلك الغرف إلى جانب أشياء كثيرة تمثل صفحات قديمة من تاريخ فرنسا ومدت مائدة العشاء لرجلين اثنين في ثلاثة الغرف.

غرفة مستديرة قائمة في أحد أبراج القصر الأربعة التي تعلوها المطافئ غرفة صغير شامخة، فتحت نافذتها على مصراعيها وأوصدت ستائر الخشبية ذات القدر المستطيل بحيث لم يبد من الليل المظلم غير خطوط أفقية تضئ سوداء مفضلة بخطوط عريضة حجرية اللون وقال المركيز وهو يتطلع إلى المائدة المعدة: يقولون إن ابن أخى لم يصل بعد لا إنه لم يصل ولكنه كان من المتوقع أن يصل مع مولانا وبعد ربع ساعة كان مولانا مستعداً وجلس وحده إلى مائدته الفاخرة كان كرسيه تجاه النافذة، وكان قد تناول حساءه ورفع كأس الخمر إلى شفثيه عندما أعادها فجأة إلى المائدة وفي سكون، تساءل وهو يتأمل الخطوط الأفقية السوداء والخطوط الحجرية اللون: ما هذا؟.

-مولانا؟ هذا؟ خارج الستائر الخشبية: إفتح الستائر وفتحت الستائر هذا ليس شيئاً يا مولاي ليس ههنا غير الليل والأشجار وكان الخادم الذي تكلم قد فتح الستائر إلى أبعد مدى مستطاع وحقق في الظلمة الخالية، ثم استدار وذلك الفراغ من ورائه ينتظر أواه المركيز وقال السيد الوقور: حسن أقفلها من جديد وأقفلت الستائر من جديد، وواصل المركيز تناول عشائه وما كاد يبلغ منتصفه حتى كف عن الأكل، والكأس في يده، بعد أن طرق أذنه صوت عجلات لقد أقبلت في خفة ورشاقة، حتى انتهت إلى بار القصر سل من القادم كان ابن أخى مولانا وكان يفصله عن عربة مولانا، عند صد الأصيل، بضعة فراسخ ولقد وفق إلى تقصير تلك الشقة في سرعة ولكن سرعته تلك ما كانت خاطفة إلى درجة تمكنه من أن يدرك مولانا في بعض الطريق كان قد سمع عند مركز البريد أن مولانا انطلق بعربة أمامه الحجرة

كان يعرف في إنجلترا باسم تشارلز دارني ورحب مولانا به في كياسة، ولكنهما لم يتصافحا وقال لمولانا وهو يجلس إلى المائدة : لقد برحت باريس أمس، سيدى؟ أمس وأنت؟ لقد جئت مباشرة من لندن؟ نعم وقال المركيز في ابتسامة : لقد تباطأت في رحلتك هذه على العكس لقد جئت مباشرة - عفوك لست أعني أنك أبطأت في السفر، ولكن أعني أنا أبطأت حتى اعتزمت السفر لقد عاقتني عنه ، قال الشاب ذلك ثم تمهل لحظة في الجواب أعمال مختلفة فقال العم ذو المنطق الناعم المصقول لا شك في ذلك ولم يتطارحا أي حديث آخر ما شهد مجلسهما أحد الخدم حتى إذا قدمت إليهما القهوة، وليا منفردين، نظر الشاب إلى عمه فالتقت عيناه عيني ذلك الوجه الشبيه بقناع بارع، واستهل حديثاً جديداً لقد عدت، يا سيدي، كما توقعت، لأتابع الهدف الذي أقصاني عن البلاد لقد قادني ذلك إلى مخاطر عظيمة غير مرتقبة، ولكنه هدف مقدس، ولو انتهى بي إلى الموت إذن لاستقبلته من أجله راضياً فقال العم: لا تقل إلى الموت ليس من الضروري أن تقول إلى الموت وهنا بدت مشؤومة نقرتا أنفه اللتان تعاضم عمقهما، وخطوط وجر الوحشي المستقيمة المتعاضم طولها وأوماً العم إيماءة احتجاج لطيفة كان من الواضح جداً أنها شكل طفيف من أشكال التهذيب الرفيع فهي غير مطمئنة البتة وتابع ابن الأخ : بل إنني أميل إلى الاعتقاد بأنك كنت جديراً بأعمال جاهدأص لكي تزيد الظروف التي أحاطت بي والتي تكتنفها الشبهات قتامة على قتامة فقال العم في بشاشة : لا، لا، لا فتابع ابن الأخ كلامه وهو يرمقه بنظرة تنضح بأعمق الإرتياب ولكن أياً ما كان، فأنا أعلم أن ديبلوماسيتك خليفة بأن تنفذني مهما كلف الأمر

وإنك ما كنت لتحجم عن استخدام أي وسيلة في هذا السبيل فقال العم وقد نبضت
النقرتان اللتان على منخريه نبضة رفيقة : صديقي، لقد قلت لك ذلك أرجوك أن
تتذكر أنني قلت لك ذلك من زمن بعيد أذكر فقال المركز بنبرة بالغة الحلاوة حقاً:
أشكرك وتوانى جرسه في الهواء وكأنه نغم منبعث من آلة موسيقية وتابع ابن
الأخ حديثه: الواقع يا سيدي إنني أعتقد بأن سوء حظك وحسن حظي هما اللذان
تعاوننا على الحيلولة بيني وبين دخول السجن هنا في فرنسا فأجاب العم وهو
يرشف قهوته : لست أفهم تماماً ما تقول أسمح لي بأن أتجرأ فأسألك تفسير؟
رسالة من الرسائل المختومة إلى بعض القلاع حيث أقضي بقية عمري في
غياهبها فقال العم في هدوء كثيرجائز أنا لا أحجم، من أجل شرف الأسرة، عن
أن أدفع بك إلى مثل هذا المصير أرجوك أن تعذرني فلاحظ ابن الأخ : خيل إلي
في ارتياح، أن حفلة الاستقبال التي أقمتها أمس الأول كانت كالعادة حفلة باردة
فأجاب العم في كياسة مهذبة أنا لا أجد في ذلك ما يدعو إلى الإرتياح أنا لست
واثقاً من ذلك وربما كان في ميسور العزلة، ان نتيحة من فرص للتفكير أن تؤثر
في مصير المرء تأثيراً حسناً لا يتسنى في غير تلك الحال ولكن من العبث البحث
في هذا الموضوع إنني كما تقول، لا أتمتع بالحظوة ذلك بأن أدوات التأديب
الصغيرة هذه تلك الوسائل اللطيفة المودة لسلطان الأسر وشرفها، أو قل تلك اللمة
الطيفة التي قد تنزل بك أعظم البلاء، أمست اليوم لا تنال إلا بالرشى واللجاجة
إن كثيرين ليلتمسونها، ولكنها لا تمنح إلا لقلة نسبياً وان تكن الحال كذلك من
قبل، ولكن فرنسا قد تغيرت في هذه الأشياء كل وأمثالها، نحو الأسوأ إن أسلافنا
الأقربين عهداً كانوا يملكون حق التحكم في حياة من حولهم من الغوغاء أو موتهم

فكم كلب من أمثال هذه الكلاب سيق من هذه الحجرة إلى حيث شفق وفي الغرفة المجاور وهي حجرة نومي عن بالخنجر، على ما نعرف، رجل تحدث عن ابني حديثاً وقحاً فيه مساس بنا لقد خسرنا كثيراً من الامتيازات، ونشأت فلسفة جديدة غدت هي الزي الشائع وإذا حاولنا أن نؤكد مكانتنا، في هذه الأيام، فقد يسبب ذلك لنا ولست أذهب إلى حد القول إنه سوف يسبب متاعب حقيقية وكل ذلك شر، أي شر وتناول المركيز مقداراً صغيراً من السعوط وهز رأسه، في يأس رفيع وقال ابن الأخ مكفهر الوجه: لقد بالغنا في تأكيد مكانتنا، سواء في العهود الماضية أو العصر الحاضر، إلى درجة أمسى إسمنا معها، في ما أعتقد، أبغض الأسماء كلها إلى نفوس الفرنسيين فقال العم: فلنرجع ذلك إن بعض العلية من الناس لا يعدو أن.

يكون احتراماً غير إرادي من جانب السفلة من الناس وتابع ابن الأخ: لست أرى في طول هذا البلد وعرضه وجه واحد ينظر إلي وعليه سيما الاحترام الحق إن احترامهم لنا ناشئ عن الخوف والعبودية ليس غير فقال المركيز: هذا إطرأ لعظمة الأسرة استحقته بالطريقة التي عرفت كي تحافظ بواسطتها على أمجادها وتناول مقدار آخر صغير من السعوط ووضع رجلاً على رجل، في خفة ورشاقة ولكن ما إن أسند الفتى أحد مرفقيه على المائدة، وحجب عينيه بيده في تأمل واكتئاب حتى نظر إليه القناع الرقيق البارع شذرة، وقد ران على من الحدة والصرامة والكراهية ما لا يتفق مع تظاهر لابس باللامبالاة وقال المركيز: إن الاضطهاد هو الفلسفة الوحيدة الخالدة الاحترام الناشئ عن الخوف والعبودية.

يا صديقي، سوف يبقى الكلاب خاضعة للسياط ما حجب هذا السقف ورفع بصره نحوه وجه السماء بيد أن ذلك لا يدوم بقدر ما توهم المركيز ولو كان في الإمكان أن يتبين تلك الليلة صورة القصر في الحال التي كان مقدراً له فما كان يستطيع أن يميز قصره من بين الأنقاض التي أتت عليها النار وعبثت بها الغارات أما السقف الذي اعتز به فلعله أن يجده حاجباً وجه السماء على وجه جديد، وذلك بما يحجبه إلى الأبد عن أعين الأجساد التي صوبت إليها النيران من فوهات الأسرة وطمأنينتها، إذا أحجمت أنت عن ذلك ولكن لا ريب أنا متعب فهل ترى أن نرجئ اجتماعنا إلى غد؟ لحظة أخرى بل ساعة إذا شئت قال ابن الأخ: سيدي، لقد غالينا في الظلم، وها نحن نحن ثمرات الظلم كرر المركيز في ابتسامة متسائلة: نحن غالينا في الظلم؟ وفي رقة، أشار إلى ابن أخيه أولاً ثم إلى نفسه أسرتنا؛ أسرتنا المجيدة التي يهمننا كلياً شرفها على طريق المناقضة لطريقة الآخر حتى في عهد والدي غالينا في ظلم الناس منزلي الأذى بكل كائن بشري يعترض ما بيننا وبين ملذاتنا مهما تكن ولماذا أتحدث عن عهد أبي وهو صنو لعهدك؟ هل أستطيع أن أفصل توأم والدي وشريكه في الميراث وخليفته، عن نفسه؟ فقال المركيز: لقد فعل الموت ذلك فأجاب ابن الأخ: وتركني مشدوداً إلى نظام أكرهه، نظام أنت مسؤول تجاهه، ولكنني عاجز في نطاقه أحاول أن أنفذ آخر رجاء وجه إلي شفتا أمي العزيزة وأطيع آخر نظرة من عينيها وقد توسلت إلي فيها أن أكون رحيماً وأن أصلح الخطأ وأقوم الإعوجاج، ولكنني ألتمس القوة والعون على ذلك فلا أوفق، فأتمزق غيضاً وألماً فقال المركيز، موجهاً سبابته إلى صدر ابن أخيه

وكانا واقفين الأ قرب المدفأة : وإذا ما التمستهما عندي ، يا ابن أخي، فإن التماسك سوف يظل على غير طائل في ميسورك أن تكون على ثقة من ذلك كان كل خط من خطوط وجهه الأبيض المستقيمة صارماً يرش نص دقيق لسيف صغير يشك به جسده في تلمف رفيق، وقال :سوف أموت، يا صديقي، مخلداً النظام الذي عشت في ظله حتى إذا نطق بذلك تناول مقداراً ختامياً من السعوط، ووضع العلبة في جيبه ثم إنه أضاف بعد أن قرع جرساً على المائدة من الخير لك أن تكون عاقلاً وترتضي مصيرك الطبيعي ولكنك ضال خسر نفسه ، يا مسب شارل، على ما أرى فأجابه ابن أخيه في صوت محزون: لقد خسر هذه الثروة وخسرت فرنسا إني أتخلى عنهما جميعاً وهل هما ملك لك حتى تتخلى عنهما؟ قد تكون فرنسا ملك لك، ولكن أكون هذه الثروة لك أيضاً ؟ إنها لا تستحق الذكر، ولكن أهي ملكك حقا ؟ أنا لم أقصد، في كلماتي، أن أزع ذلك وإذا ما انتقلت منك إلي في غد وهو أمر أرجو من صميم فؤادي أن يكون بعيد الإحتمال أو بعد عشرين عاماً فقال المركيز : إنك لتخلع علي شرفاً كبيراً ومع ذلك فأنا أؤثر هذ الفرض فلسوف أتخلى عنها ، وأعيش على نحو آخر وفي مكان آخر إنها ليست شيئاً ذا بال وهل هي غير قفر من البؤس والخراب فقال المركيز مجية طرفه في الغرفة المترفة : هه هذه الممتلكات جميلة في نظر العين أما إذا نفدت إلى ما وراء الظاهر ورأيت الأشياء على حقيقتها، تحت قبة السماء، وفي وضح النهار، فعندئذ تجد أنها برج متداع من الإسراف، وسوء التدبير ولو أصبحت ملكي في يوم من الأيام فعندئذ أعهد في أمرها إلى أيد أكثر أهلية ابتغاء تحريرها تدريجياً إذا كان شيء مثل هذا ممكناً والأثقال التي تشد بها إلى أدنى.

بحيث يكون في ميسور البؤساء الذين يستطيعون مفارقتها والذين احتملوا من العذاب أقصى ما يستطيع إنسان احتمال، أن يقاسوا، بعد جيل واحد، آلاماً دون آلامهم الحاضرة ولكنها ليست لي لقد حلت بساحتها اللعنة، كما حلت بساحة هم البلاد كلها فقال العم: وأنت؟ إغفر لي فضولي هل تعتزم، في ظل فلسفتك الجديدة هذه، أن تعيش وتقيم أودك؟ يجب أن أعمل لكي أعيش وأقيم أودي ما قد يتعين على مواطني، حتى أولئك الذين حملوا في يوم من الأيام شارة النبالة، أن يعملوه يجب أن أشتغل في إنجلترا، مثلاً؟ أجل إن شرف الأسرة، يا سيدي، سوف يكون في نجومية من في هذه الديار إن اسم الأسرة لن يلطخ بأعمالي في أي بلد لأنني لا أحمله في أي بلد آخر وكان رنين الجرس سبباً في إضاءة حجرة النوم المحاذية له وهجت الآن مشرقة، من خلال الباب ونظر المركيز في ذلك الاتجاه وأصغي لوقع خطى خادمه المترجعة ثم إنه قال مديراً وجهه إلى ابن أخيه، في ابتسام: يبدو لي من عيشك الرغد اللامبالي في إنجلترا أن لتلك البلاد سحرهاة في نفسك لقد سبق لي أن قلت إنني أحس بأنني قد أكون مديناً لك، سيدي، في عيشي الرغد هناك أما في ما عدا ذلك فإنجلترا هي الملح الذي لجأت إليه - نعم مع ابنته؟ نعم.

فقال المركيز : أجل أنت متعب طاب مساؤك.

وفيما كان يحني رأسه بأبلغ الكياسة، طفت على وجهه الباسم سيما لغز خفي وأسبغ على تلك الكلمات طابعاً من الغرابة والغموض أهذه عيني ابن أخيه وأذنيه وفي الوقت نفسه التوت الخطوط الراقية المستقيمة المحيطة المحجريه، والشفتان الرقيقتان المستقيمتان، والنقرتان اللتان فوق الأنف، التوت كلها في سخرية

بدأت شيطانية على نحو ظريف وكرر المركز: طبيب وابنته نعم هكذا تبدأ الفلسفة الجديدة أنت متعب طاب مساؤك ولم يكن استنطاق وجهه ذاك بأيسر كثيراً من استنطاق أي وجه حجري خارج القصر ونظر ابن الأخ إليه، فيما هو يتخذ سبيله نحو الباب، ولكن على غير طائل قال العم: طاب مساؤك؟ أرجو أن أسعد برويتك كرة ثانية، في الصباح أتمنى لك استراحة طيبة يا سيدي طريق ابن أخي إلى غرف هناك واحرق يا سيدي ابن أخي في فراشه، إذا شئت كذلك أضاف في ما بينه وبين نفسه، قبل أن يقرع الجرس كرة ثانية ويستدعي خادمه إلى حجرة نومه الخاصة أقبل الخادم ورجع، وأنشأ المركز، يزرع الغرفة جيئة وذهاباً، وعلى جسده مبدل فضفاض، لكي يعد نفسه إعداداً رفية للنوم في تلك الليلة القائظة كان ثوبه ذاك يحدث بعض الحفيف في الغرفة، ولكن نعليه الخفيفتين لم تثيرا أي ضجة على أرضها ولقد به هو في غدوه ورواحه مثل نمر مروض لقد بدا وكأنه مركز مسحور نوع شرير لا تعرف التوبة سبيلاً إلى نفسه ، على ما في الحكايات، مركز كان تحوله الدوري إلى شكل نمر إما واقعاً منذ لحظة، أو على وشك الوقوع بعد لحظة وسار من أقصى حجرة نومه المترفة إلى أقصاها مستعرضة كرة ثانية صور الرحلة التي توافدت، غير مدعوة، على ذهنه : تصعيد الجاه البطيء في الكثيب عند غروب الشمس، ثم المغيب، والانحدار والطاحونة، والسجن القائم على الصخرة الشاهقة، والقرية الصغيرة الجاثمة في الغور، والفلاحين أمام العين، ومصلح الطرق يشير بقلنسوته الزرقاء إلى السلسلة التي تحت العربة وذكرته عين القرية بفوارة الماء في باريس، والصرة الصغيرة المنطرحة عند أدناها، والنسوة حانيات فوقها والرجل الفارع الطول رافعاً يديه

صارخاً لقد مات قال المركز :لقد زايطني الشعور بالقيظ الآن، وفي استطاعتي أن آوي إلى الفراش وعندئذ أطفأ جميع الأضواء ما خلا ضوء واحد مشتعل فوق المدفأة الضخمة، وسمع ما يخترق حجاب صمته بتنهيده طويلة ، فيما كان هو يستعد للرقاد وطوال ساعات ثقيلة ثلاث حدقت الوجوه الحجرية المعلقة على الجدران الخارجية تحديقة أعمى إلى الليل البهيم طوال ساعات ثلاث حمحت الجياد في الإسطبل أمام مذاودها، ونبحت الكلاب وأطلقت اليوم صوت لا يشبه الصوت الذي اصطلح الشعراء على نسبته إليها، إلا قليلا ولكن من العادات العنيدة المستحوزة على أمثالها المخلوقات أن لا تقول في أي يوم من الأيام، تقريبا، ما يعد لها من كلام ثلاث ساعات ثقيلة ووجوه القصر الحجرية من أسود وبشر، تحد الطرق كلها وخيمت الدجنة على المقبرة حتى صار من المتعذر التمييز بين واحدة من أكوام العشب السقيم فيها وبين الأخرى وكان في ميسور التمثال القائم فوق الصليب أن يكب على وجهه؛ إذ لم يكن يرى شيء وفي القرية استغرق جباة الضرائب والمكلفون بدفعها، في النوم أجل، نام أهلها المهزولون نوماً عميقاً، ولعلمهم أن يكونوا قد حلموا بالموائد والولائم، شأن الجائعين عادة، وبالرافه والراحة، شأن الرقي المسوق والثور الرازح تحت النير، فملأوا بطونهم واستروحوا عبا الحرية وفاضت عين القرية في خفاء وسكون، وتساقطت القطرات من فوارة القصر في خفاء وسكون أيضاً فإذا بالماء يسفح منهما كليهما كما سفحت الدقائق المتساقطة من ينبوع الزمن طوال ثلاث ساعات مظلمة حتى إذا تنفس الصبح غدت المياه المنبثقة من كل منهما شجية، وفتح عيون الوجوه الحجرية في القصر

وتدفق النور شيئاً بعد شيء حتي مست الشمس آخر الأمر رؤوس الأشجار الساكنة وصبت أشعتها على الكثيب وفي الوهج، بدت مياه فوارة القصر وكأنها استحالت إلى دم، وشاع الدم في وجوه التماثيل الحجرية وأنشدت الطير في نبرات عالية وعلى إطار نافذة حجرة نوم المركز تلك النافذة الكبيرة التي خربتها الرياح غنى طائر صغير أجمل أغانيه بأقصى ما يستطيع من قوة وعندئذ بدا أشد الوجوه الحجرية قرباً وكأنه يحدق فاغر الفم مروعة غمرت الشمس الوجوه بالضياء، ودبت الحياة في القرية وفتحت النوافذ، ورفع الحديد عن الأبواب الواهنة، وانطلق الناس مرتجفين وقد أنعشهم الهواء العذب النقي ومن ثم استهل أبناء القرية كدحها الذي لا يعرف الهوادة إلا لمأماً فأما بعضهم فمضوا إلى العين، وأما الأبقار البارزة العظام إلى تلك المراعي الشحيحة التي لا يمكن أن يجدوها على جوانب الطريق، وفي الكنيسة وعند الصليب ركع شخص أو شخصان وشهدت بقرة مسوقة صلوات هذين الراكعين، ملتمة طلوع الصباح بين الأعشاب البرية حول قدميها

أفاق القصر، جرياً على مألوف عادته بعد أن استيقظت القرية كلها ولكنه أفاق تدريجياً ومن غير ريب فقد احمرت، أول ما احمرت حراب الخنازير ومدى الطرد المستوحشة، شأنها في الأيام الخالية : أومضت ماضية تحت أشعة شمس الصباح ثم إن الأبواب والنوافذ فتحت على مصاريعها؛ وتلفتت الجياد في اصطبلاتها نحو النور والنضارة المتدفقين من الأبواب، والتمت أوراق الأشجار في حفيفها عند النواه ذات القضبان الحديدية، وأنشأت الكلاب تجذب سلاسلها في عنق وتشب متلهفة إلى الانطلاق

والواقع أن هذه الحوادث الطفيفة كلها كانت تؤلف جزءاً من نمط الحياة كلما أصبح الصباح أما قرع ناقوس القصر الكبير، الناس على سلالمه صاعدين نازلين، وإسراعهم إلى الاحتشاد على السطح وخبطهم خبط عشواء ههنا وههنا وفي كل مكان، وإسراجهم الخيل في مثل لمح البصر وانطلاقهم بها أما هذه كلها فلم تكن لتؤلف ، من غير شك، جزءاً من نمط الحياة في تلك القرية كلما أصبح الصباح أي ريح حملت أصداء هذا الهرج إلى مصلح الطرق الأشيب وكان قد استهل عمله عند قمة الكثيب خلف القرية، ووضع غدائه الخفيف الحمل المستقر في صرة تزهد فيها حتى الغربان، فوق ركام الحجارة؟ أتكون الطيور، الحاملة بعض بذور ذلك الهرج إلى المدى البعيد، قد ألقت عليه إحداها كما نثر بذور الحظ؟ وسواء أصبح هذا لم يصح، فقد أنشأ مصلح الطرق يعدو في ذلك الصباح الحار الرطب كان أهل القرية محتشدين كلهم حول العين، وقد رانت الكأبة على وجوههم وشرعوا يتهامسون ولكن من غير أن يتكشفوا عن أي انفعال غير الفضول والدهش الكالحين وكانت البقرات التي سيقنت على عجل وشدت إلى أي شيء يمسك بها ، تجيل الطرف في ما حولها في جنون أو تستلقي على الأرض مجتررة غذاء لا يتكافأ مع تعبها كانت قد وقعت عليه في جولتها المبتورة وكان نفر من أهل القصر، ونفر من العاملين في مركز البريد، وجميع جباة الضرائب مسلحين كثيراً أو قليلاً؛ وكانو قد احتشدوا على الجانب الآخر من الشارع الصغير على نحو محاز مشحون بالفراغ وكان مصلح الطرق قد انسل الآن وسط جماعة مؤلفة من خمسين صديقاً من أصدقائه الخالص، وراح يلطم صدره بقلنسوته الزرقاء: علام كان يدل ذلك كله؟

وعلام كان يدل وثوب مسيو جابيل إلى فرسه وثبة سريعة، ولحاه بخادم ما على جناح البرق برغم أن الفرس كانت مثقلة بحمل مضاعف فكأنما هو ترجمة جديدة لأنشودة ليونور الجرمانية؟

قد دلت على أن الوجوه الحجرية، هناك في القصر، قد زادت وجه جديد لقد أشرف الغول كرة أخرى على ذلك القصر، تلك الليلة ، وأضاف إلى الوجوه الحجرية الوجه الذي كان يعوزها، الوجه الحجري الذي انتظرته منذ مئتي عام كان مستلقيا على وسادة المركز وكان أشبه بقناع بارع أصابه الذعر فجأة، واستبد به الغضب، واستحال إلى حجارة وكان مدية قد غيبت في قلب ذلك الجسم الحجري وكانت حول مقبض المدية ورقة خطت عليها الكلمات التالية خطة رديئة : سوقوه في سرعة إلى قبره هذا من : جاك.

- ١٠ -

وعدان

وانقضى اثنا عشر شهراً، وعين مستر تشارلز دارني في انجلترا مدرساً للغة الفرنسية، وكان مطلع اطلاعاً حسناً على آدابها ولو عاش دارني في هذا العصر إذن لكان أستاذاً، أما في ذلك العصر فقد كان معلماً بسيطاً كان يدرس نفراً من الشبان الذين وجدوا متعة وفراء يمتنانهم من دراسة لغة حية ينطق بها في طول العالم وعرضه، وكان يغرس في نفوس طلابه حسن التذوق لما تنتوي عليه تلك اللغة من كنوز المعرفة والخيال

وكان إلى ذلك يجيد الكتابة عن تلك الكنوز بإنجليزية سليمة ويحسن نقلها إلى تلك اللغة ولم يكن هذا الضرب من المعلمين قريب المنال في ذلك العصر فما كان بين جماعة المعلمين أمراء كالذين عرفتهم الأيام الخالية، ولا كان بينهم ملوك كالذين جاءوا في الأيام اللاحقة، ولم يكن ثمة نبلاء حلت النكبة بساحتهم فأسقطت أسماؤهم من دفاتر مصرف تلسون وأثبتت في عداد الطهاة والنجارين وما هي؟ فترة حتى حظي دارني الشاب بوصفه مدرساً يمكنه علمه الواسع من إمتاع الطالب وإفادته على نحو فائق للعادة، وبوصفه مترجماً أنيقاً يوفر في عمله شيئاً غير مجرد المعرفة المعجمية - بالشهرة والتشجيع وكان فوق ذلك على علم بظروف بلاده وأحوالها وكان اهتمام الإنجليز بذلك يتعاضم يوماً بعد يوم وهكذا نعم بعيش رغد استحقه بالاجتهاد والكد وما كان ليتوقع أن يمشي، في لندن، على أرض مفروشة بالذهب أو أن ينام على شرر من الزهور ولو أنه كان يطمع بمثل ذلك إذن لوفق إلى النجاح لقد توقع العمل الكادح، ووجده، ونهض بعبئه، وأفاد منه أحسن الإفادة على هذه الأسس قام نجاحه كان يقضي جزءاً من وقته في كمبريدج حيث درس فريقاً من الطلاب الجامعيين غير المنتهين وكأنه مهيب غضت السلطات طرفها عنه فهو يقوم بتجارة غير مشروعة قوامها تهريب اللغات الأوروبية المحدثه، بدلاً من استيراد اللغتين اليونانية واللاتينية ودفع المكوس المفروضة عليهما إلى الجمر ك أما سائر وقته فكان يقضيه في لندن الآن، ومنذ تلك الأيام التي كانت كلها صيفاً في جنة عدن إلى هذه الأيام التي تكاد تكون كلها شتاء في خطوط العرض الساقطة من تلك العلياء، والرجل يتخذ أبداً سبيلاً واحداً سبيل تشارلز دارني سبيل حب المرأة.

لقد أحب لوسي مانيت منذ اللحظة التي تهدد الخطر فيها حياته فهو لم يسمع قط صوتاً أعذب ولا أروع من صوتها الحنون ولم ير قدر وجهها أروع وأجمل من وجهها حين جابه وجهه عند حافة القبر الذي حفر له ولكنه لم يحدثها شيئاً عن هذه المسألة كان مصرع المركيز في ذلك القصر المهجور القائم وراء الأمواج المتلاطمة والطرق المغبرة الطويلة، القصر الحجري الراسخ الذي انتهى إلى أن يصب ضباب لم ليس غير قد حال عليه الحول، ومع ذلك فلم يكشف لها ولو بكلمة واحدة، عما يختلج في فؤاده من الوجد كان يدري جيداً أن له في ذلك معاذيره وكان يوم صائفاً أيضاً ذلك الذي رجع فيه إلى لندن، منذ قريب بعد أن أنجز عمله التعليمي وعرج على الزاوية الهادئة في سوهو موطناً النفس على أن يغتتم أول فرصة تسنح له لمفاتحة الدكتور مانيت بالذي يجول في ذهنه ولذلك وجد الطبيب قاعدة في كرسيه ذي الذراعين يطالع قرب النافذة عاودته على نحو تدريجي تلك الطاقة التي أسعفته في احتمال القديمة وزادت حدة في أن معاً فهو الآن رجل بالغ النشاط حقاً، راسخ العزم مقدم وكانت تصيب طاقته المستعادة انتكاسات طفيفة بعض الأحيان، كمثل تلك التي كانت تصيبه أول الأمر عند ممارسة سائر ملكاته المستعادة ولكن هذا لم يكن ليلحظ في فترات متعاقبة، وقد غدا أمراً نادرة آخذة سبيله إلى الزوال لقد درس كثيراً، ونام قليلاً، وصبر على كثير من التعب في ارتياح وسعة صدر، وفي بشاشة وابتهاج وما أن رأى تشارلز دارني داخلاً عليه حتى وضع كتابه جانبا وبسط يده نحوه، قائلاً: تشارلز دارني أنا سعيد بأن أراك لقد كنا ننتظر عودتك في الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية كان كل من مستر سترافير وسيدني كارتون هنا أمس.

ولقد اتفقا على أنك تأخرت في العودة أكثر من عادتك أنا أشكر لهما اهتمامهما بذلك ، قال هذا في نبرة من البرود الضئيل؛ فيما يتصل بهما، وإن يكن في خطابه للطبيب كثير من الحرارة ثم أردف: من مانيت فقال الطبيب حين كنت تشارلز عن الكلام :إنها في صحة جيدة ولا ريب في أن عودتك سوف تبهجنا جميعاً لقد خرجت في بعض الشؤون المنزلية، ولكنها سوف ترجع عما قريب كنت أعرف أنها ليست في المنزل، يا دكتور مانيت ولم اغتنمت فرصة غيابها هذا لأستأذنك في التحدث إليك وراى على الغرفة سكون كامل وامتلأ أمره في ما يتصل بالكرسي؛ ولكنه بدا وكأنه يجد الكلام أمراً يسيراً وأخيراً استهل حديثه بالقول: لقد أسعدني حظي، يا دكتور مانيت بالتردد على منزلكم هذا منذ سنة ونصف، بحيث أرجو أن لا يكون في الموضوع الذي أوشك أن أقر به ما كان الطبيب قد بسط يده نحوه ليوقفه، فكفت عن الكلام حتى أبقاها هكذا فترة قصيرة قال وهو يثنىها: وهل لوسي هي موضوع الحديث؟ نعم من العسير علي أن أتحدث عنها في أي وقت من العسير على أن أسمع أحد يتحدث عنها في مثل نبرة صوتك هذه، يا تشارلز دارني فقال في احترام: إن ذلك بسبب الإعجاب المتقدم، والإكبار الصحيح، والحب العميق، يا دكتور مانيت وراى على الغرفة صمت آخر كامل قبل أن يضيف الطبيب: أنا أصدق ذلك لست أحب أن أظلمك أنا أصدق ذلك وكان عدم ارتياحه لإثارة هذا الموضوع واضحاً إلى درجة جعله تشارلز دارني يتردد هل أتابع الحديث، يا سيدي؟ وساد الصمت كرة أخرى نعم، تابع قد تحزر ما الذي سوف أقوله، ولكنك لن تستطيع أن تعلم مدى إخلاصي في قلبي إياه، ومدى الصدق الذي ينطوي عليه إحساسي به من غير أن تعرف سريرة فؤادي

والآمال والمخاوف وضروب القلق التي هو حبي لها لقد أحببتها أنت نفسك،
فليكن حبك القديم شفيح عندك كان الطبيب مشيحاً بوجهه عنه، مطرقاً ببصره إلى
الأرض حتى نطق دارني بكلماته الأخيرة سارع إلى بسط يده كرة ثانية وصاح :
لاتة هذا يا سيدي دع عنك ذلك أستحلفك بالله أن لا تهيج ذكرى ذلك وكانت صيحة
أشبه ما تكون بصراخ الألم الحقيقي حتى لقد ظلت ترن في أذني تشارلز دارني
بعد فترة طويلة من التزام الطبيب بالصمت وأوماً باليد التي سبق له أن بسطها ،
فكأنما كان يلتمس من دارني أن يمسه عن الكلام وفهمها دارني على هذا النحو
فظل صامتاً وبعد لحظات قال الطبيب بصوت محزون عفوك يا سيدي أنا أشك
في حبك للوسي إطمئن من هذه الناحية ثم إنه تحول نحوه بكرسيه، ولكنه لم ينظر
إليه، ولم يرفع عينيه وأسند ذقنه بيده ونشر شعر الأبيض ظله على وجهه هل
تحدثت إلى لوسي ذات يوم، في هذا الموضوع؟ لا ولا كتبت إليها؟ مطلقاً ليس
من الشهامة أن أظهار جهلي أن إنكارك لذاتك لا يعدو أن يكون مراعاة منك
لحرمة أبيها إن أباه يشكر على ذلك ومد يده إليه، ولكن عينيه لم تسيراها
وقال دارني في احترام أنا أعرف، يا دكتور مانيت، وكيف أستطيع أن لا أعرف،
وأنا الذي شهدتكم معاً يوماً بعد يوم، إن بينك وبين مس مانيت مودة مؤثرة هي
وراء المودات، مودة شديدة الاتصال ما وكيف أستطيع أن لا أعرف، أنها تحبك
حب الطفلة بما ينطوي عليه من تبعية واتكال، وحب البنت التي أصبحت امرأة
بما ينطوي عليه من شعور بالواجب أنا أعرف أنها، وقد افتقدت في طفولتها
عطف الأب، تقف نفسها اليوم لخدمتك بكل ما في شخصيتها وسنواتي الحاضرة
من وفاء وحمية، ممزوجة بألفة الأيام السالفة التي فقدته خلالها، وثقتها.

لقد عرفت ذلك، وإنني لأذكره ليل نهار، منذ أن عرفتك في بيتك هذا كان أبوها معتصم بالصمت مطرقاً بوجهه إلى الأرض وكأن أنفاسه قد تسارعت بعض الشيء، ولكنه كبت سائر إمارات الاهتمام وإذ كنت أعرف ذلك دائماً، يا عزيزي الدكتور مانيت، وإذ كنه أراها وأراك تحف بكما هالة من النور المقدس فقد اضطبر واضطبرت على مقدار ما تتسع طبيعة الإنسان للصبر لقد استشعرت، بل إن الأستشعار الآن، أن إقحام حبي بينكما يعني مس تاريخكما بشيء لا يدان روعة ومجداً ولكني أحبها وإنني لأشهد الله على هذا الحب فأجاب الأب بصوت حزين جداً أنا أعتقد ذلك لقد خطر لي أمر قبل أنا أعتقد ذلك فقال دارني وقد وجدت أذنه في الصوت الحزين جداً معنى مرار واثقة من ذلك لما أجزت لنفسني أن أقول كلمة واحدة مما قلّه الآن في ذلك لخسة ودناءة، فضلاً عن أنه متعذر ولو قد كنت أعتزم أي شيء مثل هذا، حتى بعد سنين متطاولة، وأكنه في ضميري أو أخبئه في فؤادي لو كان ثمة إمكانية كهذه، بل لو كان من الجائز أن تنشأ في يوم من الأيام إمكانية كهذه، إذن لما استطعت الآن أن ألمس هذه اليد الشريفة ووضع يده عليها فيما هو يتكلم لا، يا عزيزي الدكتور مانيت أنا مثلك مبعوث من فرنسا إبعاداً اختيارياً، أنا مثلك أخرجتني منها مساوئ الحكم والمظالم وآيات البؤس والشقاء أنا مثلك أكافح للعيش بعيداً عن ذلك كله بنشاطي وكذي وأتطلع إلى مستقبل أسعد أنا لا أطمع في شيء غير مشاطرتنا حظوظك، ومشاركتك حياتك وبيتك، وغير الإخلاص لك حتى الموت ولست أبغي من وراء ذلك أن أقاسم لوسي امتيازاتها بوصفها ابنتك ورفيقتك، وصديقتك، بل أن أوطد تلك الامتيازات، وأزيد لوسي قرباً إليك إذا كان شيء مثل ذلك ممكناً.

وكانت يده لا تزال على يد أبيها وجواباً عن تلك اللمسة، ولك من غير برود، أراح الطبيب يديه على ذراعي كرسيه، ورفع بصره للمرة الأولى منذ بدء الحديث كانت تبدو على وجهه أمارات صراع، تغلب عليها بين الفينة والفينة سيما الشك والذعر إنك تتحدث، يا تشارلز دارني، حديثاً يزخر بالعاطفة والرجولة إلى درجة تحملني على أن أشكرك من صميم فؤادي وعلى أن أفتح لك قلبي كله، أو معظمه على الأقل ألدك من الأسباب ما يملكك على الاعتقاد بأن لوسي تحبك؟ لا ليس عندي شيء في ذلك حتى الآن ولا هذا أيضاً إنني قد لا أطمع في أن أفعل ذلك بعد أسابيع ومن يدري، فقد أرجو ذلك مخطئاً أو غير مخطئ في غد أتلتمس مني إرشاد ما؟ أنا لا أسألك شيئاً يا سيدي ولكن خطر ببالي أن من الممكن أن يكون في وسعك، إذا كنت تقر ذلك، أن تزودني ببعض الإرشاد أتسألني وعدة ما ؟ أجل، إنني أسألك ذلك وما هو؟ أنا أدري جيداً أنه لا أمل لي بدونك أنا أدري جيداً أنه حتى ولو كانت الأنسة مانيت تنزلني في هذه اللحظة في مكان ما من قلبي البريء وأرجو أن لا تحسب أن عندي من الغرور ما يحملني على افتراض ذلك فلست أستطيع الاحتفاظ بأي مكان من قلبها يتعارض وحبها لأبيها إذا كان ذلك كذلك، فهل تعرف، من ناحية أخرى، ما الذي يترتب على هذا ؟ أنا أدرك جيداً أن كلمة يقولها أبوها في الثناء على أي خاطب يطلب يدها خليقاً بأن ترجح ميلها الخاص وترجح العالم كله ومن أجل ذلك ، قال دارني هذا في حياء ولكن في عزم، فلن أكلفك قول هذا الكلمة ولو كانت تساوي حياتي أنا واثق من ذلك واعلم، يا تشارلز دارني، أن الألغاز تنبتق من الحب الوثيق بقدر ما تنبتق من الانفصال الجافي وهي في الحال الأول خفية دقيقة يصعب النفاذ إليها.

والواقع أن ابنتي لوسي هي، من هذا هل لي أن أسألك يا سيدي، إذا ما كنت تفكر أنها حتى رأي الطبيب إلى ترده أتم الجملة بالنيابة عنه - : إن خاطب آخر يطلب يدها؟ هذا ما عنيت أن أقوله وفكر أبوها، بعض الشيء، قبل أن يجيب: لقد رأيت مستر كارتون هنا، بعينك كذلك يزورنا مستر سترافير بين الفينة والفينة فإن كان ثم من يفكر في خطبتها فقد يكون واحداً من هذين فقال دارني: أو كليهما أنا لم أفكر في أنهما كليهما قد يرغبان فيها وينبغي أن لا أفكر في أغلب الظن لقد سألتني أن أعدك وعداً فقل ما هو؟

- هو أنه إذا ما سارتك مس مانيت، في أي وقت، بمثل هذا الحديث الذي جرأت على الإفضاء به إليك، فأدل إليها بالذي قلته لك وبرأيك فيه وأرجو أن يكون في ميسورك أن تحسن الظن بي بحيث توحى إليها بشيء ليس في مصلحتي أنا لا أقول شيئاً إضافياً عن حظ في هذا الميدان ذلك ما أسألك إياه أما الشرط الذي أقيم عليه سؤالى هذا، والذي يحق لك من غير شك أن تطلبه ، فسوف أنفذه في الحال فقال الطبيب: إني أعدك بذلك من غير قيد ولا شرط أنا مؤمن بصدق ما تقول،ولست أشك في أنك ترمي إلى توثيق الروابط التي بيني وبين نفسي الأخرى الأعز على قلبي،لاإلى توهينها فإذا أفضت إلي في أي يوم بأن سعادتها الكاملة لا تتم إلا بالزواج منك فعندئذ أقدمها لك وإذا كان ثمة يا تشارلز دارني، إذا كان ثمة وكان الشاب قد أمسك بيد الدكتور مانيت إقراراً بفضلها ، وكانت يدهما متصافحتين فيما تابع الطبيب حديثه : مسؤولية ذلك المباشرة لا تقع على كاهله فينبغي أن يمحي ذلك كله من أجلها إنها كل شيء عندي إنها عندي فوق العذاب إنها عندي فوق الظلم؛ إنها عندي حسناً ذلك لغو لاغناء فيه

وكانت الطريقة التي لجأ بها إلى الصمت ونظرته المركزة، عنده كف عن الكلام، غريبتين إلى حد جعل دارني يحس بأن يده هو أصابها البرد في يد الطبيب التي أفلتتها شيئاً بعد شيء وقال الدكتور مانيت وقد افتر ثغره عن ابتسامة : لقد قلت لي شيئاً ما ذلك الشيء الذي قلته لي؟ لم يدر دارني بماذا يجيب، إلا بعد أن تذكر أنه تحدث عن شره ما وعندئذ سري عنه وأجاب قائلاً: يتعين علي أن أبادلك ثقة بثقة اسمي الحالي، وإن يكن غير مختلف إلا اختلافات طفيفة عن اسم أمي ليس كما تذكر اسمي الحقيقي وأحب الآن أن أبوح لك بهذا الاسم وأكشف عن السبب الذي من أجله أعيش في انجلترا فقال الطبيب :قف إنما أحببت أن أفعل ذلك لكي أكون أجدر بثقتك، ولكي أخفي عليك سراً ما قف قال الطبيب ذلك ووضع يديه الاثنتين على أذنيه ، لحظة ثم وضعهما على شفتي دارني، لحظة أخرى قل لي ذلك حين أسألك، لا الآن فإذا ما وفقت في خطبتك وإذا ما أحببتك لوسي فعندئذ يكون في ميسورك أن تخبرني بذلك صباح يوم زفافك هل تعطني بهذا ؟ بكل سرور ماداً إلي يدك إنها سوف تعود في الحال، ومن الخير أن لا ترا اداء عادت لوسي، بعد ساعة، إلى المنزل ولقد هرعت إلى الغرفة منفردة ذلك بأن مس بروس صعدت السلم إلى الدور العلوي مباشرة وأخذته الدهش إذ رأت كرسي أبيها الخاص بالمطالعة خالياً ونادته : أبي أبي العزيز ولم تلق جواباً ما، ولكنها سمعت صدى طرق خفيض ينبعث من حجرة نومه وفي خفة، اجتازت الغرفة المتوسطة، واختلست النظر من خلال بابها، ثم انكفأت مروعة صائحة وقد ارتعدت أوصالها :ما الذي ينبغي أن أفعله ما الذي ينبغي أن أفعله ولم يطل ترددها غير لحظة ثم هرعت راجعة إلى حجرته، وقرعت بابها، ونادته في رقة

وانقطع صدى الطرق حين سمع صوتها، وفي الحال خرج مليباً نداءها، وأنشأ يذرعان الغرفة جيئة وذهاباً، فترة طويلة وفي تلك الليلة غادرت فراشها لتراه وهو نائم كان غارقاً في نوم عميق، وكان الطبق المشتمل على أدواته الخاصة بصنع الأحذية والحذاء القديم الذي لا يتم بعد، لا يزالان في موضعهما المعتاد.

- ١١ -

صورة رفيقين

وفي تلك الليلة نفسها أو ذلك الصباح عينه، قال المستر ستراية الابن آواه: سيدني، بعد أن أعد مقدار إضافي من شراب البنش إن عندي شي أقوله لك كان سيدني قد عمل ضعف عمله المعتاد تلك الليلة، واللييلة التي قبلها واللييلة التي قبل هذه الأخيرة، وليالي كثيرة متعاقبة، مجرية تصف واسعة بين أوراق مستر سترايفر قبل أن تبدأ العطلة القضائية الكبرى أنجزت هذه التصفية آخر الأمر، وجمعت ديون سترايفر المتأخرة كلها في براعة، وتم التخلص من كل شيء حتى يأتي نوفمبر بضياءه الجوي وضبابه القانوني، ويحمل القمح إلى المطحنة ، كرة أخرى ولم يكن سيدني من النشاط والصحو بمكان يجعله أقدر الناس على هذه المهمة الضخمة ولقد اقتضته مزيد من المناشف المرطبة تعينه على إنفاق الليل كله في العمل الدائب الموصول وكان مقدار من الخمر إضافي قد سبق تبليل المناشف، وكان قد انتهى إلى حال من الإعي البالغ، فهو ينزع عمامته عن رأسه ويقذف بها إلى الحوض الذي مسم فيه، بين الفينة والفينة، خلال الساعات الست الأخيرة

-هل تعد قدرة إضافية من شراب البنش؟ كذلك تساءل ستراية الضخم البدين،
ويده في حزامه، مجية طرفه في الغرفة من فوق الأريكة التي كان مستلقياً عليها.
-أجل إسمع سوف أخبرك شيئاً لا بد أن يدهشك ، وقد يجعلك تفهم أنني لست ذكية
بقدر ما تعودت أن تحسبني أنا أعتزم أن أتزوج حقاً نعم وليس من أجل المال فما
قولك الآن؟ إنني لا أجد في نفسي ميلاً إلى الإسهاب في الكلام من هي؟ إحزر
هل أعرفها؟ إحزر أنا لا أريد أن أحزر، وقد بلغت الساعة الخامسة صباحاً،
وشرر دماغي يغلي ويتطاير رشاش منه في رأسي فإذا كنت تريد مني أن أحزر
فينبغي أن تمهلي حتى المساء وتدعوني إلى العشاء فقال سترابير مستوياً على
الأريكة في تناقل وبطء : حسناً إذن سوف أخبرك لقد ينست من أن أوفق إلى
حملك على فهمي :سيدني، لأنك في الواقع كلب فاقد الحس إلى أبعد الحدود فأجابه
سيدني وهو منهمك في إعداد الشراب :أما أنت فرو شاعرية حساسة إلى أبعد
الحدود أردف سترابير ضاحكاً في اعتزاز : على رسلك أنا لا أحب أن أدعي
أنني ذو خيال وشاعرية لأنني أرجو أن أكون أعقل من ذلك ومن هذا فلا شك في
أنني رجل أرق عاطفة منك أنت أكثر حظاً ، إذا كنت تعني ذلك لا، لست أعني
ذلك أنا أعني أنني رجل أكثر أكثر وأوحى إليه كارتون بتتمة الكلام: قل إنك أكثر
غزلاً ما دمت تحوم حوم الشراب : حسناً سوف أقول ذلك أقصد أنني رجل يعني
أكثر مما تعني بأن يكون قريباً إلى النفس رجل يتجشم تعباً أكثر مما تتجشم لكي
يكون قريباً إلى النفس رجل يعرف أكثر مما تعرف كيف يجعل نفسه قريباً إلى
النفس في حضرة المرأة فقال سيدني كارتون: تابع فقال سترابير وهو يهز رأسه
بطريقته المرحية: لا ولكن قبل أن أتابع أريد أن أتفاهم معك على هذه المسألة

لقد ترددت على منزل الدكتور مانيت قدر ما تردد أنا، أو أكثر من ذلك والواقع أنني كنت أخجل من شكاستك هناك لقد كان سلوكك من ذلك النوع الصامت المقطب الزري إلى حد جعلني، أقسم لك بحياتي، أستحي منك ؟ سيدني فأجاب سيدني: يجب أن يكون من النافع جداً لرجل متمرس بالدفاع أمام المحاكم أن يستحي من أي شيء يجب أن تشكرني أجزل الشكر على ذلك.

فقال سترابير : إنك لن تتخلص بهذه الطريقة لا، يا سيدني، من واجبي أن أخبرك أن أخبرك في وجهك حرصاً مني على مصلحتك إنك رجل لا يحسن التكيف في ذلك النوع من المجتمعات إنك إنسان منفر كرع سيدني كأس مترعة بشراب البنش الذي أعده، وضحك وقال سترابير رافع كتفيه في استخفاف: انظر إلي أنا أقل من حاجة إلى أن أجعل نفسي قريباً إلى قلوب الناس بوصفي أكثر استقلال في كسب الرزق فلماذا أفعل هذا؟ فغمغم كارتون: أنا لم أرك تفعل ذلك قط حتى الآن فقال كارتون في غير مبالاة أنت غير ناجح في روايتك المقاصد من الزواج وإني لأرجو أن تظل كذلك أما فيما يتصل بي أما أن لك أن تدرك أنني رجل لا سبيل إلى إصلاحه؟ وإنما طرح سؤاله هذا في شيء من الازدراء فأجابه صديقه بصوت لا ينطوي على كثير من المؤاساة: ليس هذا حقك أن تكون رجلاً لا سبيل إلى إصلاحه فقال سيدني كارتون: بل لست أعرف سبباً يجعل من حقي أن أكون في هذا العالم من هذه السيدة؟ فأجابه مستر سترابير مهيباً صديقه في تلطف ظاهر، لسماع ما سوف يصرح له به : ولكن، حذار أن تقلقك إذاعة الأسم يا سيدني، لأنني أعلم أنك لا تعني نصف ما تقول ولو أنك عنيت كل ما قلته لما كان لذلك أي خطر وإنما قدم لاسمها بهذه المقدمة الصغيرة.

لأنك أشرت إلى السيدة الشابة في بعض أحاديثك السالفة، إشارة انتقصت فيها من قدرها أنا فعلت ذلك؟ من غير ريب وفي هذا المكان بالذات ونظر سيدني كارتون إلى شراب البنش الذي أمامه، ونظر إلى صديقة المتلطف ثم احتسى شرابه ونظر إلى صديقه المتلطف أيضاً لقد أشرت إلى تلك السيدة الشابة بوصفها دمية ذات شعر ذهبي إن السيدة الشابة هي مس مانيت ولو كنت، يا سيدني، رجلاً يتمتع بأقل قدر من الرقة واللفظ إذن لأخذني الغيظ بعض الشيء بسبب من كلمتك تلك ولكنك لست ذلك الرجل إنك لا تملك ذرة من هاتين الصفتين ومن أجل ذلك أجدني لا أعتاظ حين أفكر في تعبيرك إلا بمقدار واحتسى سيدني كارتون شراب البنش في سرعة بالغة كان يترك كأسه ثم يكرعها دفعة واحدة ، ناظراً إلى صديقه وقال مستر سترافير : ها قد عرفت كل شيء عن ذلك يا سيدني أنا لا أبالي بأمر المال: إنها فتاة فاتنة، وعلى الجملة، أحسب أن في طاقتي أن أمتع نفسي ولسوف تجد في شخصي رجلاً ذا نعمة، رجلاً يشق طريقه إلى المجد في سرعة ويتمتع ببعض المكانة والصيت إن هذا لمن حسن حظها، ولكن جديراً بالخط الحسن أمتعجب أنت؟ وأجاب كارتون وهو لا يزال يحتسي شراب البنش :وما الذي يحملني على العجب؟ هل توافق؟ فأجاب كارتون وهو لا يزال يحتسي شراب البنش أيضاً : وما الذي يحملني على أن أوافق؟ فقال صديقه سترافير : حسناً، لقد تلقيت النبأ بلامبالاة أكثر مرة كنت أتوقع؛ وإنك لتبدي من الإخلاص أكثر مما كنت أحسب، وإن كنت انتهيت إلى أن تعرف الآن، معرفة جيدة أن صديقك القديم رجل ذو إرادة حديدية أجل، يا سيدني، لقد مللت هذا الطراز من الحياة الذي يتغير.

وإني لأحس بأن من الجميل أن يكون للرجل بيت يأوي إليه حتي يؤانس من نفسه الرغبة في ذلك وأعتقد أن مس مانيت خليقة بأن تترك أثرا صالحا حيثما كانت، وأنها سوف تكون دائماً أهلاً لثقتي وهكذا وطن العزم على الزواج والآن يا سيدني، أيها الغلام العجوز أريد أن أقول لك كلمة في ما يتصل بمستقبلك إنني كما تعرف، في حال لاترضني إنك حقاً في حال لا ترضي أنت لا تعرف قيمة المال وتابع سترابير : والآن دعني أنصح لك أن تواجه المسألة من غير موارد لقد واجهتها أنا من غير موارد، على طريقتي الخاصة ويتعين عليك أنت أن تواجهها من غير موارد، على طريقتك الخاصة تزوج التمس امرأة تعني بك ولا يؤخرك عن ذلك عشرتك من عشرة النساء وعدم فهمك لها، وقلة براعتك فيها إبحث عن امرأة ما إبحث عن امرأة محترمة على شيء من الثروة امرأة صاحبة فندق مثلاً، أو صاحبة غرف تؤجرها وتزوجها وقاية لنفسك في اليوم المطير هذا هو الصنيع اللائق بك ففكر في ذلك، الآن، يا سيدني فقال سيدني: سوف أفكر في ذلك.

- ١٢ -

الرجل اللطيف

وإذ كان مستر سترابير قد وطن العزم على أن يسبغ على ابنة هذه الحلة الشريفة من الحظ الحسن، فقد قرر أن يشعرها بتلك السعار قبل أن تحين العطلة الكبرى ويغادر المدينة وبعد أن درس المسألة انتهى إلى أن من الخير له أن يقوم بجميع الخطوات التمهيدية وعندئذ يكون في مقدورهم أن يختاروا، على مهل، إحدى خطتين: أن يطلب يدها قبل أسبوع أو أسبوعين من بدء الموسم القضائي

وإما أن يفعل ذلك في عطلة عيد الميلاد القصيرة .

ولم يكن في شك من سلامة دعواه وقوتها، بل رأى سبيله إلى الحكم بينا واضحاً
وإذ أقام حجته أمام المحلفين على أسس مادية ودنيوية وهي الأسس الوحيدة
الجديرة بأن تؤخذ في الاعتبار فقد كانت قضيته صريحة ليس فيها موطن ضعف
لقد اتخذ موقف الادعاء، ولم يكن ثمة داع إلى أن يأتي بشهود ، وألقى محامي
الدفاع دفاعه الموجز، وأصدر المحلفون حكمهم من غير مذاكرة أو مداولة وهكذا
وقع في روع مستر سترافير أن ليس بين القضايا أوضح من قضيته فافتتح العطلة
القضائية الكبرى بأن عرض على مسز مانيت، رسمياً، أن تذهب معه إلى حدائق
فوكسهول، حتى إذا أخفق هذا العرض اقترح أن يذهبا إلى راينلاج وحين أخفق
هذا العرض الثاني إخفاقاً لا سبيل إلى تعليه ، تعين عليه أن يقصد إلى سوهو
حيث يعلن عن غرضه النبيل وإذن فقد شق مستر سترافير طريقه من تامبل بار
إلى سوهو في كانت في العطلة القضائية الكبرى التي يستقبلها بنعومة ناضرة،
ما تزال، على وجهه ولو رآه أي امرئ وهو يقحم نفسه في سوهو برغم أنه لا
يزال على جانب سانت دانستان من تامبل بار دافعاً المستضعفين من الناس عن
طريقه، إذن لرأى رجلاً بالغ القوة عظيم الثقة بالنفس وإذ كانت طريقة تقوده في
اتجاه مصرف تلسون، وإذ كان يعلم تلك المؤسسة المالية ويعرف في آن معاً
الصدقة الوثيقة التي تربط مستر لوري بأسرة مانيت، فقد فكر مستر سترافير أن
يدخل المصرف ويكشف المستر لوري عن السعادة التي تلوح على أفق سوهو
وهكذا دفع الباب ذا الصرير الواهن وهبط درجتي السلم متعثراً، واجتاز بأمني
الصندوق العجوزين وشق طريقه نحو الحجرة العفنة السوداء

حيث قعد مستر لورى وقد طرحت أمامه الدفاتر الضخمة المسطرة تسطيراً خاصة بالأرقام واستقامت عند نافذته قضبان حديدية عمودية يخيل إلى الناظر أنها سطرت هي الأخرى تسطيرة خاصة بالأرقام، وبدا كل شيء تحت الشمس وكأنه حاصل ذلك الجمع قال مستر سترايفر : هاللو كيف أنت؟ أرجو أن تكون في حالة.

حسنة وكانت أكبر خصائص سترايفر أنه يبدو دائماً أضخم من أن يتسع مكان أو فسحة ما فلا عجب إذا ما ضاق به مصرف تلسون إلى درجة جعلت الموظفين الشيوخ القابعين في الزوايا القصية يرفعون أبصارهم في احتجاج، وكأنه قد زحمهم على صفحة الجدار ليس هذا فحسب، بل إن مدير المصرف نفسه، المنصرف في جلال إلى قراءة الصحيفة قال مستر لوري الحكيم بنبرة خاصة يلجأ إليها في مثل تلك الظروف: وكيف أنت يا مستر سترايفر؟ كيف أنت يا سيدي وصافحه وكانت له طريقة في المصافحة تلفت النظر، وهي تلك التي يصطنعها أيما رجل من رجال مصرف تلسون حين ينظر في غمرة العمل إلى أحد الزبائن لقد صافحه في موضوعية وإنكار ذات، وكأنما يصافح نيابة عن تلسون وشركائه وتساءل مستر لوري بوصفه رجل أعمال :هل أستطيع أن أقدم إليك أي خدمة يا مستر سترايفر؟ لا ، شكراً هذه زيارة شخصية لك، يا مستر لوري لقد جئت لكي أقول لك كلمة خاصة أوه، حقاً كذلك قال مستر لوري، لاوياً أذنه إلى أدنى، فقد اتجهت عينه إلى مركز الإدارة النائي وقال مستر سترايفر مسنداً ذراعيه، في ثقة، إلى المنضدة التي ضاقت بهما برغم أنها ضخمة مزدوجة، وكأنها نصف منضدة : سوف أطلب يد الأنسة مانيت، صديقتك الصغيرة القريبة إلى الفؤاد

يا مستر لوري فصاح مستر لوري، وهو يحك ذقنه وينظر إلى زائره في ارتياب
أوه، عجب فكرر مستر سترايفر مرتد إلى الوراء: أوه عجباً، يا سيدي؟ الذي
تعنيه بذلك يا مستر لوري؟ فقال رجل الأعمال: إن ما أعنيه طبعاً والذي ينضح
بتقدير لفكرتك ويشير إلى أن هذه الفكرة سوف تكسبك الحمد والثناء وعلى الجملة
فأنا أعني كل الأشياء التي ترغب فيها ولكن في الواقع، أنت تعلم مستر سترايفر
وتمهل مستر لوري وهز رأسه أمامه هزة عجيبة فقال سترايفر صانعاً المنضدة
بيده المخاصمة، محملاً، أخذاً نفساً طويلاً: أكون جديراً بالشنق إذا فهمت كلامك
يا مستر لوري وعدل مستر لوري وضع لمتة المستعارة الصغيرة عند أذنيه
كلتيهما كوسيلة لبلوغ تلك الغاية، وعض على ريشة القلم وحقق مستر سترايفر
إليه وتساءل: لعنها الله يا سيدي فأجاب مستر لوري: أوه، نعم نعم أوه نعم، أنت
رجل مرغوب فيه إذا قلت ذلك فليس من شك في أنه كذلك وتساءل سترايفر :
ألسنت ثرياً؟ فأجاب مستر لوري: أوه، إذا نظرنا إلى ناحية الثراء فأنت ثري
ألسنت أشق طريقي إلى المجد؟ فقال مستر لوري وقد ابتهج لقدرته على أن يعترف
له بميزة أخرى وإذا جننا إلى شق الطريق إلى المجد استطعنا أن نقول إن هذا ما
يشك به أحد فتساءل مستر سترايفر وقد كاد يسقط في يده: إذن فخيرني بحجم
الجحيم ما المعنى الذي رميت إليه؟ فسأله مستر لوري سنة أنا هل كنت ذاهباً
إلى هنا الآن؟ فقال سترايفر وهو يضرب المنضدة بجميع كفه : مباشرة لو كنت
مكانك لما أقدمت على ذلك فقال سترايفر : لماذا؟ الآن سوف أخرجك وهز سبابته
في وجه صاحبه على نحو قضائي جدلي:

أنت رجل أعمال، وخليق بك أن يكون لديك سبب يحملك على ذلك أفصح عن هذا السبب من غير أن يكون لدي سبب يدعوني إلى الاعتقاد بأنني سوف أنجح فصاح سترايفر : لعنني الله ولكن هذا يفوق كل ما قلته غرابة ونقل مستر لوري طرفه من مقر الإدارة القصي إلى سترايفر المغضب وقال سترايفر : هو ذا رجل أعمال رجل سنين حنكة وتجربة في مصرف، أجمل له ثلاثة أسباب رئيسية للنجاح الكامل ثم يقول إنه ليس ثمة سبب على الإطلاق يقول ذلك ورأسه بين كتفيه ؛ وإنما أرسل مستر سترايفر هذه الملاحظة الأخيرة وكأنما كان الأمر أقل غرابة، إلى حد لا نهائي، لو أن مستر لوري قال ذلك وليس بين كتفيه رأس قال مستر لوري مرتباً في رفق على ذراع سترايفر : حين أتحدث عن النجاح فإنما أقصد النجاح لدى السيدة الشابة وحين أتحدث عن العد والأسباب التي تجعل النجاح ممكناً فإنما أقصد العلل والأسباب التي تترك أثرها في نفس السيدة الشابة يا سيدي الطيب إن مشيئة السيدة الشابة مقدمة على كل مشيئة فقال سترايفر رافعاً كتفيه في استخفاف: إذن فأنت تريد أن تخبرني، يا مستر لوري، إنك تعتقد بأن السيدة الشابة التي نتحدث عنها مجنونة؟ فقال مستر لوري وقد صعد الدم إلى وجهه : لست أقصد ذلك تماماً أريد أن أقول لك إنني لم أسمع من شفتيك أي كلمة تنتقص من قدر تلك السيدة الشابة وإنني لو عرفت أي رجل وأرجو أن لا أفعل عنده من خشونة الذوق وصلف المزاج ما يجعله لا يمسك لسانه عن الانقصاص من قدر تلك السيدة الشابة أمام هذه المنصدة فلن يثنيني شيء مستر سترايفر ان عروق مستر لوري برغم جريان الدم فيها على نحو نظامي في الأحوال العادية بأحسن حالا وقد جاء دوره الآن في الغضب.

وقال مستر لوري: ذلك ما قصدت إلى قوله، يا سيدي أرجو ألا تسيئ فهمي مطلقاً وأنشأ مستر سترايفر يمتص طرف مسطرة ما، فترة قصيرة، ثم أرسل من بين أسنانه ، بواسطة تلك المسطرة، صوتاً ولعل ذلك هو الذي أورثه وجعاً في الأسنان وأخيراً، قطع الصمت الثقيل بقوله هذا شيء جد على، يا مستر لوري إنك تتصح لي، بعد روية وتفكير، أن لا أمضى إلى سوهو وأعرض نفسي أنا سترايفر المحامي في محاكم الملك؟ هل تسألني نصيحة ما، يا مستر سترايفر ؟ أجل حسن جداً سوف أقدمها إليك وضحك سترايفر ضحكة مغيظة :وكل ما أستطيع أن أقوله عنه إنه أمر يفوق غرابة كل الأشياء الماضية، والحاضرة والمستقبل فتابع مستر لوري: والآن، إفهمني إنني، بوصفي رجل أعمال يحق لي أن أقول شيئاً عن هذه المسألة، لأنني، كرجل أعمال، لست أعرف شيئاً عنها أما بوصفي رجلاً عجوزاً سبق له أن حمل مس مانبيت بين ذراعيه، رجلاً يحظى بصداقة مس مانبيت وثقتها وصداقة أبيها وثقتها أيضاً، رجلاً تشده إليها عاطفة قوية، فقد قلت ما ينبغي أن أقوله وتنس أنني لم أسع سعياً والآن، هل تظن أن من الجائز أن لا أكون مصيباً؟ ان في ميسوري أن أقرر هذه الأشياء بنفسي أنا أفترض العقل في مواطن بعينها، وأنت تقترض أن كسب الرزق وضرورات المعيشة هراء ذلك شيء جديد علي، ولكنني أستطيع أن أقول إنك على صواب فقال مستر لوري وقد احتقن الدم في وجهة مرة أخرى ما أفترض حق من حقوقي أصفه لنفسي وأفهمني، ياسيدي، أنا لن أسمح لن أسمح حتى في مصرف تلسون - بأن يصفه لي أي إنسان على وجه الأرض فقال سترايفر: كفى ألتمس منك المَعذرة لقد منحتك إياها، شكراً لك حسناً، يا مستر سترايفر

لقد كنت على وشك أن أقول : قد تتألم إذا اكتشفت أنك مخطئ، وقد يتألم الدكتور مانيت إذا وجد نفسه مضطراً إلى مصارحتك بالحقيقة، وقد تستشعر الأنسة مانيت أعظم الألم إذا تعين عليها أن تصارحك هي الأخرى بالحقيقة أنت تعرف منزلتي عند الأسرة وما أتمتع به من شرف صداقتها والرأي عندي أن أمضي بنفسي إلى هناك، من غير أن يكون في ذهابي معنى تمثيلك أو النطق بلسانك، وأحاول أن أصحح رأيي عن طريق الملاحظة الجديدة والتبصر الحكيم فإن لم ترتح إلى مشورتي به ذلك فعندئذ يكون في ميسورك أن تختبر سلامتها بنفسك أما إذا ارتحت إليها، وكانت ما قلته لك الآن، في جميع الفرقاء مؤونة يجب أن يكفوها ماذا تقول؟ وكم سوف تبقيني في المدينة أوه، إنها مسألة ساعات قليلة، ليس غير في استطاعتي أن أذهب إلى سوهو، عندما يهبط الليل، ثم أرجع إلى منزلك بعد ذلك فقال سترابير : إذن أوافق، أنا لن أذهب إلى هناك الآن، ولس بمتلهف على ذلك أقول إنني أوافق، وإنني أتوقع أن تعرج علي هذا اقتضت الموظفين العجوزين المنحنيين خلف منضدتيهما بذل البقية الباقية من قوتيهما ابتغاء الصمود في وجهها وكان هذان الرجلان الجليلان الواهنان لا يبدوان لأعين الجمهور إلا منحنيين، وكان الناس يعتقدون أنهما إذا ما انحنيا مودعين رجلاً يغادر المصرف، أقاما على ذلك الوضع، في المكتب الخالي، حتى يدخل المصرف رجل فيستقبلا بتلك الانحناءة وكان المحامي من الذكاء بحيث يفطن إلى أن المصرفي ماكان ليندفع ذلك الاندفاع في التعبير عن رأيه لو لم يكن واثقاً مما يقول كل الثقة وهكذا ازدرد ذلك القرص الضخم المرير، على الرغم من أنه ، كان مستعداً لهذا قط وقال مستر سترابير، حين انتهى القرص إلى معدته

هزأً سبابته القضائية الجدلية في وجه تامل بار كله: والآن إن سبيلي إلى الخلاص من ذلك هو أن ألبسكم جميعاً ثوب المذنب كان ذلك جزءاً من حنكة متمرس بمحكمة الجنايات عاد عليه بأعظم العزاء وقال مستر سترافير : إن لن تلبسيني ثوب المذنب النادم، أيتر السيدة الصغيرة أنا الذي سوف ألبس ذلك الثوب وحين انكفأ مستر لوري في الساعة العاشرة من تلك الليلة بدا مستر سترافير، وسطر كرام من الكتب والأوراق بعثرها خصيصاً لهذه الغاية وكأنه قد نسي المسألة التي أثارها في الصباح نسياناً تاماً بل لقد أبدى الدهشة لرؤيته مستر لوري، وبدا وكأنه خالي الذهن من هذه القضية مشغول البال بغيرها وقال الرسول الدمث بعد ثلاثين دقيقة كاملة قضاها في محاولات لا جدوى فيها لرده إلى الموضوع : حسناً لقد ذهبت إلى سو هو فكرر مستر سترافير في برود : إلى سو هو؟ أوه من غير شك.

الذي أفكر فيه الآن؟ فأجابه مستر سترافير بنبرة ترشح بالود :أؤكد لك أنني إذا كنت مستاءاً لهذه النتيجة فمن أجلك، ومن أجل ذلك الوالد المسكين واعلن أن هذه المسألة سوف تثير الأسف والحزن على نحو موصول في جل تلك الأسرة منذ اليوم فلننتقل إلى موضوع آخر فقال مستر لوري: لست أفهم ما تقول فأجابه سترافير مومئ برأسه إيماءة ختامية ملطفة : لا أستطيع ان أوضح هذا لا يهم ؛ هذا لا يهم فأصر مستر لوري : بل إنه ذو أهمية كبيرة لا، إنه ليس بذى أهمية أؤكد لك أنه ليس بذى أهمية إنني أفترض وجود العقل حيث لا يوجد عقل، والطموح المحمود حين لا يوجد طموح محمود رجعت عن خطئي، من غير أن يصاب أحد بأذى لقد ارتكبت الفتيات مثل هذه الحماقة كثيراً من قبل.

ولقد دفع ثمنها دائماً فقراً وخمول ذكر والواقع أنني إذ انظر إلى الأمر نظرة غير أنانية استشعر الأسف لطرح الفكرة، لأن ذلك الزواج كان خليقاً أن يكون شيئاً رديئاً، بالنسبة إلي، من وجهة النظر المادية الخالصة أما إذا نظرت إلى الأمر نظرة أنانية فعندئذ أستشعر السعادة لطرح الفكرة لأن ذلك الزواج كان خليقاً به أن يكون شيئاً رديئاً بالنسبة إلي، من وجه النظر المادية الخالصة أيضاً ومن نافلة القول أن أنص على أنه ما كان ليكسبني شيئاً البتة وعلى أية حال فلم يضار أحد بذلك أنا لم أظلم يد السيدة الصغيرة، وبينني وبينك أستطيع أن أقول إنني لست واثقاً البتة عند التفكير في المسألة، من أنني كنت خليقاً بأن أذهب إلى ذلك الحد إنك لا تستطيع أن تضبط غرور الفتيات الفارغات الرؤوس وطيش مستر لوري ينبغي أن لا تتوقع ذلك وإلا خاب ظنك أبد الدهر والآن أرجوك أن تقفل البحث في هذا الموضوع لقد قلت لك إنني آسف لم نبضك، وشاكراً لك أيضاً نصيحتك التي أسديتها إلي أنت تعرف السيدة، تعرف السيدة الصغيرة أحسن مما أعرفها ولقد كنت مصيباً فما كان مثل هذا العمل لينجح على الإطلاق وفوجئ مستر لوري إلى حد جعله ينظر في بلاهة إلى مستر سترابير وهو يزاحمه نحو الباب، وقد بدت على رأسه التائه سيما الكرم الدافق والحلم والإرادة الحسنة وقال سترابير : تقبل هذه النتيجة بالصبر ، يا سيدي العزيز ، ولا تفتح هذا الحديث منذ اليوم أشكرك مرة ثانية لسماحك لي بأن أجس نبضك طاب مساؤك وغمر الظلام مستر لوري قبل أن يعرف أين هو واستلقى مست سترابير على الأريكة، غامراً سقف الحجرة بعينيه.

الرجل الفظ إذا كان سيدني كارتون قد لمع ذات يوم، في مكان ما، فالراهن أنه لم يلمع قط في يوم من الأيام في منزل الدكتور مانيت لقد تردد إلى هناك كثيراً، خلال عام كامل، فكان ذلك الجليس النكد الشكس نفسه وكان إذا ما غني بأن يتكلم، يتكلم جيداً ولكن سحابة اللامبالاة، التي ظللته بقتامة قاتلة، نادراً ما كان يخترقها النور الذي في داخله ومع ذلك فقد بالى بعض الشيء بالشوارع المحيطة بهذا المنزل والحجارة الصم المرصوفة في أرضها فكم من ليلة طوف هناك على نحو هائم كئيب، بعد أن عجزت الخمر عن أن توقع في نفسه ابتهاج أنياً وكم من ضح موحش كشف عن وجهه المتوحش يتسكع هناك حتي كانت أشعة الشمس الأولى برزت على نحو قوي جمال الفن المعماري في قباب الكنائس المستدقة والمباني الشامخة، فيما كانت اللحظات تحمل إلى ذهنه إدراك الأشياء أفضل، كانت تعتبر في غير ذلك المكان منسية بعيدة عن متناول اليد وإذا كان من النادر أن يأوي إلى فراش المهمل، فقد أمسى إيواؤه ذاك أكثر ندرة في الفترة الأخيرة وكثيراً كان ينطرح فوقه بضع دقائق ليس غير ، لينهض من جديد ويمضي إلى تلك البقعة وفي أحد أيام آب، عندما حمل مستر سترافير رفته وكان قد أخ ابن آواه أنه أعاد النظر في مسألة الزواج تلك إلى ديفونشاير، وعنده كان مشهد الزهور وعبيرها العابق في شوارع المدينة يوقعان الصلاح في نفس أسوأ الناس، والصحة في جسم أشدهم مرضاً، والشباب في دم أكبرهم سناً، كانت قدم سيدني كارتون لا تزالان تطآن تلك الحجارة وفجأة انتقلت هاتان القدمان من حال التردد وانعدام الغاية إلى نشأة المقصد الواضح والعزم الوطيد، فقادنا إلى باب منزل الطبيب ودعي إلى الدور العلوي فألفي مستر لوسي منفردة.

وقد انصرفت إلى عملها كانت تستشعر دائماً شيئاً من الارتباك في حضرته، فكان طبيعياً أن يستولي عليها شيء من ذلك حين اتخذ مجلسه قرب طاولتها حتى رفعت بصرها إلى وجهه؛ خلال تبادل العبارات القليلة الأولى التي يكررها الزائرون والمزورون، لاحظت أن تغيراً قد طرأ عليه أخشى أن لا تكون في صحة جيدة، يا مستر كارتون لا ، ولكن الحياة التي أعيشها، يا مسز مانيت، لا تفضي إلى الصحة وما الذي ينتظره المرء من مثل هذه الحياة الخليعة بواسطتها أليس ألتمس عفوك لقد بدأت بالسؤال الذي على شفتي أليس من المؤلم أن لا تستطيع أن تحيا حياة أفضل؟ الله يعلم، إن ذلك خزي وعار إذن، فلماذا لا تغيرها؟ حتى إذا نظرت نحوه في رقة أدهشها وأحزنها أن ترى الدموية تترقق في عينيه ولقد كانت ثمة دموع في صوته أيضاً حين أجابها : لقد فات أوان ذلك أنا لن أكون في يوم من الأيام أحسن مني الآن سوف أنحدر إلى درك أدنى، ولسوف تزداد حالي سوءاً وأسند أحد مرفقيه إلى طاولتها وحجب عينيه بيده وارتعدت واستشعر حزنها من غير أن ينظر إليها وقال: أرجوك أن تغفري لي مس مانيت إنني أنهار أمام علمي بالذي أريد أن أقوله لك هل ترغبين في أن تستمعي إلي؟ إذا كان استماعي يعود عليك بفائدة ما، يا مستر كارتون كأن يجعلك أكثر سعادة فعندئذ يبهجني جداً أن أستمع إليك ليباركك الله لحنائك العذب وكشف عن وجهه بعد فترة قصيرة، وتحدث في إطاراد لا تخافي أن تسمعي لا تجفلي من أي شيء أقوله أنا أشبه بفتى مات في ريعان الشباب ولعل حياتي كانت تكون خيراً مما هي ولكنها لم تعد تتسع لذلك لا، يا مستر كارتون أنا واثقة من أن جزأها الأفضل لا يزال أمامك.

أنا واثقة من أنك قد تكون خلال هذا الجزء من حياتك أكثر جدارة بنفسك الرفيعة هذا رأي لك، يا مس مانيت، لن أنساه أبد الدهر، إن كنت أعرف نفسي أكثر مما تعرفينها، وأعرف لغز قلبي البائس أكثر مم تعرفين كانت شاحبة الوجه، مرتعدة الأوصال، فتقدم لإسعافها يائساً من نفسه بأساً راسخاً جعل لقاءهما ذاك مختلفاً عن أي لقاء آخر يمكن أن يجمع بينهما لو كان من الميسور، يا مس مانيت، أن تبادلني هذا الرجل الذي ترينه أمامك حباً بحب برغم ما تعرفينه من أنه مخلوق بائس، سكير مدمر، نابذ نفسه إذن لوعي في هذا اليوم وهذه الساعة أنه قد يقوده إلى البؤس، ويشك إلى الحزن والندامة ويذبل نصرتك، ويلحق بك العار، ويهبط بك إلى الحضيض أنا أعلم أحسن العلم إنه ليس في هل أستطيع إنقاذك يامستر كارتون، بغير هذا الحب؟ هل أستطيع أن آخذ بيدك عفوك مرة أخرى في سبيل أفضل؟ أليس ثمة طريقة تمكنني من أن أجزيك على حسن ثقتك بي؟ أنا أعرف أن هذا مسار قالت ذلك بعد قليل من التردد والدمع يتفرق في مقلتيها، وإنك لتقضي بذلك إلى أحد غيري أفلا أستطيع أن أفيدك في شيء يا مس كارتون؟ وهز رأسه لا، ليس في ميسورك أن تفيدني، يا مس مانيت فائدة ما وإن رغبتني في الاستماع إلى فترة أخرى قصيرة، فعندئذ تكونين قد قمتي نحوي بكل ما تستطيعين القيام به أود أن تعرفي أنك كنت آخر حلم من أحلامي وإني لم أسف يوماً إلا وكان في مشهدك مع أبيك، وفي مشهد هذا البيت الذي جعلته بيئة نموذجية، شيء يثير في ذات نفسي ظلالاً قديمة كنت أحسب أنها انمحت من مخيلتي ومنذ أن عرفتك أخذ وخز الضمير يقلق حياتي، وكنت أظنه لن يقربني أبد الدهر

وأخذت أسمع همسات من أصوات قديمة تهيب بي إلى التعالي عن در الضلال، وكنت أظنها قد سكنت أبد الدهر لقد عرفت أفكاراً فجأة تقو باستئناف الكدح والبدء من جديد، ونفض غبار الكسل والانغماس في الشهوات، ورفع راية النضال كان ذلك كله حلماً، حلماً ينتهي إلى شيء، ويغادر النائم حيث يضطجع ولكني أحب أن تعرفي أنك أنت التي أوحيتها أليس ممكن أن يبقى شيء من ذلك كله؟ أوه، يا مستر كارتون فكر مرة أخرى جرب مرة أخرى لا، يا مس مانيت كنت عارفة طوال تلك الفترة، أنى استحق ذلك ومع هذا فقد نازعتني نفسي، وما تزال تنازعني نفسي، إليها نشاطاً، ولا تنير شيئاً، ولا تؤدي خدمة؛ نار تشتعل في وهن ولغير غاية ما دمت قد جعلتك، لسوء حظي، يا مستر كارتون، أكثر تعاسه مما كنت قبل أن تعرفني لاتقولي ذلك، يا مس مانيت، لأنني كنت خليقاً بأن تصلحين لو كان في ميسور أي امرئ أن ينهض بهذا العبء إنك لن تكوني سبباً في أن أصبح أسوأ مما كنت إذا كانت حالتك النفسية التي وصفتها ناشئة، على أية حال، عن بعض سلطاني عليك، أفلا أستطيع أن أستخدم هذا السلطان ذلك أعنيه إذا عرفت كيف أوضحه لخدمتك؟ أليست لي أي قوة على الخير، في ما يتصل بك، على الإطلاق؟ إن أقصى الخير الذي أقدر عليه الآن، يا مس مانيت، هو ما جئت إلى هنا، في هذه الساعة، لتحقيقه، اسمحي لي أن أحمل، طوال الأيام الباقية من حياتي الموجهة توجيهاً خاطئاً، هذه الذكرى : وهي أنك آخر من فتح له قلبي، وأنه كان لا يزال في شيء تستطيعين أن تأسفي عليه، وترثي له شيء تضرع إليك، مرة ومرة، وفي حماسة منبثقة من صميم فؤادي، أن تؤمن بأنه قادر على أن يفعل أشياء أفضل، يا مستر كارتون تضرعي إلي أن لا أؤمن بذلك منذ اليوم.

يا مس مانيت لقد خبرت نفسي وأنا أعرفها خيراً مما تعرفينها إني أوقع الحزن في نفسك، ومن أجل ذلك سأسارع إلى الانسحاب فهل تسمحين لي بأن أؤمن، حين أذكر هذا اليوم، بأن آخر سر من أسرار حياتي يستريح في صدرك الطاهر البريء، وأنه يستريح هناك منفرداً وأن أحداً لن يشاركك حتى ولو كان ذلك المشارك أعز مخلوق قد تتعرفين عليه؟.

فقالت، بعد تمهل مضطرب : مستر كارتون، السر سرى، لا سري وأنا أعدك باحترامه أشكرك ومرة ثانية، فليباركك الله ورفع يدها إلى شفتيه وتقدم نحو الباب لا يساورك الخوف، يا مس مانيت، من أن استأنف في يوم من الأيام هذا الحديث ولو بكلمة عابرة إني لن أشير إليه أبداً منذ اليوم في استطاعتك أن تثقي بذلك ثقة ليس في وسع الموت أن يزيد لها فوق قوتها وفي ساعة موتي سأظل أقدس هذه الذكرى الوحيدة الطيبة ولسوف أشكرك وأباركك من أجلها : وهي أن آخر بوح بما يجيش في نفسي من لواجع إنما كان لك، وأن اسمي، وآثامي، وضروب شقاء مصونة في فؤادك أسأل الله أن يكون فؤادك في كل ما عدا ذلك مر وسعيدة كان مشهده غير ما بدا عليه في أي وقت سلف، وكان من أدنى الأمور إلى الحزن أن يفكر المرء كم أضعاف هذا الرجل من حياته وكم أمعن في الغواية والضلال حتى لقد سفحت لوسي مانيت العبرات من أجله ، على نحو فاجع، فيما وقف ملتفتاً إليها وقال لها: لا تحزني أنا لا أستحق مثل هذه العاطفة ، بمس مانيت فما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى يحيلني الرفاق الوضيعو والعادات الوضيعة، التي أزديها ولكني أستسلم إليها، إلى إنسان هو أقل استحقاقاً لهذه العبرات من أي بانس يدب خلال الشوارع تحزني ولكني، في قرارة نفسي، سوف أظل دائماً.

في ما يتصل بك أنا الآن وإن بقي مظهري الخارجي على ما عرفتني دائماً وإن
آخرتوسلاتي فهو هذا وبه سوف أريحك من زائر أعرف جيداً أن ليس ثمة ما
يجمعك به؛ زائر يفصل ما بينك وبينه فضاء لا سبيل إلى اجتيازه أنا أدري أن
ليس ثمة فائدة من قول ذلك، ولكنه ينبثق من شغاف قلبي إني مستعد لأن أتجشم
عناء القيام بأي عمل فيه خدمه لك، ولأي عزيز على فؤادك ولو أصبحت سيرتي
من ذلك النوع الأفضل بحيث تنطوي على أي فرصة للتضحية أو قدرة عليها إذن
لكنت مستعداً لأي تضحية في سبيلك، وفي سبيل أي عزيز على فؤادك حاولي
أن تذكريني، في بعض الأوقات الهادئة، وتؤمنين بأني جد صادق في هذا الذي
أقوله ولسوف يأتي زمان، ولن يتأخر كثيراً، تنشأ حولك روابط جديدة، روابط
تشتبك في حنان أكثر وقوة أعظم إلى البيت الذي يزدهي بك هذا الازدهاء كله
أعني الروابط التي ليس أعلى منها، والتي ستزيدك نعمة على نعمة، وسعادة على
سعادة آه يا مس مانيت، حين تنتظر إلى وجهك صورة صغيرة لوجه أب سعيد،
عندما ترين جمالك المشرق ينبثق من جديد عند قدميك، فكري بين الفينة والفينة
أن ثم رجلاً يرغب في أن يضحى بحياته لكي يبقى إلى جانبك حياة تحبينها
وودعها قائلاً : فليباركك الله وفارقها.

التاجر الأمين

كانت عينا مستر إرميا كراانتشر، إذ يجلس على مقعده الخفيض في فليت ستريت وإلى جانبه ولده السليط الأغبر، تستعرضان، كل يوم أشكالا مختلفة من الأشياء المضطربة ههنا وهناك ومن ذا الذي يستطيع أن يقعد على أي شيء، في فليت ستريت خلال ساعات النهار الناشطة، ولا يذهل ويصاب بالصمم لموكبين هائلين أحدهما لا يفتأ يجنح غرباً مع الشمس، والآخر لا يفتأ يجنح شرقاً بعيداً عن الشمس وكلاهما لا يفتأ يجنح نحو السهول المنبسطة وراء النطاق الأحمر الأرجواني حيث تغرب الشمس؟ وراح مستر كراانتشر، والقشة في فمه، يراقب الجدولين معاً، مثل ذلك الفلاح الوثني الذي كلف طوال عدة قرون بمراقبة أحد الجداول مع فاروق وحيد وهو أن جيرى ما كان يتوقع قط أن ينضب الجدولان في يوم من الأيام وما كان مثل ذلك التوقع من النوع المرجو لأن جزءاً صغيراً من دخله كان مستقي من مرافقة النسوة الوجلات، ومعظمهن في ثياب كاملة، وقد تجاوزن خريف العمر، من شاطئ تلسون إلى الشاطئ الآخر وعلى الرغم من قصر تلك المرافقة، ما كان ليفوت مستر كراانتشر أن يبدي من الاحتفال بالسيدة ما يحمله على أن يعبر لها عن رغبته الشديدة في أن يتشرف بشرب كأس من الخمر على صحتها فكانت السيدات يمنحنه بعض المال، ابتغاء تمكينه من تحقيق ذلك الغرض الشريف، فهو يصلح به من حالته المالية، كما لاحظنا منذ قريب ولقد مضى زمان كان أحد الشعراء يستوي فيه على كرسي لانظم له.

في بعض الأماكن العامة، وينظر إلى الناس في غدوهم ورواحهم مفكراً متأملاً
وإذ لم يكن مستر كرانتشر شاعراً، فإنه لم يفرغ من على كرسيه الخفيض الذي
لا ظهر له إلا لأقل قسط من التأمل وأنشأ يجيل الطرف فيما حوله واتفق أن كان
متخذاً مجلسه ذاك في فترة خف أثناءها ازدحام السابلة، وقلت النسوة المتأخرات،
وكسدت سوقه على نحو أثار في ذات نفسه اعتقاداً شبه راسخ بأن السيدة كرانتشر
منهمكة في سجوده المعهود، من غير ريب، عندما لفت نظره سيل من الناس لا
عهد له بمثله من قبل يتدفق هابطاً فليت ستريت متجهاً نحو الغرب ولم يكد مستر
كرانتشر يرى ذلك السيل حتى أدرك أن جنازة ما تتخذ سبيلها هناك، وأن تلك
الجنازة أثارت معارضة شعبية نشأ عنها لغط وهدير قال مستر كرانتشر، وقد
التفت إلى نجله : انظر ، يا جيرى الصغير إنها جنازة فصاح جيرى الصغير :
هورا، هورا يا أبتي وأطلق السيد الصغير هذا الصوت المتهلل على نحو ذي
دلال عجيبة ، ساء الوالد الظن بها، فانتهاز أول فرصة سنحت له وضرب السيد
الصغير على أذنه قال مستر كرانتشر وهو يرمي ابنه بنظرات صعوداً وهبوطاً
ماذا تعني؟ علام تصيح هذا الصباح المتهلل؟ ما الذي تريد أن تقوله لأبيك أيها
الولد السافل؟ لقد ضقت ذرعاً بهذا الصبي ضقت ذرعاً بك وبصيحاته حذار أن
تسمعي صوتك بعد الآن، وإلا أشعرتك بمزيد من بطشي أسمعته؟ من أعمالك
اللامؤذية قف على ظهر ذلك المقعد وانظر إلى الحشد وامتلئ ابنه الأمر، واقترب
الحشد كانوا يصيحون ويفحون حول عربة موتى قذرة قاتمة، وعربة جياذ ليس
فيها غير مشع واحد لابس ثوب مزخرفة مظلمة اعتبر ضرورياً للحفاظ على
وقار الموقف ولكن الموقف لم يرضه

على أية حال، بعد أن تكاثر السوق من حول العرب، وأنشأوا يسخرون منه ، ويكشرون عن أنيابهم في وجهه ، ولا يفتأون يصيحون ياه جواسيس جواسيس إلى غير ذلك من صنوف الإطراء التي لا مجال لذكرها بسبب كثرتها وشدة لذعها وكانت الجنائز تثير فضول مستر كراننشر دائماً، وفي مختلف الظروف فما إن تمر جنازة بمصرف تلسون حتى يرهف حواسه ويأخذ الاهتمام فكان طبيعياً أن تثيره تلك الجنازة العجيبة التي وصفناها إثماً كبيراً، فسأل أول رجل كان يركض في اتجاهه :ما المسألة، أيها الأخ؟ ما القصة؟ فأجاب الرجل : لست أدري جواسيس ياها ست جواسيس؟ وسأل رجل؟ آخر: من هذا؟ لست أدري، كذلك أجاب الرجل بيد أنه ما لبث أن صفق بيديه وهتف في مرارة تثير الدهشة وبعزم ليس أقوى منه ولا أشد جواسيس وأخيراً عثر على رجل أكثر معرفة بحقيقة ذلك الموكب ، ومنه فهم أن تلك الجنازة كانت جنازة شخص يدعى روجر كلاي وسأله مستر كراننشر : وهل كان جاسوساً؟ فأجابه مخبره: جاسوس من جواسيس أولد بيلي ياها تست.

ياه جواسيس أولد بيلي فقال الرجل : ميت كلحم الضأن ولا يستطيع أن يكون ميتاً بأكثر من ذلك خذوا الجواسيس إلى هناك اسحبوا الجواسيس إلى هناك وإذ كانت أذهان القوم خالية من أي فكرة أخرى، فقد لقيت تلك الفكرة قبولاً حماسياً لديهم، فراحوا يرددون الاقتراح القائل بأخذ الجواسيس إلى هناك، وسحبهم إلى هناك، ويحكمون تحلقهم حول العربتين حتى أكرهوهما على التوقف وحين فتحت الغوغاء أبواب العربتين حاول المشيع الأوحى النجاة بنفسه.

وما كاد الحشد يمسك حتى مكنته يقظته من أن يفيد من فرصة سنحت له، ففر من خلال شارع فرعي ضيق بعد أن سفح جبته، وقبعته، والعصابة الحدادية المطوقة لها ومنديل الجيب الأبيض، وغيرها من الدموع الرمزية ومزق القوم هذه كلها إرباً إرباً، وانتشروا في الأرض في ابتهاج غامر، فسارع التجار إلى إغلاق حوانيتهم لأن الحشود في تلك الأيام ما كانت لتتورع عن شيء، فهي مارء جد مخيف، وكانوا قد انتهوا إلى أن يفتحوا عربة الموتى ليخرجوا النعش منها عندما برز منهم عبرى أكثر لمعانا فاقتراح عليهم، بدلاً من ذلك، أن يشيعوا النعش في مقره الأخير وسط الابتهاج العام وإذ كانوا في أمس الحاجة إلى المقترحات العملية، فقد استقبل ذلك الاقتراح أيضاً بالتهليل وفي الحال غصت عربة الحداد بثمانية رجال في داخلها واثنى عشر رجلاً في خارجها، على حين وثب إلى سقف عربة الموتى أكبر عدد كان في ميسور الحذق أن يلصقه فوقه وكان أوائل هؤلاء الرواد جيرى كرائنتشر نفسه، الذي أخفى، في كثير من التواضع، شعره الشائك في أقصى زوايا عربة الحداد، خشية أن يراه أحد من جماعة المصرف واحتج المجندون المشرفون على الموكب بعض الاحتجاج على هذا التعديل الذي طرأ على البرنامج، ولكن لما كان النهر على قيد خطوات من الاحتجاج وغداً واهناً خافئاً وسار الموكب الذي اتخذ قالب جديد وقد ساق عربة الموتى منظم مداهن برشده السائق النظامى الذى حمل على أن يجثم أمامه، تحت أشد المراقبة، وفاء بذلك الغرض وتولى قيادة عربة الحداد صانع فطائر ومن حوله وزيره أيضاً وأكره على الاشتراك في الموكب مرقص دببه وكان من سمات الشوارع الشعبية في تلك الأيام بوصفه حلية إضافية.

قبل أن يمعن الحشد في الهبوط تجاه الشاطئ والواقع أن دباً ، وكان أسود شديد القذارة، قد خلع سيد جنائزية على جزء من الموكب هو ذلك الذي كان يسير فيه وهكذا اتخذ الموكب الفوضوي سبيله، في غمرة من شرب الجعة وتدخين الغلابيين، وإنشاد الأغاني الصاخبة، وإظهار الحزن على نحو كاريكاتوري إلى أبعد الحدود، متعاضداً إثر كل خطوة، مكرها أصحاب الحوانيت على إقفال حوانيتهم قبل أن ينتهي إليها وكان الموكب قاصداً إلى كنيسة سانت بانكراس القديمة، القائمة بعيدة في الحقول وقد وأصر على التدفق نحو المقبرة، فدفن روجر كلاي على طريقته الخاصة، ووفق ارتياحه الخاص إلى حد بعيد حتى إذا غيب الميت في التراب، واستشعر القوم الحاجة إلى تسلية أخرى، برز عبقرى آخر ولعله أن يكون العبقرى السابق نفسه واقترح أن يعمدوا إلى إتهام بعض عابري السبيل بالتجسس لحساب محكمة الجنايات، وإنزال الانتقام بهم فراحوا يطاردون عشرات من الأبرياء الذين لم يقربوا أولد بيلي في حياتهم، تحقيقاً لهذا الاقتراح ويدفعونهم دفعة عنيفة ، ويسبون معاملتهم على نحو خشن وكان الانتقال إلى تحطيم النوافذ، ومن ثم إلى نهب الأماكن العامة، وأخيراً، وبعد بضع ساعات، عندما دمرت أكواخ صيفية شتى، ونزعت درابزونات الأراضي لكي تتسلح بها النفوس الأكثر رغبة في الحرب فلعل الحرس أن يكون على وشك المجيء، ولعله لا يجيء أبداً وعلى أية حال فقد كانت تلك هي طبيعة الغوغاء دائماً.

ولم يشارك مستر كرانتشر في ضروب القنص الختامى، بل أقام في فناء الكنيسة ليتذاكر مع المجنزين ويشاطرهم الأسى وكان لذلك الموطن أثر ملطف في نفسه فاشترى غليوناً من أحد الحوانيت المجاورة

وأنشأ يدخنه، ناظراً إلى الدرابزون، متأملاً في المكان في حنكة وقال مستر
كرانتشر مخاطباً نفسه على طريقته المألوفة : جيرى، هل رأيت كلاي ذلك اليوم،
ولقد رأيت بعينيك الاثنتين أنه كان شاباً ، وأنه كان حسن القوام حتى إذا استنفذ
غليونه، وتأمل بعض الشيء، استدار راجع لكى يثبت وجوده في مقره، أمام
مصرف تلسون، قبل أن تحين ساعه الانصراف، ولكنه عرج في طريق عودته
على طبيبه ، وكان جراح بارزاً السبب لا نعرفه على التحقيق فلعل تأملاته في
الموت أن تكون قد قرحت كبده، ولعل صحته العامة كانت معتلة من قبل، ولعله
أراد أن يعلن ولاءه وإخلاصه لأحد الرجال اللامعين وأيا ما كان، فليس يقدر ذلك
ولا يؤخر من الأمر شيئاً وكان جيرى الصغير قد قام مقام أبيه على أحسن وجه،
حتى إن رجع أبلغه أن أي مهمة لم يعهد بها إليه طوال غيبته وأقلل المصرف
وخرج الموظفون الشيوخ، وأقيمت الحراسة المعتادة، ومضى مستر كراننتشر
وابنه إلى المنزل لتناول الشاي وقال مستر كراننتشر لزوجته حين دخل البيت
والآن، أحب أن تفهمي هذا جيداً : إذا ذهبت جهودي التي سأبذلها هذه الليلة،
بوصفى تاجراً أميناً، أدراج الرياح، فسوف أجزم بأن كنت تصلين ضدي وقال
مستر كراننتشر وقد بدت على وجهه أمارات الخوف الغاضب عجيب أمرك إنك
لتفعلين ذلك في وجهي أنا لا أقول شيئاً حسناً، إذن حذار أن تنوي القيام بعمل ما
إن عقد النية على السجود كالسجود نفسه وفي استطاعتها أن تعمل على إلحاق
الضرر بطرق مختلفة فدعي عنك ذلك كله نعم، يا جيرى فكرر مستر كراننتشر
وهو يجلس إلى مائدة الشاي: نعم، يا جيرى أه تقولين نعم يا جيرى هذا كل ما
عندك من جواب في استطاعتك أن تقولي نعم يا جيرى

ولم يقصد مستر كراننتشر من وراء هذا التكرير النكد إلى معنى بعينه ولكنه أفاد منه، فعل الناس عادة، للتعبير عن عدم الارتياح تعبیر تهكمي وقال مستر كراننتشر وهو يقضم قضمة من الخبز المأدوم بالزبادى والمربى، وبدا وكأنه يساعد نفسه على ابتلاعها بدفعها لقد فلقنتني بقولك نعم جيري آه ، أحسب ذلك أنا أصدق ما تقولين وسألته زوجته اللطيفة حين قضم قضمة أخرى، أخرج أنت هذه الليلة؟.

-نعم، أنا خارج فسأله ابنه في زية: هل أستطيع أن أرافك يا أبتى؟
لا، ليس في استطاعتك ذلك أنا ذاهب كما تعرف أمك لأصطاد السمك ذلك ما أنا ذاهب من أجله لأصطاد السمك اليس هذا بالأمر الخطير وهل ستحمل إلينا شيئاً من السمك يا أبتى؟ فقال ذلك السيد وهو يهز رأسه : إذا لم أفعل فسوف يقتصر طعامك غدا على الجراية المطففة كفاك أسئلة أنا لن أخرج ما لم تستغرق في النوم ووقف نشاطه بقية المساء على مراقبة مسز كراننتشر على نحو دقيق وإلهائها بالحديث، إلهاء مقطبين، لكي يحول بينها وبين أن ترفع إلى أي صلاة ضده ثم إنه حرض ابنه على إلهائها بالحديث أيضاً، ابتغاء الغرض نفسه، وراح يسوم تلك المرأة القليلة الحظ صنوف الشقاء لكي لا يتركها تفرغ لتأملاتها لحظة واحدة وما كان في ميسور أتقي الناس أن ينكب على عبادة الخالق بقدر ما انكب هو على تنغيص حياة زوجته على ذلك النحو وكان في هذا كله أشبه بجاحد لوجود الأرواح روعته حكاية؛ من حكايات العفاريت الراحبة.

وقال مستر كرانتشر : وانتبهى جيداً أنا لا أريد شيئاً من نوادر ك غدا فإذا وقت، بوصفي تاجراً أميناً، إلى أن آتيك بقطعة من اللحم أو قطعتين فلسيت أحب أن أراك تباعدين عنهما ملتزمة الخبز القفار وإذا وفقت، بوصفي تاجراً أميناً، إلى أن آتي بشيء من الجعة فلسيت أحب أن أسمعك تصرين على الاكتفاء بالماء فحين تذهبين إلى روما، عليك أن تتخلفي بأخلاق أهلها فإن لم تفعلي لم يطب لك العيش في روما إني أنا رومتك كما تعرفين ثم عاد إلى الغمعة والتذمر : إنك تعاندين العناية الإلهية التي تسوق إليك الطعام والشراب ولست أدري إلى أي حد يطفف الله رزق من الطعام والشراب بسبب سجود الماكر وسلوكك الخالي من الحنان انظري إلى ابن إنه ابنك، أليس كذلك؟ إنه هزيل مثل عمود مر فأثار ذلك الكلام شعور في نفس جيرى الصغير، فراح يناقش أمه أن تنهض بأول واجباتها، وأن تضع توكيداً خاصاً مهما عمل ومهما أهملت على تلك المهمة الأمومية التي نبهها أبوه إليها، في كثير من الرقة والحنان وهكذا أمضت أسرة كرانتشر شطراً من الليل، حتى دعا الأب ابنه آخر الأمر، إلى الإيواء للفراش، ودعا زوجته إلى مثل ذلك فنزلت على إرادته وقتل مستر كرانتشر الأجزاء الأولى من الليل في التدخين ولم ينشط لمغامرته إلا عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً وحوالي تلك الساعة الصغيرة المخوفة نهض عن كرسيه، وتناول من جيبه مفتاح فتح به خزانة مقفلة، وأخرج كيساً ومخ ذا حجم مناسب وحبّة، وسلسلة، وما شابه ذلك من أدوات الصيد ثم إنه تقلد هذه الأدوات كلها تقلد المتمرس، وألقى على مسر كرانتشر نظرة داعية، وأطفأ النور، وخرج ولم يتخلف جيرى الصغير وكان قد تظاهر بنزع ملابسه حين مضى إلى الفراش كثيراً عن والده لقد غادر الغرفة.

وتبعه تحت جناح الظلام، وتبعه في هبوط السلم، وتبعه في اجتياز الفناء، وتبعه في الاندفاع نحو الشوارع ولم يستشعر أي جزع في ما يتصل بعودته إلى المنزل، فقد كان في البناء كثير من المستأجرين، وكان الباب منفتحاً طوال الليل، نصف انفتاح لقد أغراه طمع جيد في حل لغز تلك الحرفة الشريفة التي ينهض بها أبوه ليلاً فأنشأ يلاحق أباه المبجل بنظره، غير مبتعد عن واجهات المنازل، وعن الجدران، والأبواب إلا بقدر ما تبتعد إحدى عينيه عن الأخرى ولم يكن أبوه المبجل المتجه شمالاً قد ذهب إلى بعيد عنده انضم إليه تلميذ آخر من تلامذة إسحق والتون وانطلقا معاً وبعد نصف ساعة من الانطلاقة الأولى انتهيا إلى ما وراء المصابيح المتغامزة، والعسس الذين كانت أعينهم تطرف أكثر من الغمز، وإذا هم على قارعة طريق مموحش وهنا انضم إلى الرفيقين صياد سمك ثالث وإنما تم ذلك في غاية السكون، فلو كان جيري الصغير ممن يؤمنون بالخرافات إذن لكان من الجائز أن يفترض أن الرفيق الثاني من أهل تلك الحرفة اللطيفة انشطر، فجاء، شطرين اثنين، وبذلك أصب الرفيقان ثلاثة رفاق وانطلق الثلاثة معاً، وانطلق جيري الصغير في أثرهم حتى كف الثلاثة عن المسير عند مرتفع من الأرض مشرف على الطريق وكان فوق ذلك المرتفع جدار آجري خفيض يحيط به درابزون حديدي وفي ظل المرتفع والجدار تحول الثلاثة عن الطريق، وصعدوا في زقاق غير نافذ يشكل جدار حيث يرتفع عنده إلى نحو ثمانية أقدام أو عشرة جانب من جوانبه أما جيري الصغير فجثم في إحدى الزوايا وأنشأ يختلس النظر إلى الزقاق فإذا به يرى أباه المبجل، وقد بدا واضح المعالم في ضوء قمر واهن تكتنفه السحب، يتسلق في رشاقة بوابة حديدية.

وما هي إلا لحظة حتى بلغ قمته، ليتبعه صياد السمك الثاني، ثم الثالث ثم إنهم وثبوا جميعاً، في تلطف، إلى الأرض الواقعة خلف الباب، وتمدد هناك فترة لعلهم أمضوها في الأصغاء وبعد ذلك أنشأوا يزحفون على أيديهم وركبهم وجاء دور جيري الصغير ، الآن، في أن يقترب نحو الباب ؛ فقام بذلك حابساً أنفاسه ثم إنه جشم كرة أخرى في زاوية هناك، وأخذ يختلس النظر، فبصر بالصيادين الثلاثة يدبون خلال بعض العشب الغزير القدر، وقد أطلت جميع شواهد القبور في فناء الكنيسة وكان ذلك الفناء رحباً وكأنها أشباح تنتشح بالبياض، على حين أطل برج الكنيس واصطنعوا المسحاة، أول الأمر، في صيدهم ذاك وفي الحال بالوالد المبجل وكأنه يعدل آلة ما تشبه مبرمة كبيرة وأياً ما كانت الأدوار التي أحضروها فقد استخدموها كلها في جهد ومشقة حتى روع ضربات ساعة الكنيسة المخيفة قلب جيري الصغير فولى هارباً، ووقف شعر رأسه وغدا شائكاً كشعر أبيه بيد أن رغبته القديمة في أن يكشف النقاب عن هذه الشؤون تحمله على أن يكف عن الجري وحسب، بل أغرته بالعودة إلى بار الكنيسة أيضاً وكانوا لا يزالون يتصيدون في كدح موصول عندما اختلس النظر من ذلك الباب كرة أخرى؛ ولكن سنارتهم بدت وكأنها فازت بصيد هذه المرة وانبعث من أدنى الأرض صرير وصوت متزمر، وبدت أجسادهم المحنية، وكأنها تنوء بحمل ثقيل وشيئاً بعد شيء، وفي غاية التمهّل، شق الحمل التربة التي تعلوه واستوي فوق سطح الأرض وأدرك جيري ماهية ذلك الحمل أحسن الإدراك، ولكنه ما إن رآه، ونظر إلى أبيه المبجل على وشك أن يمزقه حتى استبد به الرعب فقد كان يشهد ذلك المشهد للمرة الأولى فأطلق ساقيه للريح، كرة أخرى.

ولم يتمهل إلا بعد أن ركض ميلاً أو أكثر من ميل وكان يجب أن لا يتمهل ساعتئذ سوى لأخذ النفس، إذ كان يخوض سباق مع الأشباح يتمنى لو ينتهي إلى غاية كان مؤمناً إيماناً قوياً بأن التابوت الذي رآه كان يطارده ويتمثله قافزاً خلفه على كلتا قدميه منتصباً يجري على أضيق طرفيه وعلى وشك أن يدركه أبداً، ويحاذ وربما أن يمسك به من ذراعه فقد وجد فيه مطارداً ينبغي أن يفر بأي ثمن ولقد كان مارداً غير منسجم مع نفسه، قادراً على أن يوجد في جميع الأمكنة في وقت معاً ذلك أن جيري، حين نظر إليه يملأ من ورائه رعباً، انطلق إلى الطريق البين الواضح ليتجنب الأزقة المظلمة الآن مداخل البيوت أيضاً، يحك منكبيه الهائلين بأبوابها، ويرفعهما حتى أذنه وكأنه يضحك ليس هذا فحسب، بل لقد مخيل إليه أن المارد كان يلبس ظلال الطريق وينطرح على ظهره في مكر لكي يزته وكان طوال ذلك الوقت لا يفتأ يقفز من ورائه على قدميه جميعاً ويزداد منه قرباً بحيث كاد الصبي يبلغ باب بيته حتى بدا وكأنه نصف ميت ومع ذلك لم يفارقه الشبح، بل لحق به مرتقياً السلم، مصطدماً بكل درجة من درجاته واندست في الفراش معه، وسقط ميتاً ثقيلاً على صدره حين استسلم في حجيرته وبعيد الضحى، وقبل أن تشرق الشمس، استيقظ جيري الصغير من نومه المثل على صوت أبيه لقد مني بالإخفاق في ناحية ما، أو على الأقل ذلك ما أستنتجه جيري الصغير من رؤيته ممسكاً بأذني مسز كرانت ضارب مؤخراً رأسه بلوح السرير الأمامية وقال مستر كرانتشر : إني سأفعل بك هذا، وها أني أفي بوعدتي وتضرعت إليه زوجته : جيري جيري جيري وقال جيري: إنك تتنكرين لنعمة الربح التجاري ، وهكذا أشقى أنا ويشقى شركائي وكان من واجبك أن تشرفيني وتطيعيني

ترى ما الذي يملكك، بحق الشيطان، على أن لا تفعل ذلك؟ فاحتجت المرأة المسكينة، سافحة العبرات : إنني أحاول أن أكون زوجة صالحة، يا جيري هل من شروط الزوجة الصالحة أن تقف حجر عثرة في سبيل أعمال زوجها؟ أليكون تشريف المرأة لزوجها بأن تفسد عليه تجارته؟ أن طاعة المرأة لزوجها لا تكون بالتمرد عليه في موضوع تجارته الحيوي؟ إذن، فأنت لم تبأش ذلك العمل المروع، يا جيري.

فأجابها مستر كراننشر : حسبك أن تكوني زوجة تاجر أمين، وأن لا تشغلي عقلك الأنثوي بالتفكير أبأش عمله أم لم يباشر إن زوجة صاحب المطبعة المشرفة لا تتدخل البتة في عمل زوجها أنت تسمين نفسك امرأة تقية؟ إذا كنت تقية، فمن هي المرأة التي ينقصها التقى؟ إن الحب الطبيعي بالواجب يعوزك بقدر ما يعوز نهر التايمس الحسن بالعمر الحديدي الذي يقوم في مجراه، والذي يجب أن يدفع في جوفك وإنما جرت هذه المشاحنة في صوت خفيض، واختتمت بأن نزع التاجر الأمين حذاءه الملوث بالطين وتمدد على أرض الغرفة حتى اختلس ابنه النظر في رعب فألقاه مستلقياً على ظهره متوسد يديه الصدئتين، استلقى هو الآخر في فراشه، واستسلم للنوم مرة أخرى ولم يكن ثمة سمك يطعمونه عند الصباح، بل لم يكن ثمة شي يستحق الذكر من أي شيء وكان مستر كراننشر مغضبا حانقاً، وقد احتفظ إلى جانبه بغطاء قدر حديدي بوصفه قذيفة يؤدب بها مسز كراننشر إذا ما لاحظ عليها أي عرض من أعراض الصلاة ثم إنه غسل وجهه وسرح شعره في الساعة المعتادة وانطلق هو وابنه للالتحاق بوظيفة الظاهرية.

وكان جيرى الصغير، الماشى متأبطاً كرسيه الخفيض إلى جانب والده فى فليت
ستريت الشمس المزدحم، يختلف اختلافاً عظيماً عن جيرى الصغير الهارب فى
الليلة البارحة، وسط الظلمة والوحشة، ما مطارده المخيف لقد جدد الصباح مكره
ودهاءه، وذهب الليل بهواجسه ومخاوفه؛ وهى حال ليس من غير المحتمل أن
يكون كثير من الناس فى فليت ستريت ومدينة لندن قد شاركوه فيها وقال جيرى
الصغير فيما هو يجوز الشارع حريصاً دائماً على أن يتمهل مستر كرانتشر
متوقفاً عن السير قبل أن يجيب: ومن أين لى أن أعلم؟ فقال الغلام الساذج: لقد
حسبت أنك تعرف كل شيء يا أبى فأجاب مستر كرانتشر مستأنفاً سيره، رافعاً
قبعته لينفس عن شعره.

الشائك : همم إنه تاجر فسأله جيرى الصغير المشتعل حيوية : ما البضاعة التى
يتاجر بها يا أبى؟ فأجابه مستر كرانتشر بعد أن أدار السؤال فى ذهنه : بضاعته
ضرب من البضاعة العلمية فسأله الصبي النشيط : جثث الناس، أليس كذلك يا
أبت؟ فقال مستر كرانتشر : أحسب أنها شيء مثل ذلك أوه يا أبت، كم أتمنى لو
أصبح ناشر جثث حين أصبح رجلاً وسري عن مستر كرانتشر، ولكنه هز رأسه
على نحو أخلاقي مرتاب، ثم قال : ذلك رهن بالطريقة التى تشد بها مواهبك
أعتن بمواهبك أعظم العناية ، واكبح جماح لسانك، وعندئذ تصبح أهلاً لكل ما
تصبو إليه فى المستقبل وشجع هذا الكلام جيرى الصغير ، فتقدم أباه بضعة أقدام
ليركن الكرسي الخفيض فى ظل تامبل بار، بينا أضاف مستر كرانتشر قائلاً بينه
وبين نفسه جيرى، أيها التاجر الأمين، هناك أمل فى أن يصبح هذ الغلام نعمة
عليك وفى أن ينسيك كل البلاء الذى تلقاه من أمه.

الحبك

كانت معاقراً الخمر قد بدأت أبكر من العادة في حانة مس دوفارج فمنذ الساعة السادسة صباحاً كانت بعض الوجوه الصفرة تختلس النظر من خلال قضبان نوافذها فتري في داخلها وجوهاً آخر منكبة على كؤوس الخمر وكان مسيو دوفارج يقدم في أحسن الأوقات خمرة هزيلة قليلة الخير ، ولكن الخمر التي قدمها هذه المرة بدت قليلة الخير فوق العادة ليس هذا فحسب، بل لقد كانت خمرة حامض أو محمضة لأنها كانت توقع الاكتئاب في نفوس شاربها إن شيئاً من اللهب الباخوسي ما كان يثب من عصارة العناقيد عند مسيو دوفارج ولكن كانت تختبئ في ثمالاتها نار خانقة الدخان مضرمة في الظلام وكان ذلك الصباح ثالث صباح أسهل فيه الشراب على هذا النحو المبكر في حانة مسيو دوفارج لقد بدأ ذلك يوم الاثنين، وها قد أشرقت الآن شمس الأربعاء، والحق أن الشاربين كانوا عاكفين على التفكير والتأمل بأكثر مما عكفوا على احتساء الخمر ذلك لأن كثيراً من الرجال الذين أصاخوا وهمسوا وانسلوا ههنا وهناك، منذ أن فتحت الحانة أبوابها، كانوا لا يملكون شيئاً من المال ينفقونه إمتاعاً للنفس والروح ومع ذلك فقد كانوا يبدون من الاهتمام بالمكان وكأنهم يستطيعون أن .

(٣)

نسبة إلى باخوس

إله الخمر

يصدروا أمرهم بأن يزودوا ببراميل من الخمر، وكانوا ينسلون من مقه إلى مقعد، ومن زاوية إلى زاوية، محتسين الكلام بدلاً من الراح متبادلين النظرات الشرهة وعلى الرغم من تدفق القوم على الحانة تدفقاً استثنائياً، فلم يكد الخمار بادياً للعيان وما افتقده أحد من الجماعة، إذ إن أية ممن تخط العتبة لم يلتسمه، ولم يسأل عنه، ولم يعجب لأن يرى مدام دوفارج در كرسيها تشرف على توزيع الخمر، وأمامها وعاء فيه قطع نقدية صغيرة متداعية، أصابها من ضروب التشويه التي أحالتها عن صورتها الأولى مثل الذي أصاب تلك القطع النقدية البشرية الصغيرة التي خرجت من جيوبها الرثة البالية ولعل الشوق المتوتر والذهول الشامل كانا موضع ملاحظة الجواسيس الذين ألبوا بالحانة كما كانوا يلمون بكل مكان، رفيع كان أم حقيراً، من قصر الملك إلى سجن المجرم لقد تطاول لعب اللاعبين بالورق، وراح لاعبو الدومينو يشيدون بحجارتها، في إطراق وتفكير أبراج عالية، وأنشأ الشاربون يرسمون على الموائد، بقطرات الخمر المسفوحة، صورة ورسوما حتى مدام دوفارج عكفت على نقش ردنّها بعود أسنانها، ورأت وسمعت شيئاً لا يرى ولا يسمع في مكان بعيد وظلت هذه السيمة ترين على حي سان انطوان حتى الظهر وعندما اتخذ رجلان أغبران سبيلهما في شوارعه وتحت مصابيحها المتأرجحة فأما أول هذين الرجلين فكان مسيو دوفارج، وأما ثانيهما فكان مصل الطرق معتمر قلنسوة زرقاء، فدخل الحانة.

وقد استبد بهما الظماً وكساهما الغبار وكان وصولهما قد أضرم ضرباً من النار في صد سان انطوان انتشرت ألسنته مع خطواتهما المتقدمة، فهو يضطرد ويترجرج شعلاً على الوجوه الواقعة لدى الكثرة الكبيرة من الأبواب والنوافذ ومع ذلك، فلم يلحق بهما أحد، ولم يتكلم أحد عندما دخل الحانة، على الرغم من أن عيني كل إنسان صوبتا إليهما وقال مسيو دوفارج: طاب يومكم، أيها السادة ولعل تلك التحية كانت إيذاناً بأن تنطلق الألسن من عقالها إذ كاد دوفارج ينطق بها حتى أجابه الجمع بلسان واحد: طاب يومك وقال دوفارج هازأ رأسه: الأحوال الجوية رديئة، أيها السادة وهنا نظر كل إلى جاره، ثم أطارقوا جميعاً بأبصارهم واعتصم بالصمت ما خلا واحداً نهض وغادر المكان وقال دوفارج موجهاً الخطاب إلى مدام دوفارج: لقد اجتزت عدة فراسخ أيتها الزوجة، مع مصلح الطرق الطيب هذا، المسمى جاك لقيته، مصادفة، على مسيرة يوم ونصف خارج باريس إنه طفل طيب مصلح الطرق هذا المسمى جاك قدمي إليه شيئاً من الخمر، أيتها الزوجة ونهض رجل ثاني وغادر المكان وقدمت مدام دوفارج الخمر لمصلح الطرق المسمى جاك، الذي خلع قلنسوته الزرقاء تحية للجميع وشرب، وكان يحمل في صدر قميصه شيئاً من الخبز الأسود الخشن قضم منه قضمه حيناً بعد حين، وجلس يمضغ، ويحتسي الخمر قرد منضدة مدام دوفارج ونهض رجل ثالث وغادر المكان أنعش دوفارج نفسه بقليل من الشراب - ولكنه احتسى مقداراً أقل من ذلك الذي قدم للرجل الغريب، إذا كانت الخمر مبذولة عنده ووقف ينتظر حتى يتم الريفي فطوره ولم ينظر إلى أحد من الحاضرين.

ولم ينظر أحد في تلك اللحظة إليه حتى مدام دوفارج كانت قد تناولت حبكها وانكبت على العمل. وسأله دوفارج في الوقت المناسب: هل أتممت طعامك، أيوه عال، إذن سوف ترى الغرفة التي قلت لك إنك ستحتلها إنها سوف تناسبك إلى حد مدهش وانطلقا من الحانة إلى الشارع، ثم انطلقا من الشارع إلى الفناء، : غادرا الفناء مصعدين في سلم شديد الانحدار ، وتقدما من تلك الساعة إلى عليّة هناك كانت فيما سلف من الأيام مقر رجل أبيض الشعر جالس على مقعد خشبي منخفض، مكباً على عمل الأحذية في اهتمام بالغ لم يكن ثمة رجل أبيض الشعر الآن ولكن كان ثمة أولئك الرجال الثلاثة الذين غادروا الحانة منفردين وكانت تجمع ما بينهم وبين الرجل الأبيض الشعر المقيم الآن في مكان قصي صلة صغيرة، هي أنهم اختلسوا النظر إليه، ذات يوم، من خلال صدوع الجدار وأغلق دوفارج الباب في رفق وتحدث في صوت مكظوم : جاء رقم واحد؛ جاك رقم اثنين؛ جاك رقم ثلاثة هذا هو الشاهد الذي لقي أنا، جاك رقم أربعة، كما أمرت أنه سوف يخبركم كل شيء تكلم جاك رقم خمسة ومسح مصلح الطرق جبينه الداكن بقلنسوته وقال: من أين أبدأ، سيدي؟ وكان جواب دوفارج حكيماً إذ قال: أبدأ من البداية واستهل مصلح الطرق حديثه لقد رأيته، أول مرة، أيها السادة منذ عام، وكان متعلقة بالسلسلة تحت عربة المركيز انظروا كيف كان ذلك كنت قد انصرفت من عملي، على الطريق، وكانت الشمس قاصدة إلى الفراش، وكانت عربة المركيز تهبط التل في ببطء، وهو متعلق بالسلسلة هكذا وكرة أخرى مثل مصلح الطرق المشهد بكامله، وكان قد برع في وهنا قاطعه جاك رقم واحد

وسأله هل رأى الرجل قط من قبل؟ فأجابه مصلح الطرق ناصباً قامته: لا، على الإطلاق وسأله جاك رقم ثلاثة كيف استطاع أن يعرفه بعد ذلك إذن؟ فأجاب مصلح الطرق في رقة، واضعاً إصبعه على أنفه: من طول قامته فعندما سألني حضرة المركز تلك الليلة: ما شكله؟ أجاب قائلاً: طويل كالشبح فقال جاك رقم اثنين: كان ينبغي أن تقول قصير كالقزم ومن أين لي أن أعلم؟ فهو لم يكن قد فعل شيئاً آنذاك، لا، وأسر إلي بخبيثة صدره لاحظوا حتى في تلك الأحوال لم أدلى بشهادتي وأوماً إلي حضرة المركز بإصبعه، واقفاً قرب عين الماء الصغيرة، وقال: إيتوني به إيتوني بذلك الوغد وأقسم لكم، أيه السادة، إنني لم أذل بأي شيء وغمغم دوفارج مخاطباً الرجل الذي قاطعه: إنه مصيب في ذلك يا جاك تابع حديثك فقال مصلح الطرق حسناً لقد فقد الرجل الطويل، وأخذا يبحثان عنه كم شهراً؟ تسعة عشرة، أحد عشر؟ فقال دوفارج: لا يهمنا العدد لقد اختبأ في مكان خفي ثم عثر عليه لسوء الحظ تابع حديثك وكنت أعمل، مرة ثانية، فوق سفح الكتيب، وكانت الشمس على وشك أن تأوي إلى الفراش أيضاً وكنت أجمع أدواتي لأهبط إلى كوشي في القرية القائمة في أدنى الكتيب، حيث كان الظلام قد خيم عندما رفعت بصري ورأيت ستة جنود يرتقون التل وكان في وسطه رجل طويل قد أوثقت ذراعاه وشدتا إلى جانبيه هكذا ووقف، يا سادتي، جانباً، قرب ركام من الحجارة، لكي أر الجند وأسيرهم يمرون فقد كانت الطريق موحشة، وكان أي مشهد جدير بأن يلفت النظر وحين أقبلوا بادئ الأمر، لم أعد أرى لهم سمه جنود يسوقون رجلاً طويل القامة موثق اليدين، وأنهم كانوا سوداً في ناظري.

أو يكادون، إلا من ناحية الشمس الذاهبة إلى فراشها، حيه كانت لهم، يا سادتي، حافة حمراء وإلى هذا، رأيت ظلالهم الطويلة تنبسط فوق الهضبة الغائرة على الجهة المقابلة من الطريق، وفوق الكثيب الذي فوقها، وكأنها ظلال العمالقة ليس هذا فحسب، بل لقد رأيت الغبار يكسوهم، وأن الغبار يتحرك أمامهم وهم يتقدمون بخطاهم العسكرية حتى إذا اقتربوا مني عرفت الرجل الفارع الطويل، وعرفني آه، ولكنه كان يتمنى لو يستطيع أن يلقي بنفسه من فوق الكثيب، مرة أخرى، كما قد فعل ليلة التقيته أول مرة، قرب تلك البقعة ذاتها ووصف المشهد وكأنه هناك وكان واضحا أنه يراه في وضوح حي ولعله لم ير شيئا كثيراً في حياته ولم أر الجنود أنني عرفت الرجل الطويل ولم يره هو أيضاً عرفني لقد عهد كل منا إلى عينيه بأن تنتقلا إلى الآخر أنه عرفه وتبينه وقال كبير الجند مشيراً إلى القرية : هيا اذهبوا به سريعاً إلى قبره وذهبوا به إلى هناك بأقصى السرعة وتبعثهم كانت ذراعاه متورمتين بسبب الوثاق المحكم، وكانت نعلاه الخشبيتان ضخمتين سمجتين وكان هو أعرج وإذ كان يمشي نتيجة لذلك في ببطء، فقد ساقوه ببنادقهم هكذا وقد حركة رجل أكرهه بأعقاب البنادق على أن يتقدم إلى الأمام وفيما هم يهبطون الكثيب مثل مجانين يتسابقون، سقط الرجل على الأرض فتضاحكوا وأنهمضوه على قدميه كان وجهه دامياً، ومن ثم صعدوا نحو السجن ورأت القرية كلها باب السجن يفتح في ظلام الليل ويبتلعه هكذا؟ وفتح فمه أقصى ما يستطيع أن يفتحه ثم أطبقه صاكاً إحدى فكيه بالأخرى صكة مدوية وإذ لاحظ دوفارج أنه غير راغب في أن يفتح خشية أن يفسد الأثر الذي أحدثه في نفوس القوم، قال تابع حديثك يا جاك واستأنف مصلح الطرق كلامه ، في صوت منخفض.

وقد وقف يعد رؤوس أصابعه وتراجعت القرية كلها وتهامست قرد العين ونامت القرية كلها ورأت القرية كلها ذلك التعس، فيما ير النائم، وقد ألقى به في غياهب السجن القائم فوق الهضبة الشاهقة فليس في مقدوره أن يخرج منه إلا حين يساق إلى حتفه وفي الصباح طفت بالسجن، وأنا في طريقي إلى عملي، وقد طرحت أدواتي على كتفي، ورحت أمضغ كسرة من الخبز الأسود وهناك رأيته مرفوعاً خلف قضبان قفص حديدي شامخ، ناظراً إلي وعلى وجهه آثار التراب، شأنه الليلة البارحة ولم تكن أي من يديه طليقة لكي يلوح بها إلي ولم أجرو على أن أناديه لقد نظر إلي وكأنه رجل ميت وتبادل دوفارج والرجال الثلاثة نظرات مغضبة كانت نظراتهم قاتمة، مكظومة، تنضح بالانتقام، فيما كانوا يستمعون إلى قصة الرجل الريفي وعلى الرغم من أنهم كظموا مشاعرهم فقد غلبت على وجوههم سيما الصرامة والسلطان كانوا أشبه ما يكونوا بقضاة غلاظ فأما جاء رقم واحد وجاك رقم اثنين فكانا قاعدين على فراش عتيق من قش، وأسند كل منهما ذقنه إلى يده، وسمر عينييه على مصلح الطرق وأما جاك رقم ثلاثة فكان راكعاً خلفهما على إحدى ركبتيه، وقد سمر عينييه على الرجل أيضاً، وأنشأ يجيل يده المضطربة فوق شبكة الأعصاب الدقيقة وقال دوفارج: تابع حديثك ولبت هناك في قفصه الحديدي بضعة أيام، والقرية كلها تنظر إلى سره، فقد كانت خائفة ولكنها ما رفعت أبصارها، من بعيد، عن السجن القائم فوق الهضبة الشاهقة وفي المساء كان أهل القرية يجتمعون، أن ينجزوا عمل النهار، حول العين، فيتجاذبون أطراف الحديث وكانت الوجوه كلها موجهة نحو السجن لقد كانت في الأيام السالفة توجه عند مركز البريد.

أما الآن فقد صارت توجه نحو السجن وتهامس القوم عند العين، بأن الرجل لن يعدم على الرغم من صدور الحكم عليه بالموت وقالوا إن عرائض قد قدمت في باريس تظهر أن مصرع ولده وأفقده الصواب وذهب بعقله وقالوا إن عريضة قد رفعت إلى الملك نفسه ومن أين أدري؟ هذا جائز قد يكون قولهم صحيحاً، وقد يكون غير صحيح.

واعترضه جاك رقم واحد مقطب الجبين: اسمع إذن، يا جاك يجب أن تعرف أن عريضة قد قدمت إلى الملك والملكة، وكل من في هذه الغرفة، ما عداك، رأى الملك يتسلمها، في مركبته التي تجتاح الشارع وكانت الملكة إلى جانبه إن دوفارج هذا هو الرجل الذي غامر بحياته فوثب أمام الخيل والعريضة في يده. وقال رقم ثلاثة، الراكع على الأرض، وأصابعه ما تفتأ تهيم حول أعصابه الدقيقة، في سيما من الشره الصارخ، وكأنما هو جائع إلى شي ما ليس هو بطعام ولا بشراب : اسمع، مرة أخرى، يا جاك ولقد أحاط الحرس، من فرسان ومشاة، بمقدم العريضة، وسددوا إليه الضربات، هل تسمع؟ أسمع، أيها السادة فقال دوفارج: تابع حديثك، إذن سوف يعدم من غير شك ليس هذا فحسب بل لقد تهامسوا قائلين: لا كان قد صرع مولانا، ولما كان مولانا أبا لعبيده والعاملين على أرضه فإنهم سوف ينزلون به العقوبة الخاصة بكل من يقتل أباه أو أمه وقال رجل عجوز، عند العين، إن يده اليمنى التي حملت المدينة سوف تحرق أمام ناظريه وإنهم سوف يصبون في الجراحات التي ستحدث في ذراعيه، وصدره، ورجليه مقادير من الزيت المغلي، والرصاص المذا والراتينج الحامي، والشمع، والكبريت.

وأخيراً يصار إلى تمزيقه عضواً عضواً بواسطة أربعة جياذ قوية ولقد ذكر الرجل العجوز أن ذلاً كله قد أنزل فعلاً بسجين حاول الاعتداء على حياة الملك السابق، لويس الخامس عشر ، ولكن ما يدريني أنه يكذب؟ أنا لست عالماً من العلماء وقال الرجل ذو اليد القلقة والانطباع النهم: إسمع مرة أخرى إذن، يا جاك إن اسم ذلك السجين هو داميان ولقد فعل به ذلك كله في وضح النهار، وعلى قارعة الطريق في مدينة باريس هذه ولم يشاهد أحد في الساحة الواسعة التي ارتكبت فيها تلك الفظائع غير جماعة ما السيدات ذوات الحسب النبيل والزي الأنيق اللائي استبد بهن توق عار إلى أن يتابعن المشهد حتى النهاية ، يا جاك، المتطاوله إلى غروب الشمس حين كان السجين قد خسر رجلين وذراعاً، وكان لا يزال يتنفس أجلاً، لقد فعلوا به ذلك ولكن كيف لم تسمع بهذا؟ ما سنك؟ فقال مصلح الطرق، الذي بدا وكأنه بلغ الستين : خمسة وثلاثون عاماً لقد وقع ذلك وأنت في سن تزيد على العاشرة ولقد كان من الجائز أن تراه فقال دوفارج في نفاد صبر كالح كفى عاش الشيطان تابع حديثك كياً.

-حسناً كان بعضهم يهمس بهذا، وكان بعضهم يهمس بذاك و يتحدثوا عن أي شيء آخر حتى مياه العين بدت وكأنها تتساقط وف لذلك اللحن وأخيراً، في مساء الأحد، حين كانت القرية كلها مستسلمة للرقاد، هبط الجند من السجن، وأخذوا يضربون أرض الشارع الصغ بأعقاب بنادقهم وطفق العمال يحفرون، وطفق العمال يدقون المسام بمطارقهم، والجنود يضحكون ويغنون وفي الصباح كانت مشنقة ارتفاعها أربعون قدماً تنتصب قرب العين مسممة المياه ونظر مصلح الطرق من خلال السقف بأكثر مما نظر إليه، وأوه بإصبعه

وكأنه يرى المشنقة في مكان ما من المساء وترك القوم أعمالهم كلها، واحتشدوا كلهم هناك ولم يقد أح الأبقار إلى المرعى، فظلت الأبقار هناك مع الجمع وعند الظهر قرعت الطبول كان الجند قد مضوا إلى السجن في أثناء الليل، وكان هو وسط جمهرة كبيرة منهم كان موثقاً شأنه من قبل وكانت في فمه كماه محكمة الربط، إلى درجة جعلته يبدو وكأنه يبدو وكأنه يضحك أو يكاد وأوحي إليهم بتلك الصورة بأن غضن وجهه بإبهاميه من زوايا فمه حتى أذنيه وعلى قمة المشنقة تركزت المدية، وشفرتها إلى أعلى ورأسها في الهواء لقد شنقوه هناك على ارتفاع أربعين قدماً، وتركوه يتأرجح مسمماً المياها وتبادلوا النظرات، فيما راح هو يمسح وجهه بقلنسوته الزرقاء وكان العرق قد تقصد منه كرة أخرى، وقد ذكر المشهد شيء مخيف، أيها السادة كيف تستطيع النسوة والأطفال أن يستقوا؟ كيف يستطيع القوم أن يتجاذبوا أطراف الحديث ، عندما يهبه الليل، تحت ذلك الظل؟ هل قل تحته؟ فحين غادر القرية مساس الاثنين، وكانت الشمس تأوي إلى فراشها، ونظرت من الكثيب، كان وقرض الرجل الجائع إحدى أصابعه فيما هو ينظر إلى الثلاثة الآخرين، وارتعدت إصبعه بالنهم المغيظ الذي كان يبدو عليه هذا كل ما هنالك، أيها السادة لقد غادرت القرية عند الغروب كما طلب إلي أن أفعل فرحت أمشي طوال تلك الليلة، ونصف النهار التالي، حتى لقيت كما نبئت هذا الرفيق ثم إنني تابعت المسير معه راكباً حيناً، بقية نهار أمس وطوال الليلة البارحة وها أنا ذا الآن بين أيديكم وبعد صمت قائم قال جاك رقم واحد: حسن لقد عملت في إخلاص، ورويت في صدق هل لك أن تنتظرنا قليلاً خارج الغرفة؟ بكل سرور ، قال مصلح الطرق ومرافقه دوفارج إلى أعلى حيث أجلسه

وانقلب راجعاً كان الثلاثة قد نهضوا، وأقبل بعضهم على بعض يتهامون، عندما عاد دوفارج إلى العلية وتساءل رقم واحد: ما تقول، يا جاك؟ هل نضيف أسماءهم إلى اللائحة؟ فأجاب دوفارج: نضيف أسماءهم إلى سجل المحكوم عليه بالهلاك فتعب الرجل المنهوم: رائع وتساءل الأول: القصر والسلالة على بكرة أبيها؟ فأجاب دوفارج: الهلاك للقصر وللسلالة على بكرة أبيها وكرر الرجل الجائع، في نعيب طرب إلى حد بعيد رائع وشر يقرض إصبعاً أخرى وسأل جاك رقم اثنين دوفارج: أوافق أنت من أن طريقتنا في استطاعتنا دائماً أن نحل رموزها؟ وبكلمة ثانية، يجب أن أقوله تستطيع هي أن تحل رموزها؟ فأجاب دوفارج متصدرة جاك، لو شئت زوجتي أن تحفظ ذلك الثبت في ذاكرتها فحسب، إذن لما أضاعت منه كلمة واحدة، بل لقد أضاعت منه مقطع واحد فكيف وهي تطرز تلك الأسماء بقطبات خاصة، ورموزها الخاصة إنها خليقة بأن تكون، إذن، واضحة لدينا كالشمس في رائعة النهار ثقوا بمدام دوفارج فلأن يمحو أضعف الجبناء نفسه من سجل الوجود أسهل من محو حرف واحد من اسمه جرائمه من الثبت الذي تحبكه مدام دوفارج حبكاً.

وغمغموا بعبارات الثقة والموافقة، وعندئذ تساءل الرجل الجائع هل تعيد ذلك الريمي إلى قريته في الحال؟ أرجو ذلك إنه ساذج جداً أليس هو خطراً بعض الشيء؟ فقال دوفارج: إنه لا يعرف شيئاً، أو على الأقل إنه لا يعرف أكن من تلك الأشياء التي ترفعه في سهولة إلى مشنقة على مثل ذلك الارتفاع إنني أكفله دعوه يبقى معي ولسوف أتولى أمره، وأبلغه طريقه إنه يوم أن يرى العالم الجميل: الملك والملكة، والبلاط دعوه يرى ذلك كله يوم الأحد

فصاح الرجل الجائع محملاً: ماذا؟ أمن الإمارات الطيبة أن يرغب في رؤية الملك وجماعة الأمراء والنبلاء؟ فقال دوفارج: إذا أردت أن تجعل الهرة ظمأى إلى الحليب فكر حكيماً وضعه أمامها وإذا أردت أن تثير ضراوة الكلب فكُن حكيماً وأره فريسته الطبيعية واعتصموا بعد ذلك بالصمت وإذ رأوا إلى معبد الطرق يهوم مرفرط النعاس، عند أعلى السلم، فقد سأله أن يستلقي على فراش القش خمارة دوفارج يأوي إليها عبد ريفي من تلك الطبقة ولولا دعر عجيب استبد به من السيدة دوفارج، إذن لكان في استطاعتنا أن نقول إن حياته كانت جديدة جداً، سائغة جداً ولكن مدام دوفارج كانت تنفق ساعات اليوم كلها جالسة إلى منضدتها، معرضة عنه إعراض صارخ، موطدة العزم على أن لا تدرك أن لوجوده هناك أي علاقة بأي شيء أعمق من السطح، حتى لقد غدا يرتجف في نعليه الخشبيتين كلما وقعت عين عليها كان يجادل نفسه قائلاً بأن من المتعذر عليه أن يتنبأ بالذي سوه تدعيه هذه السيدة بعد ذلك وقد أحس، أعمق الإحساس، بأنه إذا وقع في رأسها المزدان بالحلى المشرقة أن تدعي أنها رآته يقتل رجلاً ثم يسلم جلد فليس من ريب في أنها لن تحجم عن ذلك، وأنها خليا بأن تمضي في تلك الطريق حتى تبلغ غايتها من أجل ذلك لم يسر معبد الطريق برغم أنه تظاهر بالحبور حتي أقبل يوم الأحد ووجد أن مدام دوفارج سوف ترافق زوجها وترافقه إلى فرساي وزاد في انزعاجه وارتباكته أن مدام دوفارج لم تكف لحظة عن الحبك، في العربة العمومية، طوال الطريق إلى هناك وزاد في انزعاجه وارتباكته أكثر أن تظل مدام دوفارج مكبة بعد الظهر على حبكها فيما كان الحشد من حولها ينتظر رؤية المركبة التي تقل الملك والملكة

وقال رجل كان واقفاً إلى جانبها إنك لتجهدين نفسك بالعمل، سيدتي فأجابت مدام دوفارج: أجل إن لدي عملاً كثيراً يجب أن أقوم به ماذا تعملين، يا سيدتي؟ أشياء كثيرة مثلاً فأجابت مدام دوفارج في رباطة جأش: أصنع أكفاناً، مثلاً حاجة إلى ملك وملكة ليعيداه إلى حالة الأولى من النشاط فليس من شأني أنه سعد بأن يجد دواءه في متناول يده إذ ما هي إلا لحظة حتى أقبل الملك ذو الوجه العريض والملكة ذات الوجه المليح في مركبتهما الذهب تحف بها جمهرة زاهية من رجال البلاط وباقية وضاعة من السيدات الضاحكات والنبلاء الفاتني المظهر وفي ذلك البحر من الجواهر وثياب الحرير، والذرور، والبهاء، والأجساد المتكبرة في أناقة والوجوه المترفعة في ملاحه، من الجنسين جميعاً في ذلك البحر ابتر مصلح الطرق، وقد غلبت عليه نشوة الابتهاج حتى لقد صاح عاش الملك عاشت الملكة عاش كل إنسان وكل شيء وكأنه لم يسمع قط بأن في عصره أناساً يحملون اسم جاك ويتمتعون بالقدرة على أن يكونوا في كل مكان ثم وقعت عينه على حدائق، وأفنية، وسطائح، وبنابيع وضاف خضر، وعلى الملك والملكة مرة ثانية، وعلى جمهرة إضافية من رجال الحاشية والنبلاء والسيدات، فصاح من جديد داعياً لهم بطول البقاء، حتى لقد بكى من الانفعال وفرط الابتهاج وطوال هذا المشهد الذي استمر نحواً من ثلاث ساعات، لم يكف عن إطلاق الصيحات وسفح العبرات، وإظهار ضروب الانفعال الصاخب وطوال هذا المشهد كان دوفارج يمسك به من طوق قميصه وكأنما يريد أن يحول بينه وبين الطيران إلى أولئك الأشخاص الذين جعلهم موضع تقديسه الموجز، وتمزيقهم إرباً إرباً وقال دوفارج، وهو يربت على ظهره، حين انتهى ذلك كله، وكان يؤيده: مرحى إنك غلام طيب.

وكان مصلح الطرق قد شرع يثوب إلى رشد، متسائلاً بينه وبين نفسه : ألم يخطئ في هذا الذي بدر منه؟ ولكن لا وهمس دوفارج في أذنه: إنك أنت الشخص الذي نطلب وصاح مصلح الطرق وعلى وجهه سيما التأمل والتفكير : هاى هذا صحيح هؤلاء المجانين لا يعرفون شيئاً فبينما يزدرون بأنفاسك ويعملون على إخمادها إلى الأبد في صدرك وصدور مئات من مثلك كارهين لأي من جيادهم أو كلابهم مثل هذا المصير، تجدهم لا يعلمو من أمرك إلا ما تنطق به أنفاسك من حسن الدعاء لهم دع تلا الأصوات تخدمهم فترة أخرى، فليس في ميسورها أن تخدمهم طويلاً وألقت مدام دوفارج نظرة متشامخة، على الزبون، وهزت رأس علامة الموافقة والتأييد وقالت: أما أنت فسوف تصيح وتسفح العبرات لأي شيء، إذا كان ذا مشهد جميل وصوت مدو، قل أليس كذلك ؟ حقا، يا سيدتي، إنني أظن ذلك سوف أفعل ذلك إلى حين إذا ما عرض على ناظريك ركام ضخمة من الدمى، وطلب إليك أن تحطمها وتسلبها حليها لمصلحتك الخاصة فإنك تختار أبهاه وانقاه قل أليس كذلك؟ نعم، يا سيدتي أجل وإذا ما أراك أحد سربة من الطير مهيض الأجنحة فليس يستطيع الطيران، وطلب إليك أن تقتلع ريشها عن أجسادها لمصلحتنا الخاصة فإنك تختار أجمل الطير ريشاً وتبدأ بها، أليس كذلك؟ هذا صحيح، يا سيدتي فقالت مدام دوفارج ملوحة بيدها نحو المكان الذي تجلت فيه تلك المشاهد آخر مرة : لقد رأيت اليوم دمي وطيور في آن معاً فارجع إلى منزلك.

أحبك يستمر

ورجعت مدام دوفارج وزوجها في أمن إلى قلب سان انطوان، فيما أصغي لهمس الأشجار شبح ضئيل على رأسه قلنسوة زرقاء كان يغذ السير وسط الظلام، ووسط الغبار، هابطا الشارع الطويل المجهد الذي تكتنفه الأشجار من جانبيه ، والذي يؤدي في ببطء إلى نقطة الدائرة عندها قصر مولانا المركز - الراقد في جدته والحق أن وجوه ذلك القصر الحجرية قد فرغت الآن للاستماع إلى همس الأشجار وخير العين إلى درجة جعلت فزاعات القرية القلائل المتقدمين إلى مقربة من الفناء الحجري الكبير وسلم القصر أثناء إلتماسهم لشيء من العشب يأكلونه وشيء من الأعواد اليابسة يحرقونها يتوهمون بخيالهم السقيم أن الانطباع الذي يعلو تلك الوجوه قد تغير فقد سرت في القرية بعيد مصرع المركز إشاعة مهزولة جرداء كوجوه أهل القرية تقول الوجوه بذلت، حالما بيت المدينة في جسد القتل، سيما الكبر والغرور واستبدلت بها سيما الغضب والألم وإنه حين تصببت تلك الجثة المتدليه على أعواد يبلغ ارتفاعها أربعين قدما فوق عين الماء، تغيرت تلك الوجوه من جديد فغلبت عليها سيما المنتقم المدرك ثأره ، تلك السيمه التي قدر لها أن لا تزايلها بعد ذلك أبد الدهر وعلى الوجه الحجرة القائمة فوق نافذة حجرة النوم الضخمة حيث شرع رب القصر تبده نقرتان دقيقتان على الأنف المنحوت لم تغفل عنهما الآن عين أحد من أهل القرية، ولم تقع عليهما من قبل عن أحد من أهل القرية قط ولن يقدر لاثنتين أو ثلاثة من الفلاحين البالي الثياب أن ينفصلوا في بعض الأحوال النادرة عن الحشد

ليختلسوا نظرة إلى تمثال حضرة المركز الحجري فكانوا لا يكادون يومئون إليه بأصبع معروقة حتى يستبد به الذعر فتحملهم أرجلهم إلى حيث الطحالب وأوراق الأشجار، فكأن الأرانب المحظوظة أكثر منهم، القدرة على أن تجد رزقها هناك كان كل من القصر والكوخ والوجه الحجري والجثة المتدلية واللطخة الحمراء على الأرض الحجرية، والمياه الصافية في عين القرية بل كانت آلاف من الفدادين الواسعة، ومقاطعة كاملة من فرنسا وفرنسا نفسها برمتها تستلقي تحت سماء الليل، وقد تركزت كلها في خيط ضئيل أشبه بالشعرة الدقيقة وهكذا يكمن عالم بكامله، بكل ما فيه من عظمة وحقارة، في نجمة متألقة وكما تستطيع المعرفة الإنسانية أن تطلق شعاع من نور وتحلل طبيعة تكوينها، كذلك قد يتيسر لذلك الأرفع أن يقرأ في تألق أرضنا الواهن كل فكرة وعمل، وكل رذيلة وفضيلة يصدر عنها كل كائن مسؤول من الكائنات التي تحيا على سطحها أجل، لقد تقدمت مدام دوفارج وزوجها في عربتهما العمومية المتنقلة تحت ضوء النجوم، إلى باب باريس ذاك، الذي كان لا بد من أن تفضي رحلتها إليه وهناك وقفت بهما العربية وقفتها المعتادة عند الحرس، وأقربت الفوانيس المألوفة تومض ابتغاء القيام بعملية التحقيق المعهودة وترجل مسيو دوفارج، إذ كان يعرف جندياً أو جنديين هناك ورجلاً من رجال الشرطة وكان على صداقة وثيقة بهذا الأخير، فعانة في حرارة وحين أطل سان انطوان مرة أخرى كلا من مدام دوفارج ومسي مدام دوفارج لزوجها قل إذن، يا صديقي ماذا قال جاك الشره ذلك؟ شيئاً قليلاً هذه الليلة، ولكنه أنبأني بكل ما يعرفه لقد عهد به حيناً إلى جاسوس جديد وقد يكون ثمة جواسيس جدد غيره.

ولكنه يعرف غير واحد منهم فقالت مدام دوفارج رافعة حاجبيها في انطباع تجاري بارد حسنا أمن الضروري أن ندون اسمه في الثبوت؟ ماذا يدعون هذا الرجل؟ إنه إنجليزي ذلك أفضل ما أسمه؟ بار ساد قال دوفارج ذلك لأفضل الاسم بنبرة فرنسية ولكنه كان شديد الحرص على أن ينقله إليها في دقة حتى لقد تهجاه بعد ذلك تهجئة صحيحة وكررت السيدة : بارساد حسن، واسمه الأول؟ جون فكررت السيدة بعد أن غمغت بذلك الاسم مرة بينها وبين نفسها جون بارساد وشكله هل تعرفه؟.

-في نحو الأربعين من عمره؛ طوله خمسة أقدام وتسعة إنشات تقريبا أسود الشعر داكن البشرة؛ جميل الطلعة على العموم؛ ذا كن العينين؛ ذو وجه نحيل طويل شاحب اللون وأنف أعقف ولكنه غير مستقيم إذ إن به ميل غريب نحو الخد الأيسر وإذن فالملامح التي تغلب على وجهه شريرة مشؤومة فقالت السيدة ضاحكة : يا إلهي هذه لوحة فنية سوف ندون اسم الحال اتخذت مدام دوفارج مجلسها إلى المنضدة، وأنشأت تعد القطع النقدية التي اجتمعت خلال غيابها، وتفحص محتويات الخمارة : ألقت نظرة على النفقات المدونة في الدفتر، ودونت نفقات آخر من عندها، مدققة في مراجعة الحساب الذي قدمه إليها الخادم بكل الوسائل الممكنة، وأذنت له في أن يأوي إلى فراشه، ثم أفرغت الوعاء مما اجتمع فيه من القطع النقدية ، كرة أخرى، وأخذت تعقد منديل عليها عقد مستقل صيانة لها بقية ساعات الليل وفي تلك الأثناء كان مسيو دوفارج يذرع المكان جيئة وذهابا، وجليونه في فمه، مبدياً الإعجاب والرضا، ولكن من غير أن يتدخل البتة والواقع أن تلك الحال غلبت عليه في قضايا العمل والشؤون المنزلية.

فهو يذرع ها الميدان، جيئة وذهاباً ، طوال الحياة كان الليل قائظاً، وكان هواء الخمارة الموصدة المحاطة بمثل تلا البيوت البالغة القذارة حبيسة كريبه الرائحة ولم تكن حاسة الشم عند مسيو دوفارج مرهفة بأية حال ولكن عبق الخمر التي اشتمل عليها المكان كان أقوى منه في أي وقت سلف، وكذلك عبق إلى الروم والبراندي وبزر اليانسون ونفخ مقصية ذلك العبق المركب عنه وأزاح غليونه المستنفد قالت السيدة رافعة بصرها فيما هي تعقد القطع النقدية : أنه متعب ليس ههنا غير الروائح المألوفة فأقر زوجها بما ذهبت إليه قائلاً : أنا متعب، بعض الشيء فقالت السيدة التي لم تسمر عينيها على الحسابات كما سمرتها الليلة، وإن تكن قد وجهت إليه نظرة أو نظرتين : ولكنك مكتئب بعض الشيء أيضاً أه، الرجال، الرجال فقال دوفارج: ولكن يا عزيزتي فقال دوفارج وكأن فكرة ما قد نزعته من صدره نزعاً : حسن، إن الوقت قد طال فكررت زوجته: نعم، إن الوقت قد طال ولكن دلني على شأن من الشؤون الخطيرة لم يتناول الوقت فيه؟ إن الانتقام والاقتصاد يقتضيان زمناً طويلاً هذه هي القاعدة.

وقال دوفارج : إن قتل المرء بالصاعقة لا يحتاج إلى زمن طويل فتساءلت السيدة في هدوء :ولكن ما المدة التي يقتضيها زمن الصاعقة وادخارها؟ قل لي ورفع دوفارج رأسه في تفكير وكأن في ذلك شيئاً يستدعي التفكير حقاً وقالت السيدة : إن الزلزال لا يحتاج إلى وقت طويل لكي يبتلع مدينة أليس كذلك؟ ولكن قل لي ما المدة التي تحتاج إليها الطبيعة حتى تعد الزلزال؟ فأجاب دوفارج : مدة طويلة، فيما أحسب ولكن ما إن يتم إعداده حتى يقع، ويسحق كل شيء أمامه سحقاً.

وهو أثناء ذلك رهن الأعداد أبداً ، وإن لم ير ولم يسمع هذا هو عزاؤه عما أنت فيه فاذكر ذلك عقدت إحدى العقد، وعيناها تقذفان بالشرر وكأنها تخنق عدو وقالت السيدة باسطة يدها اليمنى للتوكيد : أقول لك إنها وإن طال طريقها سائرة على الدرب ولا بد أن تصل أقول لك إنها تنكفى، ولك لن تتوقف أبداً أقول لك إنها لا تفتأ تتقدم انظر حواليك وفكر في حيوات جميع الناس الذين تعرفهم، وتأمل في وجوه جميع الناس الذي تعرفهم، واعتبر الغيظ والسخط اللذين يعمل إخواننا على إشاعتهم.